

محاضرات مجمعية

بقلم

الدكتور شوقي ضيف

رئيس المجمع

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

طبعت بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية



محاضرات مجمعية

بقلم

الدكتور شوقي ضيف

رئيس المجمع

مركز الحاسب الآلى

مجمع اللغة العربية

القاهرة - ١٩٩٨

طبعت بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

مُقَدِّمَة

هذه محاضرات ألقيتها في المؤتمرات السنوية لمجمع اللغة العربية القاهرى رأيت من الخير أن أنشرها لعلها تمهد لبحوث أوسع منها لدى الزملاء المجمعيين، أو لعل أحدهم يجد فيها فكرة أو أفكارًا تنفع في بحث من بحوثه القيمة في اللغة أو الأدب العربي أو الحضارة العربية أو الأندلسية.

المحاضرة الأولى في توحيد المصطلح العلمى في النقل والتعريب

وهو نفس ما حدث في النهضة العلمية للأمة العربية طوال ستة قرون من القرن الثاني الهجرى إلى القرن الثامن ، إذ كان علماؤها شرقًا وغربًا يتداولون مصطلحات علمية واحدة في مختلف العلوم قادوا بها العلم ستة قرون متعاقبة حضاريا وعلميا . وفي القرن الحاضر كثرت المجامع اللغوية والهيئات العلمية.والعلماء الأفذاذ ، وعنوا جميعًا بوضع معاجم للمصطلحات العلمية العربية دون عناية بتوحيدها ، فكثرت البلبلة فيها ، وتأسس اتحاد المجامع اللغوية منذ أكثر من ربع قرن لرفع هذه البلبلة وتوحيد المصطلحات العلمية ، ولا بأس من أن تنشأ هيئة علمية لغوية لدعم هذا التوحيد الذى تنشده الأمة .

المحاضرة الثانية عن الفصحى المعاصرة

وهي تبدأ بلمحة عن تاريخها وتطورها وحملها للعلوم وأدوات الحضارة ونفوذها إلى أسلوب ينبذ الألفاظ الغريبة والمبتذلة. وما حدث للفصحى من تطور في القديم حدث لها ما يماثله في القرن الماضي عن طريق صلاتنا بالغرب والبعوث التي عادت منه ونقلت، مع خريجي مدرسة الألسن، العلوم الغربية إلى العربية. وحدثت في مصر نهضة علمية كبرى وقفها الإنجليز بخبثهم في أواخر القرن الماضي إذ جعلوا التعليم في المدارس العليا باللغة الإنجليزية بدلاً من العربية ، ولم يلبث علماء العرب ومصر في القرن الحاضر أن حاولوا - بكل قوة - إعادة نهضتنا العلمية فعنوا بوضع المعاجم العلمية ووضع منها كثير ، ولمجمعنا نحو أربعة عشر معجمًا علميا سوى معجم لألفاظ الحضارة وشؤون الحياة. ونهضت الفصحى نهضة واسعة بما استحدثت من المقالة الأدبية والسياسية وغيرها ومن المصطلحات النقدية وفن القصة والمسرحية. وأحدثت الصحافة للفصحى لغة ثالثة مبسطة غاية التبسيط، والمأمول أن تحدث الإذاعة المسموعة والمرئية فصحى مبسطة مقابلة .

المحاضرة الثالثة في تيسير النحو التعليمي

وقد وضعت له أربعة أسس ، أولها تنسيق أبواب النحو بحيث تُرد أبوابه الفرعية وشواهدها إلى أبوابه الأساسية، ويوضح ذلك باب التمييز إذ ذكر فيه التمييز مع الفعل اللازم والصفة المشبهة واسم التفضيل وفعل التعجب ونعم وبئس وصيغة الاختصاص وكم الاستفهامية والخبرية . وبذلك ألغي في هذا التنسيق للتمييز تمييزُ النسبة الذي لا تفهمه بتاتا الناشئة مع أبواب الصفة المشبهة واسم التفضيل والتعجب، والصيغ الثلاثة بعدها. وكل هذه الأبواب تلغى في النحو التعليمي المقترح. ومثلها أبواب أخرى ترد إلى الأبواب الأساسية مذكورة في المحاضرة تخفيفًا عنهم. والأساس الثالث إلغاء الإعراب التقديري في المقصور والمنقوص والمضاف إلى ياء المتكلم

والإعراب المحلى في المبنيات من الجمل. والأساس الثالث أن لا تُعْرب كلمة لايفيدها إعرابها شيئًا فى صحة نطقها مثل إعراب "ما خلا" وأختيها فى باب الاستثناء مما ذكر فى المحاضرة. والأساس الرابع وضع تعريفات محكمة لأبواب مضطربة فى كتب النحو التعليمى وهى أبواب المفعول المطلق والمفعول معه والحال. وبذلك كله يصبح النحو مذللاً ميسرًا فى كتب الناشئة .

المحاضرة الرابعة تتمة للمحاضرة السابقة فى تيسير النحو التعليمى

أضفت فيها إلى الأسس الأربعة السابقة أساسين جديدين : خامسًا وسادسًا. والأساس الخامس حذف الزوائد التى تعقد النحو التعليمى وتعوق إساغة الناشئة له، من ذلك كثرة الشروط فى بعض الأبواب كبابى التفضيل والتعجب وكثرة القواعد والصيغ الشاذة التى لا تستعمل كما فى باب التصغير وترك الإعراب الطبيعى للصيغ مثل صيغة "*قراءة النحو مفيدة* بجر كلمة النحو للإضافة وهى صيغة طبيعية فلا تعرض على التلاميذ صيغة : *قراءةٌ النحوَ مفيدة*" بتنوين قراءة ونصب كلمة النحو. ومثل هذا التعسف فى الإعراب بكتب النحو كثير. والأساس السادس إدخال بعض إضافات على كتب النحوالتعليمى تتصل بالنطق مثل معرفة التشديد والتنوين وهمزة القطع وهمزة الوصل وأل الشمسية والقمرية وبعض صور الإدغام. وينبغى عرض تقسيم الجملة إلى اسمية وفعلية، وحروف الزيادة الجارة وغيرها، والتقديم والتأخير فى الجمل، والذكر والحذف. ولابد أن تعرض عليهم جداول مفصلة لاتصال ضمير الرفع بالفعل واتصال نون التوكيد .

المحاضرة الخامسة عن لغة المسرح بين العامية والفصحى

ذكرت فى بدء المحاضرة كلمة عن خيال الظل ومسرحياته ومحاكاة يعقوب صنّوع وغيره للمسرح الغربى فى القرن الماضى، وعرضت كيف أخذ الكتاب المصريون فى القرن العشرين يؤلفون مسرحيات بالفصحى تارة وبالعامية تارة ثانية. وأدخل شوقى إلى الشعر الفصيح -لأول مرة-

مسرحياته التى جعلت الفن المسرحى يرسخ فى الشعر العربى. وبالمثل جعل توفيق الحكيم هذا الفن يرسخ فى النثر العربى. وأخذ كثيرون ينادون باستخدام العامية فى المسرح فرأى أن يستخدم لغة ثالثة بين الفصحى والعامية فى مسرحيته *الصفقة* التى يناضل فيها الفلاحون لامتلاك قطعة من الأرض. وهو موفق حين يدخل فيها عبارات وأمثالا عامية فصيحةً تامة الفصاحة ويبارحه التوفيق حين يكثر فيها من كلمات عامية أبدلت الذال دالا فى مثل ذبح والثاء تاء فى مثل ثلاث والظاء ضادا فى مثل بعظمة لسانك. وبذلك هبط بالفصاحة فى المسرحية إلى دوائر العامية بدلا من أن يرتفع بالعامية إلى دوائر الفصحى. وبالمثل صنع بأسلوبه فى مسرحيته *الورطة*. وبذلك لم ينجح عند الحكيم ما أراده من لغة ثالثة .

المحاضرة السادسة عن " الشعر الحر بين التراث الشعرى والحداثة "

معروف أن الشعر الحر يفقد القافية والشطر والبيت. ويتحول إلى سطور متلاصقة تطول وتقصر وكأن قصائده مقالات نثرية. وقد وجهت حملات عنيفة إليه فى أواسط القرن ويحتج أصحابه بأن الشعر اليونانى والرومانى يفقد القافية ويقولون إن حياتنا تبدلت وينبغى أن يتبدل معها إيقاع الشعر، وينبغى أن نأخذ حريتنا فى النظم كما نريد. ومعروف أن شعراء العربية استحدثوا أنماطًا جديدة من الشعر الدَّورِى ، وجميعها تتمسك بإيقاع الشعر العربى ولماذا لا يحاول أصحابه استحداث نمط من هذا الشعر يحتفظ بإيقاعه الموروث. وهم إنما صنعوا ذلك بعامل وهمى هو عامل الحداثة. ومن الحداثة السيئة فى هذا الشعر غموض الكثرة من قصائده حتى لتتحول إلى سلسلة من الرموز. ومن أسوأ صوره ما استحدث فيه من القصيدة النثرية وهى تفقد كل صلة بإيقاع الشعر العربى حتى بالتفعيلة، وهى إيذان فى رأينا بأن دور هذا الشعر الحر أوشك على نهايته.

المحاضرة السابعة عن اشتقاق الأفعال من أسماء الأعيان

اللغة العربية لغة اشتقاقية تكثر فيها اشتقاقات الأفعال والأسماء كثرة مفرطة. مما يجعلها من قديم تتسع لعلوم الدين واللغة وعلوم الأوائل من كيمياء وغير كيمياء. ومعروف أن الفعل الثلاثي يشتق منه ثلاثة أفعال بزيادة حرف هي : أفعل – فعّل – فاعل. وخمسة أفعال بزيادة حرفين هي: افتعل – تفعّل – تفاعل – انفعل – افعلّ. وثلاثة أفعال بزيادة ثلاثة أحرف هي: استفعل – افعوعل – افعالّ. وجعل المجمع لجواز الاشتقاق من أسماء الأعيان الجامدة المعربة أربع صيغ هي : فعّل بتشديد العين ولازمها تفعّل، وفعلل ولازمها تفعلل. وزادت عليها هذه المحاضرة ثلاث صيغ : صيغة فعل الثلاثي ويشتق من أسماء الأعيان العربية والمعرَّبة . وشمل صيغتا أفعل واستفعل. وتلك صيغ ثلاثة جديدة تزاد على صيغ المجمع الأربعة، ومعها استعمالات كثيرة من العربية.

المحاضرة الثامنة في الفصحى والعامية المصرية

تحدثتْ هذه المحاضرة عن الفصحى وتطورها الرائع في العصر الحديث ثم تحدثت عن العامية وما فيها من تحريفات لكلمات الفصحى، ولاحظت أن هذه التحريفات قسمان : قسم شاع في العامية المصرية من اللهجات الشاذة للقبائل العربية التي نزلت مصر مثل كسر حرف المضارعة، والنطق بالفاعل المجموع وضميره مع الفعل، ومثل اطراد جمع المذكر السالم في حالة الرفع بالياء والنون. وتبلغ هذه التحريفات التي شاعت في العامية عن لهجات القبائل التي تركتها واحدًا وعشرين تحريفًا شاذة على الفصحى وبينتها المحاضرة بيانًا تامًا في الأفعال والأسماء والحروف. وبجوارها تحريفات في العامية لكلمات الفصحى لا ترجع إلى أصل في اللهجات العربية ، وقد بلغت أحد عشر تحريفًا. وتلا ذلك في المحاضرة أهم إبدالات الحروف من الهمزة إلى الياء في العامية .

المحاضرة التاسعة عن منهج طه حسين فى الدراسات الأدبية

كان طه حسين منذ سنة ١٩٠٨ يصقل ذوقه بما يسمعه صباحًا من تحليلات الشيخ المرصفى للنصوص الأدبية كما يصقل عقله بما يسمعه مساءً من المستشرقين فى الجامعة القديمة وخاصة من نالينو ودراسته *الأدب الأموى والمؤثرات السياسية وغير السياسية فيه*. وتمثل هذا المنهج الغربى فى دراسة الأدب العربى تمثلاً قويمًا استضاء به فى كتابة رسالته عن ذكرى أبى العلاء التى نال بها درجة الدكتوراه من الجامعة القديمة سنة ١٩١٤ ، وهى تعد بدء التاريخ الدقيق لوضع الأسس القويمة لتاريخ الأدب العربى، إذ يوضح فى مقدمتها أن التاريخ الصحيح لهذا الأدب أن تدرس أعلامه دراسة تحليلية تتبين فيها روح العصر بكل مؤثراته وعلله البيئية والسياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والعقلية. ولما أظهر من قدرة علمية فى دراسة أبى العلاء أرسل فى بعثة إلى فرنسا وعاد منها وأخذ يكتب عن قصص سوفوكليس اليونانى والقصص التمثيلية الفرنسية وشعر اللهو والمجون فى العصر العباسى وشنت عليه حملة فقال إن تقديس العصور خطأ وإنه ينبغى أن تكفل للباحث الحرية العلمية. وعين أستاذا لآداب اللغة العربية فى جامعة القاهرة ونشر كتابه ***فى الشعر الجاهلى*** وشنت عليه حملات أشد عنفًا، وأعاد نشر هذا الكتاب باسم ***فى الأدب الجاهلى*** استضاء فيه بمذهب ديكارت فى الشك وشكٌ فى الشعر الجاهلى جملة على نحو ما صنع فى كتابه السابق عن الشعر الجاهلى. وصوّر فيه مذاهب الدراسات العلمية لتاريخ الأدب عند النقاد الفرنسيين وآثر مذهب التأثر الذاتى مع فتح الأبواب لمذاهب الدراسة العلمية. وبذلك كله وضع طه حسين المنهج الدقيق لدراسة الأدب، ولهُ بعد ذلك دراسات أدبية مختلفة من أهمها كتابه ***مع المتنبى*** .

المحاضرة العاشرة عن استكمال عبد الرحمن الأموى الأوسط لأسس الحضارة الأندلسية

كانت قد رسخت فى الأندلس قبل عبد الرحمن الأوسط أسس العربية والقرآن الكريم وعلومه الدينية، وعنى أن تملأ قصوره بالتحف والرياش المشرقية وقلده فى ذلك الأندلسيون ووزراؤه ، وحظى بنزول زرياب تلميذ إسحق الموصلى فى الغناء قرطبة لعهده، حاملا إليها ألحان الغناء المشرقى، وأخذ الأندلسيين بطرق البغداديين فى الملبس والمأكل وأنشأ له عبد الرحمن مدرسة لتعليم الغناء، وازدهر فى قرطبة وقادت أوربا فيه، كما قادتها فى الحضارة المشرقية. وعنى عبد الرحمن الأوسط بالمرأة ، واخترق قرطبة ببناته وبعض نسائه فى مواكب بديعة، وبذلك أعدَّ المرأة الأندلسية لنهضة، بحيث أصبح لبعضهن - فيما بعد - ندوات يسبقن بها المرأة الباريسية. وأرسل البعوث فى نقل علوم الأوائل من بغداد إلى قرطبة، وبذلك أعد الأندلس لنهضة علمية عظيمة، وأنشأ للدولة مجلس وزراء سابقًا به مجالس الوزراء الغربية. ووزع مصالح الدولة على هيئات سميت خططًا كخطة القضاء، وخص به المالكية، مما جعل مذهب مالك فى الفقه المذهب المفضل فى الأندلس بين المذاهب الفقهية .

المحاضرة الحادية عشرة عن إيحاءات بديع الزمان لابن شهيد فى التوابع والزوابع

ابن شهيد من كبار أدباء الأندلس، ومن أهم أعماله رسالة التوابع والزوابع، والتابع الجنى والزوبعة الشيطان، ومَثّل له فى فواتحها تابعة من الجن ، وتصادقا واستأذنه فى أن يلقى به توابع كبار الشعراء فى واديهم وحمله إليهم، ولقى به توابع امرئ القيس وطرفة وقيس بن الخطيم وأبى تمام والبحترى وأبى نواس والمتنبى، وكانوا ينشدونه من أشعارهم التى أنطقوا بها شعراءهم وينشدهم من أشعاره فيعجبون بها ويجيزونه. وينتقل به تابعه إلى مَرْج الكتاب، والتقى بتوابع عبد الحميد الكاتب والجاحظ وبديع الزمان وأعجبوا بنثره، وأجازوه، ويسألونه عمن يطعن عليه ويذكر ثلاثة

أهمهم العالم اللغوى الإقليلى الذى ينقد أشعاره لتلاميذه، وأصلاه ناراً حامية. ولم يوفق من كتبوا عن التاريخ الذى كتب فيه ابن شهيد رسالته، وخطأ شديد أن يقال إن أبا العلاء تأثر بها فى *رسالة الغفران*. وأوضحت أنه إنما تأثر فيها بديع الزمان فى مقامته الإبليسية وما فيها من إلهام الشياطين الشعراء لأشعارهم .

المحاضرة الثانية عشرة عن الفصحى والعامية والدعوة إليها

بدأت هذه المحاضرة بعرض لتاريخ الفصحى من العصور القديمة إلى العصر الحديث، كما تحدثت عن العامية وكتابة أسلافنا بها ألف ليلة وليلة ومسرحيات هزلية وأزجالا لا تحصى. ولا نعرف أسماء من كتبوا بها ملاحم عنترة وسيف بن ذى يزن وغيرهما لأنهم كانوا من أبناء الشعب ولا تهمهم الشهرة. ولم تقم حينذاك بين أصحاب الفصحى وأصحاب العامية خصومة غير أنها قامت فى أواخر القرن الماضى واحتدمت فى هذا القرن، ومن دعاواهم أن الفصحى لغة وافدة . والصحيح أن الفصحى تاريخيا أقدم فى مصر من العامية التى أخذت تنشأ بعد القرون الثلاثة الأولى للهجرة، ومن دعاواهم أن العامية لا تحتاج إلى تعليم وهى بذلك ليست لغة. ومن دعاواهم أن العامية لغة الشعب والفصحى لغة فئة معينة. والصحيح العكس إذ عامية الوجه البحرى غير عامية الصعيد وعامية الإسكندرية غير عامية القاهرة وجميع المصريين يتكلمون فصحى واحدة والعامية بذلك لغة محلية. ويقولون إن كتابة القصة وحوار المسرحيات ينبغى أن يكتبا بالعامية والعامية لغة –كما قلنا – محلية. والصحيح أن الفصحى لغة العرب جميعًا فهى الرابطة التى تربط بين الشعوب العربية ولا تتحمل العامية فكرًا ولا دينًا وحياة روحية ولا علميًا ولا نظريات سياسية واقتصادية، ولا تحمل أى زاد تنتفع به الأمة، ونفس العامية لا تزال تحاول القرب من الفصحى بما تقترض منها من الألفاظ والأساليب .

المحاضرة الثالثة عشرة عن :" العربية لغة علم راسخة"

أحال القرآن الكريم اللغة العربية من لغة بدوية إلى لغة حضارية ذات شريعة سماوية تكتظ بمصطلحات عقيدية وتشريعية تشمل جوانب الحياة الاجتماعية جميعها، وبذلك وسع طاقات اللغة العربية وأعدها لتحمل علوم.الدين واللغة ، ولم تلبث أن حملت علوم الأوائل من كيمياء وغير كيمياء وأخذت تضيف إليها إضافات كثيرة جعلتها تقود العالم علميًا وحضاريًا ستة قرون متوالية من القرن الثانى الهجرى إلى القرن الثامن، ونقل الغرب علومها إلى لغته العلمية اللاتينية وأخذ يقفز فى العلوم والحضارة قفزات كبرى، بينما أصاب العرب ركود شديد ، حتى إذا كان القرن التاسع عشر نهضت مصر – عن طريق البعوث إلى الغرب وخريجى مدرسة الألسن – نهضة كبرى نقلت فيها العلوم الغربية إلى العربية، واستحدثت فى العربية لغة علمية حديثة، ووقف الإنجليز – بخبثهم – هذه النهضة بأخرة من القرن الماضى إذ جعلوا التعليم فى المدارس العليا بالإنجليزية بدلا من العربية، غير أن العرب فى القرن العشرين صمموا على أن ينقلوا إلى العربية مصطلحات العلوم الغربية فى معاجم كثيرة وضعها أفذاذهم ووضعها مجمعنا والمجامع اللغوية. وفى ذلك كله دليل واضح على رسوخ العلوم فى العربية طوال أربعة عشر قرنا، وهو مجد علمى لا تشركها فيه أى دولة عالمية .

المحاضرة الرابعة عشرة عن "عالمية الإسلام "

يكرر الله – جلَّ شأنه – فى القرآن أن الرسول أرسل إلى العالم كافة بخلاف جميع الرسل ، فكل رسول منهم إنما أرسل إلى قومه وحدهم، ووضع الله فى القرآن قانونا عاما أن : (لا إكراه فى الدين) وبذلك فرض على المسلمين فى جميع ديارهم أن يتعايشوا تعايشًا قويمًا مع كل أصحاب الملل والنحل. ومن عالمية الإسلام أنه دين عقلانى ومن عقلانيته دعوة الناس إلى التأمل فى الكون ليؤمنوا – عن بصيرة – بوحدانية الله. ودائمًا يستخدم القرآن البرهان العقلى والعظة بقصص الأنبياء والجدال السديد. ومن عالميته الدعوة إلى العلم والتعلم. ولا تعارض أى تعارض بينه وبين

الدولة كما حدث فى القرن السابع عشر بالمسيحية . ومن عالميته نظام الاقتصاد وما فرضه على الأغنياء للفقراء من الزكاة وجعلها عبادة وزلفى له ، ومن عالميته المساواة بين جميع الأفراد فلا عنصرية فيه بل يلغيها إلغاء تامًا ، وبالمثل العدل الذى لا تصلح حياة أفراد الأمة بدونه ، وأيضا الدعوة الحارة إلى السلام .

المحاضرة الخامسة عشرة عن :" طه حسين المجمعى "

يفتتح طه حسين عصرًا جديدًا بأكمله فى الدراسات الأدبية العربية بكتابه *ذكرى أبى العلاء* الذى نال به درجة الدكتوراه من الجامعة القديمة . وأرسل فى بعثة إلى فرنسا ، وعاد ليعين أستاذًا للتاريخ اليونانى والرومانى فى الجامعة القديمة وحين تحولت إلى حكومية أصبح أستاذًا لآداب اللغة العربية فيها . ومنذ عودته عنى بعرض تمثيليات يونانية وقصص تمثيلية فرنسية على الشعب المصرى مع ترجمة بعض مسرحيات فرنسية . و نشر دراسات عن شعراء اللهو والمجون فى العصر العباسى أثارت ضجة ، ثم نشر كتابه عن الشعر الجاهلى فوجهت إليه حملات نقدية ومضى فى دراسات أدبية متنوعة منذ عين عضوًا بالمجمع سنة ١٩٤٠ وعهد إليه بوضع لائحته ، وأشرف على لجنة لوضع المعجم الكبير ، وأخرج منه نموذجا فى سنة ١٩٥٦ وذكر فى مقدمته قواعده ، وأشرف على لجنة الأدب وفرّع منها ثلاث لجان للشعر ، والقصة والرواية ، والبحوث والدراسات الأدبية . ويؤثر عنه دفاعه عن التعريب فى المجمع ودعوته إلى تيسير النحو . واستن للمجمع سننًا مجمعية ، منها سنة استقبال الأعضاء وسنة وداعهم فى رحلتهم إلى الدار الباقية . ومن أهم أعماله المجمعية إنشاؤه اتحاد المجامع اللغوية ووضع لائحته وأهدافه .

المحاضرة السادسة عشرة عن على الجارم وبحوثه المجمعية

الجارم شاعر فذ وعالم لغوى وأديب مبدع ، وله فى المجمع بحوث قيمة منذ أول دوراته، وفيها قدم بحثًا طريفًا عن الترادف ذاكرًا من أثبتوه

من العرب ومن أنكروه ويضيف إلى منكريه باحثًا إنجليزيًا ويعرض بعض آرائه وآراء المحتجين للترادف من الأسلاف وفى مقدمتهم السيوطى، ويدرس سبعين اسمًا ذكرها للعسل دراسة واسعة، وينتهى إلى أنه ينبغى عدم التطرف فى إنكار الترادف وإثباته. وفى الدورة الثانية للمجمع شرح مائة وثمانين لفظًا لغويًا فى المنازل ما يتصل بها سوى طائفة من ألفاظ السكك الحديدية.وفى الدورة الثالثة درس عشرين لفظًا فى الشؤون العامة. وكان المجمع قد قرر تكملة المادة اللغوية وأكمل بقدرته العلمية ثمانيا وخمسين مادة . ونشر فى العدد الرابع من مجلة المجمع بحثًا عن مصادر لأفعال لها كان ابن سيده ذكر منها أربعة وخمسين ، فهداه البحث اللغوى البارع إلى أفعال ٤٧ منها. وآخر بحوثه المجمعية " الجملة الفعلية أساس التعبير فى العربية " واستن للمجمع سنتين مهمتين : سنة تحية الفصحى فى افتتاح مؤتمراته شعرًا ، وسنة نظم مراثى أعضاء المجمع الراحلين إلى الدار الباقية. وكان يشترك فى أكثر لجان المجمع لنشاطه الجم وثقافته الواسعة .

المحاضرة السابعة عشرة عن " ازدهار الفصحى فى القرن العشرين "

فى أول هذه المحاضرة لمحة عن نزول القرآن الكريم بالفصحى وحمله لمصطلحات الشريعة الإسلامية وإعداده العربية لأداء علوم الدين بها وعلوم اللغة وعلوم الأوائل من طب وغير طب وقيادتها عالميًا للحضارة والعلوم وتلمذة الغروب لها. وعادت إليها حيويتها ونشاطها فى القرن الماضى ونقلت إليها العلوم الغربية. ونهضت الفصحى فى القرن العشرين نهضة عظيمة حمل لواءها فى الشعر حافظ وشوقى الذى أدخل إليها الشعر المسرحى والفرعونى وخلفهما فى الشعر جيل شكرى والعقاد وتغنيه بالكون وبمعان إنسانية ثم جيل مدرسة أبولو وتغنيها بالشعر الرومانسى الوجدانى ثم جيل الشعر الحر. وبذلك أتاح الشعر للفصحى ازدهارا عظيمًا، وبالمثل أتاح لها النثر نفس الازدهار عن طريق كتاب نوعوا موضوعاته وأتاحوا له فنونا حديثة من المقالة والقصة والرواية، وأتاحت له الصحافة التى

تولاها كتاب كبار أسلوبًا صحفـيًا مبسطًا مستحدثًا شاع فى صحافة البلاد العربيــة. وشارك فى نهضة النثر جيل من خريجى الجامعات زاد المقالات الصحفية والقصــة والرواية إحكـــامًا وكثر الإنتاج القصصى والمسرحى كثرة مفرطة مع ما رسخ منذ أوائل القرن وطواله من أسلوب صحفى مبسط غاية التبسيط . والفصحى بكل مـــا قدمت عنها فى هذا القرن ازدهرت ازدهارًا رائعًا عظيمًا .

أول أكتوبر سنة ١٩٩٨

شوقى ضيف

رئيس المجمع اللغوى

توحيد المصطلح العلمى

فى النقل والتعريب

أمَّتُنا العربية أمة ذات وحدة لغوية ، وهى وحدة جعلت لنا عالمًا متميزًا، تتماثل شعوبه فى حياتها الروحية والفكرية والحضارية ، وهى تمثُّل من قديم بدأ مع الفتوح الإسلامية ؛ إذ هجرت تلك الشعوب لغاتها واتخذت العربية لغة القرآن الكريم لساناً لقلوبها وعقولها ، بحيث أصبحت منذ هذا التاريخ القديم تكوِّن عالمًا واحدًا عربى اللغة والوجدان والفكر.وسرعان ما تحولت العربية من لغة بداوة الى لغة علم تستوعب كل ما عرفت الأمم القديمة من علوم ، وتضيف إليها إضافات رائعة ، مستغلة ، فى وضع مصطلحاتها العلمية ، ثروتها الهائلة من الأصول والمشتقات فى الأفعال والأسماء ، وهى ثروة تفوق فيها العربية جميع لغات العالم فى القديم والحديث. ومن أكبر الدلالات على هذه الطاقات التى حازتها العربية قديما فى دنيا العلوم أنه حين بدأت إيران حركاتها الاستقلالية فى القرن الرابع الهجرى ، وأخذت تستظهر لغتها الفارسية لم تجد بداً من أن تظل قروناً عدة متمسكة بالعربية لغة للعلم، مؤمنة بأن الفارسية لاتستطيع فى هذا المجال

أن تسد مسدَّها أوتغنى غناءها، ويصور البيرونى فى القرن الخامس الهجرى بوضوح هذا المعنى قائلا: "إلى لسان العرب نُقلت العلوم فى أقطار العالم وازدانت وحلتْ إلى الأفئدة ، وسَرَتْ محاسن اللغة منها إلى الشرايين والأوردة ...ويعرف مصداق قولى من تأمل كتاب علم قد نقل إلى الفارسية إذ ذهب رونقه وكسف باله وزال الانتفاع به " وهى شهادة قديمة - من عالم إيرانى كبير - بعبقرية العربية فى أداء العلوم .

ومن أهم ملامح هذه العبقرية أنها مكنت بقوة لتوحيد المصطلحات العلمية فى جميع البيئات العربية وعلى ألسنة جميع الأسلاف من العلماء فى الماضى ، فمصطلحات علم كالطب مثلا فى كتاب " القانون " لابن سينا كانت هى نفس مصطلحاته عند مهذب الدين الدخوار وابن القف الدمشقيين وعند ابن رضوان وابن النفيس المصريين وعند ابن رشد وابن زهر الأندلسيين . وهكذا مصطلحات بقية العلوم ، مما هيأ لكل علم تعاوناً علمياً خصباً مثمراً فى مشارق العالم العربى ومغاربه ، فما يؤلفه عالم وينفذ إليه من تجارب ونتائج علمية فى أى بلد عربى يشيع تواً فى الأمة ويتدارسه أبناؤها فى كل مكان ، ويبنى فيه الخالف على ما أسس السالف ، مما أتاح لكل علم نهضة كبرى ، إذ تضافرت فيه الأمة بجميع علمائها ، ولذلك مظهر واضح فى كتب التراجم عند

الأسلاف، فإنهم حين أرخوا للعلماء وكتبوا سيرهم لم يخصوا علماء أى بلدة بكتاب خاص أفردوه لتراجمهم ، بل جمعوهم دائماً فى كتاب واحد إيماناً منهم بأن وحدة علمية تجمعهم ، وهى وحدة دعمت الأواصر الثقافية بين أسلافنا طوال القرون الماضية ، فكنا أمة واحدة فى علمها ، تتعدد بلدانها، وتتوحد علومها ، بحيث يشعر العالم فى كل مصر بصلة وثقى تربطه لا بعلماء أمته الماضين فحسب ، بل أيضاً بعلمائها المعاصرين له على اختلاف أمصارهم ، حتى لنجد نفرا منهم يرحلون من بلدانهم إلى بلدان أخرى كى يلقوا زملاءهم فى هذا العلم أو ذاك ، ويتحاوروا معهم فيه وفيما حققوا من تجاربه ، على نحو ما صنع ابن بطلان طبيب بغداد، إذ رحل إلى ديار مصر ، للقاء على بن رضوان طبيب القاهرة بعد أن كثرت. بينهما المراسلات والمراجعات فيما يؤلفان فى الطب والعلوم الحكمية . وكان لقاؤهما سنة ٤٤١ وظل ابن بطلان بمصر ثلاث سنوات ملأها مع الطبيب المصرى بالمناظرات والمحاورات فى علم الطب وأمراضه وأدوائه ، وهما فى أثناء ذلك يستخدمان لغة طب واحدة ومصطلحات طبية واحدة ، ولو كانت هذه المصطلحات غير موحدة ما اجتمعنا ولا اشتركا فى مناظرة أو حوار ، بل ما ازدهر الطب ودراساته وتجاربه واكتشافاته فى ديارنا ، وإنما ازدهر وآتى ثماره بفضل توحيد لغته ومصطلحاته ومشاركة جميع أطباء العرب فيه على اختلاف أمصارهم وأعصارهم . وهذه الوحدة فى

الطب ومصطلحاته كانت تسرى فى جميع العلوم العربية مما هيأ لنا نهضة علمية عظيمة أثرت فى الحياة الإنسانية آثارا بعيدة ، امتدت شرقا إلى الهند وبلاد الصين وغربا إلى أوروبا فى عصر النهضة وقبله وبعده أجيالاً وراء أجيال .

وقد تجمعت الخطوب على هذه الوحدة العلمية فى البلاد العربية مع الاحتلال العثمانى، فإذا حياتنا ، فى العلم وغير العلم ، تفضى إلى ركود شديد ، ثم تكون الطامة الكبرى فى العصر الحديث باحتلال الإنجليز والفرنسيين لديارنا ، وبمجرد أن ثَبَّتوا فى أرضنا الطاهرة أقدامهم الدنسة عملوا بقوة على أن يسيطروا على التعليم وأن يدرسوا للناشئة العلوم بلغتيهما الأجنبيتين ، حتى يقطعوا الصلة الثقافية بين ماضينا وحاضرنا ، وحتى تنهار وحدتنا العلمية ولا تقوم لنا قائمة . وتنبَّهت مصر لهذا الخطر الداهم ، فعرَّبت منذ أوائل هذا القرن العشرين العلوم فى التعليم العام . ويدور الزمن دورة ، وتؤسَّس الجامعات فى مصر وفى البلدان العربية ويُستَقدَمُ العلماء الغربيون لتدريس فروع العلم بها، ونعود ثانية فى جامعاتنا إلى الاستعجام فى العلوم ، وتُرْسَل بُعوث كثيرة إلى الغرب ، ويعود لنا أفذاذ من العلماء النابهين فى علوم الطب والطبيعيات والرياضيات والهندسة والكيمياء ، غير أنهم لا يتخذون العربية لساناً لمحاضراتهم فى الجامعات ، بل يتخذون نفس

لغات العلوم التى حذقوها وما استقر فى أذهانهم من مصطلحاتها العلمية .

وحتى اليوم لا تزال كثرة علمائنا فى الجامعات ترى أن يظل تعليم العلوم فيها باللغات الأجنبية ، محتجة بأن المصطلحات العلمية تتكاثر فى الغرب يوماً بعد يوم فى كل علم ؛ بحيث يصعب متابعتها وحصرها ، ثم تعريبها ونقلها إلى لغة الضاد . وهى حجة واهية ، إذ صعوبة شىء لا تمنع من محاولة تذليله ، وخاصة إذا كان هذا التذليل يُعَدُّ ضرورة لا مفر لنا منها لاستعادة نهضتنا العلمية ، وأيضاً هو ضرورة لا مفر لنا منها لإنقاذ الشباب العربى من التمزق بين لغة أدبية قومية ولغة أو لغات علمية أجنبية . ومن المؤكد أن الانفصام القائم وبين ما ننطقه عربياً من العلوم الإنسانية وما ننطقه أعجمياً من العلوم الغربية .. يعود بأسوأ الأضرار إلى حياتنا الأدبية لأنه يجعل العربية فى عصرنا لغة أدب فحسب ، أدب لا تصقله المعرفة العلمية ، ومعروف أن عصور الازدهار الأدبى عند جميع الأمم كانت تقترن فيها النهضة الأدبية بنهضة علمية وفلسفية قوية ، على نحو ما حدث عند اليونان فى القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد ، وعلى نحو ما حدث عند الغربيين فى العصر الحديث، وأيضاً على نحو ما حدث عند أسلافنا فى الماضى فإن نهضتهم الأدبية التى أنتجت أبا تمام والجاحظ وابن الرومى والمتنبى وأبا العلاء اقترنت بنهضة فلسفية وعلمية رائعة.

وإنه لحق للأمة العربية ووحدتها الثقافية علينا أن نعمل بكل ما نستطيع من جهد على رفع الأسوار اللغوية التى تفصل بين حياتنا الأدبية وحياتنا العلمية ، حتى يزول هذا التقاطع القائم بين الحياتين . بل إنه لحق للأمة العربية ووحدتها الثقافية أن يحاضر علماؤنا فى الجامعات ويؤلفوا كتبهم للشباب بلغة عربية موحدة المصطلحات العلمية ، فإن علمًا من العلوم حين تختلف مصطلحاته فى بلداننا العربية وتفترق لا يصبح علماً معرباً كامل التعريب ، بل يظل مستعجماً من بعض الوجوه ، فما يكتبه عالم ببغداد مثلاً له مصطلحاته العلمية الخاصة لا يفهمه عالم بالمغرب مثلاً له فيه مصطلحات مختلفة مقابلة . وحتى فى العلوم الإنسانية مثل علم النفس يكاد يستعجم أو يغمض ما يكتب منه فى بيئة عربية على بيئة عربية أخرى .

ولا ريب فى أننا إن لم نعمد سريعاً إلى توحيد المصطلحات العلمية فى تعريب العلوم فإن الغاية المثلى من هذا التعريب - وهى وحدتنا العلمية والثقافية - تضلّ منا وتختفى فى الطريق . ومن الحق أن أمتنا لا تريد فقط من تعريب العلوم أن تتغير حروفها الأجنبية وتصبح عربية ، بل تريد أن تشيع فيها وحدة لغوية ، وإلا ظلت بيئاتنا العربية فى العلوم متقاطعة متنابذة ،

لكل بيئة لغتها العلمية المستقلة التى تحول بينها وبين الاتصال المنظّم بعلوم البيئات العربية الأخرى . وحينئذ يضيع منا ما نأمله من وحدتنا العلمية ومن نمونا العلمى الجماعى المتكامل ، كما نمت علوم أسلافنا فى القديم ، فإنها لم تنمُ متفرقة متنافرة ، فى بيئاتها العربية المختلفة ، بل نمت متواصلة متشابكة ، تشدُّها وحدة علمية وثقى .

ومعنى ذلك أننا لا نبتغى تعريب العلوم الغربية فحسب ، بل نبتغى أيضاً توحيد هذه العلوم بتوحيد مصطلحاتها بحيث يكون علم الكيمياء مثلا بمصطلحاته فى بغداد هو نفسه فى دمشق وبيروت والرياض والقاهرة والخرطوم وطرابلس وتونس والجزائر والرباط ، لا أن تكون عربيته إقليمية لكل بلد عربى فيه كتبه ومصطلحاته ، بل تكون عربية مشتركة ، بحيث تنمو جميع البلدان العربية نموا علميا معًا ، وبحيث يعود لنا مجتمعين دورُنا العلمى القديم ، وتعود لنا المشاركة العلمية الخصبة فى الفكر العالمى .

ونحن بذلك لا ننشد تعريب العلوم الغربية فحسب ، بل ننشد ما هو أبعد من ذلك : أن يتجمع علماؤنا فى وحدة علمية قوامها وحدة المصطلح العلمى فى التعريب والنقل ، حتى تكون لغتنا فى

كل علم واحدة ، وحتى لا يمس بلداننا أى شيء من التناكر ، ولا يمس أواصرنا الثقافية أى شيء من الوهن ، وإلا كان ما ينهض به علماؤنا من تعريب لا يؤدى بحال إلى الغاية المرتقبة من الوحدة الثقافية بيننا ، ونحن نريد أن تعود هذ الوحدة قوية ، وأن تُرْفَعَ من طريقها كل الأسوار اللغوية ، ولن يتمّ ذلك على الوجه الأكمل إلا إذا اتحد المصطلح العلمى فى كل كتاب علمى عربى من الخليج إلى المحيط .

وإنى لشديد الأمل فى أن يؤمن علماؤنا فى الجامعات والمعاهد العليا أن مهمتهم ليست فقط أن يحذقوا هذا العلم الغربى أو ذاك فى لغته الأجنبية ويحاضروا بها الطلاب ، بل مهمتهم قبل كل شيء أن يضيفوا إلى هذا الحذق حذقاً لا يقل عنه بدقائق العربية وأوضاعها ، حتى يحاضروا بها الطلاب ، وينقلوا إلى أوانيها اللفظية العلم الذى تخصصوا فيه نقلاً متقناً . ولهم قدوة أو ينبغى أن تكون لهم قدوة بكبار النقلة والعلماء فى العصر العباسى ، إذ بلغ من إتقانهم العربية أن أدخلوا فيها علوم الأوائل وصبُّوها فى قوالبها دون أى مساس بأوضاعها ومقوماتها الأصيلة . ويكفى أن نذكر منهم ابن المقفع أكبر النقلة عن الفارسية فقد كان فى الذروة من بلغاء عصره . وكان حنين بن إسحق أكبر النقلة عن اليونانية يحذق العربية ، وبلغ من حسن أدائه فيها أن رسم له المأمون وزن

ما يترجمه وينقله ذهباً . وكان ابن سينا أكبر أطباء عصره وفلاسفته يبلغ فى العربية طبقة رفيعة ، وكان يكبُّ على المعاجم يقرؤها، ومما قرأه معجم تهذيب اللغة للأزهرى .

ولا أشك فى أن من علمائنا المعاصرين ، وخاصة المجمعيين ، من يتقنون العربية فقهاً وفهماً وعلماً بدقائقها وخصائصها ، والأمل معقود على أن يصبح هذا الاتقان عاماً بين جميع علمائنا فى التعليم العالى حتى ننفذ سريعاً إلى تعريب العلوم وتوحيد مصطلحاتها العلمية . ومن العقبات التى تقف فى طريق هذا التوحيد اللغة التى يعرِّب منها علماؤنا وينقلون مصطلحات العلوم ففى الشام : فى سوريا ولبنان ، وفى المغرب : فى تونس والجزائر ومراكش يعربون وينقلون من اللغة الفرنسية ، وفى العراق والأردن والسعودية والسودان يعربون وينقلون عن الإنجليزية . وعنها يغلب التعريب والنقل فى مصر ، وقد يكونان عن الفرنسية . وأدَّى ذلك إلى اختلافات كثيرة فى المصطلحات العلمية واستخدامها فى البلدان العربية وحتى عنوانات بعض العلوم حدث فيها اختلافات عن طريق النقل والتعريب ، فعلم مثل علم الطبيعة الذى نقلته بعض البلدان العربية بهذا الاسم يسمى باسم الفيزياء تعريبًا فى بلدان ثانية ، وباسم الفيزيقا فى بلدان

ثالثة . وإذا كان هذا يحدث فى أسماء بعض العلوم ، فما بالنا بما حدث فى مصطلحاتها المتنوعة .

وكثيرون فى عصرنا يحذرون من التوسع فى تعريب المصطلحات العلمية ، يقولون إن من شأن هذا التوسع أن يفتح أبواب العربية على مصاريعها لدخول كلمات أجنبية كثيرة، ليست منها ، وإنها لتبدو بوضوح كالرقع فى نسيجها ، وخاصة تلك التى تخرج على أبنيتها وأوضاعها اللغوية .

وهو تحذير ينبغى أن لا نبالغ فيه ، لأن أسلافنا أنفسهم أجازوا التعريب وتوسعوا فيه يوم أن كانت المصطلحات العلمية لا تزال محدودة ، فما بالنا الآن وهى تتكاثر يوما بعد يوم ، حتى ليصبح من العنت أكبر العنت أن نغلق أبواب العربية من دون هذه المصطلحات إلى أن نجد لها ما يقابلها فى لساننا عن طريق تراثنا العلمى أو عن طريق المجاز والاشتقاق، فإن ذلك يحول بيننا وبين التعريب السريع للعلوم : وحقاً ما نجد له مقابلاً فى العربية وما نستطيع نقله نضعه فيها وننقله ، ولكن ستبقى دائماً فى كل علم مصطلحات كثيرة يعوزنا فيها أن نجد لها مقابلاً أو ترجمة فى العربية وإذن لابد من تعريبها وإدخالها فى عربيتنا بصورتها الأجنبية مع تغيير طفيف أحياناً وبدون هذا التغيير أحياناً أخرى

تيسيراً علينا فى حركة التعريب والنقل للعلوم الغربية . وهو حق مقرر فى العربية من قديم سبقنا إلى تقريره الأسلاف، إذ أجازوا - وفى مقدمتهم سيبويه - تعريب الألفاظ الأجنبية أو كما كانوا يسمونها الأعجمية ، سواء حدث تغير فى بعض حركاتها وحروفها أو لم يحدث ، وسواء ألحقت بأبنية الكلام فى العربية أو لم تلحق ، وبهذه الرخصة الواسعة عرَّب الأسلاف كثيراً من الكلمات اليونانية والفارسية والسريانية ، وحاجتنا اليوم إلى ذلك أشد من حاجتهم لتشعب العلوم الغربية وكثرة مصطلحاتها كثرة مفرطة .

وسنظل نبدىء ونعيد : أننا لا نريد تعريب العلوم الغربية فحسب ، بل نريد أيضاً وحدة المصطلح العلمى فى التعريب ، حتى تصبح لنا لغة علمية واحدة ، كتلك التى كانت لأسلافنا فى القديم ، فهم جميعاً كانوا يحاضرون ويؤلفون بلغة علمية واحدة ، ولم يكن لأى بلد عربى علماء مستقلون ، بل كانوا جميعاً علماء عالم تعددت أقطاره ، ولكل قطر دولته السياسية، أما فى العلم فكانوا جميعا لوطن واحد ، بل كأنهم لجامعة واحدة أو مؤسسة علمية واحدة . وهو ما نريده لأنفسنا ولعلمائنا اليوم : أن تكون لهم لغة علمية واحدة يتداولونها ويتعاملون بها ، عملة علمية تُسْتَخْدم فى جميع البلدان العربية ، يستخدمها جميع علمائنا من الخليج إلى المحيط ، بحيث يكوِّنون عالمًا علميًا واحدًا ، تتعدد بلدانه ، وتنتسب جامعاته

ومجامعه ودور العلم فيه إلى ما يشبه مؤسسة علمية واحدة . وبذلك تتم لنا وتتكامل وحدتنا العلمية ، ونعود ثانية إلى الظهور على مسرح العلم العالمى بلغتنا العلمية العربية الموحدة ، لنؤدى دورنا من جديد فى التأثر والتأثير العلميين ، فكما تأثر أسلافنا بعلوم العالم القديم ، وأضافوا إليها ، مكوِّنين علومهم ، ومضوا يؤثرون بها فى الغرب والشرق ، كذلك نحن فى عصرنا الحاضرنتأثر بعلوم العالم الغربى الحديث ، ونضيف إليها ، ونكوِّن علومنا ، ونعود إلى التأثير بها شرقاً وغرباً .

وهذه الوحدة العلمية العربية المرتقبَة التى ستمدُّ أطنابها حتى تظلَّ الوطن العربى جميعه بكل ما فيه من مجامع لغوية وعلمية وجامعات ومعاهد عليا ليست خيالاً ولا وهماً، بل هى حقيقة لابد واقعة ، يوم يتم لنا تعريب العلوم الغربية وتوحيد مصطلحاتها العلمية. وينبغى أن نتعجلها ونسرع إليها الخُطَى ، والطريق إلى الإسراع بها سهل ميسر متى صحت منا العزائم . وأقترح لذلك أن تتألف هيئة علمية تتبع اتحاد المجامع اللغوية ، تتكون من بعض أعضائها العلماء الأعلام ، بحيث تكون مهمتها وضع البرامج التى تكفل قيام هذه الوحدة العلمية العربية الكبرى والإشراف على تنفيذ هذه البرامج سريعاً بالوسائل الممكنة .

وفى تقديرى أن الفرص مهيئة للنهوض بهذا العمل الجليل ، فقد وضع مجمعنا اللغوى عشرات الآلاف من المصطلحات العلمية ، ويكفى أن نذكر فى هذا الصدد أن مجمعنا وضع حتى الآن فى مختلف العلوم أكثر من مائة ألف مصطلح علمى منقول ومعرب ، وتحولت أثبات منها إلى معاجم لتلك المصطلحات فى الفيزيقا النووية ، وفى الجيولوجيا ، والجغرافيا والفلسفة وغير ذلك . وستتوالى لهذا المجمع معاجم فى فروع العلوم المختلفة . وبجانب ذلك وضع أفذاذ من علمائنا النابهين معاجم فى الطب والتشريح والثدييات والطبيعة والرياضيات والزراعة والنباتات والحيوان والفلك والقانون .

وهذا الرصيد الهائل من المصطلحات العلمية آنَ أنْ تتوفر عليه الهيئة العلمية المقترحة ، مستعينة بحشود من الخبراء والمحررين لتدوينه وتسجيل الموحد منه فى جداول وكذلك المختلف . وقد عنى مجمعنا دائماً بتوحيد المصطلحات العلمية ، مما جعله شديد الحرص فى مؤتمره السنوى على إشراك طائفة من علماء البلدان العربية ، وعرضه فيه ما انتهت إليه لجانه من مصطلحات علمية ، حتى تكون ثمرة إجماع عربى ، وهذا العمل السنوى يُعَدُّ أكبر خطوة اتخذها مجمعنا حتى الآن فى سبيل توحيد المصبطلحات العلمية نقلاً وتعريباً .

وأرى أن تتسع مهمة الهيئة العلمية المقترحة ، فتعمل على استخدام المصطلحات العلمية موحَّدة فى المجال العلمىّ : مجال التدريس والمحاضرات فى الجامعات والتعليم العالى ، عن طريق اختيار أمهات الكتب فى كل علم لكى تعرَّب وتنقل إلى العربية ، وتضاف كتب بجانبها لعلمائنا وبذلك يتم فعلاً تعريب العلوم الغربية ، ونقلها إلى لساننا العربى من الوجهتين النظرية والعملية .

الفصحَى المعَاصِرَة

-١-

يرجع تاريخ الفصحى إلى بضعة عشر قرنا ، وقد اجتـــازت في هذا التاريخ الطويل مراحل وأطواراً متباعدة وأول مرحله مهمة هى مرحلة الدين الحنيف الذى تطور بالفصحى من " لغة وثنية " مادية إلى لغة ذات دين سماوى يحمل مَالا عهد للفصحى به من قيم روحية وعقلية واجتماعية وإنسانية، وطبيعى أن يُحدث هذا الدين فى الفصحى تطوراً هائلا فى معانيها وألفاظها ،وعادة يقف مؤرخو الأدب عند ألفاظ ، ابتدأ دلالاتها ابتداء ؛ مثل الإسلام والإيمان والكفر والإشراك والصوم والزكاة والصلاة إلى غير ذلك من كلمات الدين الحنيف . وهى تكثر جدا إذ تشمل كل ما اختاره للشعائر الدينية وللعقود والمعاملات من ألفاظ متنوعة الدلالات . ومما لا ريب فيه أن القرآن الكريم يُعَدّ بكل سُوَرْ ابتداء لشريعة سماوية ولغة دينية باهرة وأسلوب بيانى معجز يأخذ بمجامع القلوب .

وسرعان ما بدأ عصر الفتوح الإسلامية واستقر العرب فى الأمصار وأخذوا يتناولون الحياة تناولا جديدا ، فقد تحضروا

وسكنوا القصور ونعموا بالفرش والملابس والمطاعم والمشارب ، وأقبلوا على التزود بما كان لدى الشعوب المفتوحة من معارف وثقافات . وفى أثناء ذلك كانت الفصحى تتطور وتتحور ألفاظها وتتسع للتعبير عن دلالات حضارية وعلمية جديدة . وكم نُحت واشتُق من مئات الألفاظ للحضارة المادية وأدواتها الكثيرة ، وبالمثل كم نُحت واشتق من مئات الألفاظ للعلوم والمعارف ، وفتَحت الفصحى أبوابها لألفاظ أعجمية كثيرة عرَّبتها ، تارة تحوِّر فيها : فى الحروف والحركات ، وتارة لا تحور وقد عقدوا لها كتبا مفردة مثل كتاب المعرَّب للجواليقى وخصُّوا المصطلحات العلمية بمعاجم متعددة ، على نحو ما هو معروف فى كتاب مفاتيح العلوم للخوارزمى .

وقد تحقق للفصحى هذا الطور العلمى والحضارى فى العصر العباسى ، وأدته أداء رائعا وهى لم تؤده من الوجهتين : العلمية والحضارية فحسب ، بل أدته أيضا أداء رائعا من الوجهة الأدبية ، فقد ازدهر الأدب بفرعيه من الشعر والنثر وظهرت فيه فنون مستحدثة مثل الشعر التعليمى والرسائل السياسية والمناظرات والمقامات والنثر التهذيبى والصوفى .

واستطاع الأدباء فى أثناء ذلك أن ينفذوا إلى أسلوب جديد ، غَذَّوه بعقولهم الخصبة وما أثاروه من المعانى المبتكرة ، مع احتفاظهم فيه للفصحى بكل مقوماتها وأوضاعها النحوية والصرفية ، وهو أسلوب نهض على أساسين لفظيين . هما نبذ الألفاظ الحوشية الجافية ، ونبذ الألفاظ العامية المسفَّة المبتذلة . أسلوب وسط بين الغرابة والابتذال ، يقوم على الألفاظ المتخيرة التى لا تنبو عن ذوق العباسيين المصفى ولا عن حسهم المرهف .

وتتحد فى كتابات النقاد العباسيين تسمية هذا الأسلوب باسم أسلوب المولّدين وعادة يصفون به أسلوب الأدباء العباسيين ، وخاصة الشعراء ، حين يقابلون بين أسلوبهم وأساليب الإسلاميين والجاهليين ، غير أنهم لا يمضون فى الحديث عن بواعث ظهوره ولا عن السبب فى أنه أصبح الأسلوب العام . وفى رأينا أنه ليس من سبب وراء ذلك كله إلا الرغبة الحقيقية لدى أدباء العصر العباسى فى تيسير الفصحى لعصرهم وتذليلها للناس ، بحيث لا تخفى ألفاظهم على جماهيرهم ، ولا يجدون فيها إسفافاً يخلّ ببيانها الفصيح .

ـ ٢ ـ

وكل ما حدث للفصحى من ألوان تطور فى العصر العباسى أخذ يحدث لها ما يماثله منذ أواسط القرن الماضى . فقد أخذت تنشأ

فيها مصطلحات علمية وألفاظ حضارية لا عداد لها ولا حصر ، وأخذت تظهر فيها وتزدهر فنون مستحدثة ليس لها سابقة ، وأخذ الأدباء يسعون بألفاظها وتراكيبها نحو التبسيط والتيسير . وقد أخذ علماؤنا الأبرار يمرِّنونها ـ مبكرين ـ على أداء العلوم الغربية . وكان فى طليعة ما نقلوه إليها علم الطب بفروعه المختلفة ، تجرَّدت له أولا طائفة من غير الأطباء ، ثم تجرد له أطباء مشهورون ، ونُقلت كتب فى العلوم الرياضية . ونقل رفاعة الطهطاوى وتلاميذه فى سنة ١٨٦٦ القوانين الفرنسية المعروفة باسم " الكود " فى ثلاثة مجلدات .

ووُضعت كتب قانونية وقوانين مختلفة مثل قانون المحاكم الأهلية . ومضت صفوة تعنى بنقل علم الاقتصاد الغربى ، ومباحثه منذ نهاية العقد الثامن فى القرن الماضى ، وكان يسميه العرب علم المعاش . ومضت صفوة أخرى تعنى بعلم الاجتماع ، وجهود فتحى زغلول فى نقله إلى الفصحى معروفة .

وجعل الإنجليز فى سنة ١٨٩٧ لغتهم الإنجليزية لغة التعليم فى مدرستى الطب والهندسة ، فتوقف تيار النقل فى علومهما إلا قليلا ، غير أنه ظل قويا مطرداً فى سواهما من العلوم ، وخاصة فى الاقتصاد والاجتماع والقانون ، وأيضاً فى الفلسفة . ونجاهد

الإنجليز جهاداً عنيفاً ونحصل على استقلال مقيد ببعض الشروط . وتتحول الجامعة المصرية الأهلية إلى جامعة حكومية ، هى جامعة القاهرة الآن ، وتضم بجانب كلية الآداب كليات الطب والعلوم والحقوق ، ثم كليات الهندسة والزراعة والتجارة والطب البَيْطرى وبأخرة تضم كلية الأقتصاد . ويتكاثر لمصر علماؤها الأفذاذ المتخصصون فى جميع فروع العلم .

وتحدث نهضة علمية عظيمة ، ويسود شعور عام بوجوب وضع المصطلحات العلمية جميعها فى الفصحى ، ويخرج الدكتور محمد شرف سنة ١٩٢٨ معجمه النفيس فى العلوم الطبية والطبيعية ، ويتأسس المجمع اللغوى ، ويجعل من أغراضه الأساسية وضع المصطلحات العلمية ، وينهض بهذا الجهد منذ دورته الأولى ، وكلما أمضى شوطاً من الزمن اتسع جهده فى هذا المجال ، وتكاثرت لجانه العلمية ، وإنه ليبلغ الآن مجموعُ ما وضعه من تلك المصطلحات أكثر من مائة ألف مصطلح فى مختلف العلوم . وليس ذلك كل ما نهض به فى هذا الاتجاه ، فقد أرسى لصوغ المصطلحات العلمية وتعريبها قواعد سديدة ترسم ضوابط التعريب من جهة ، وتعين علماءنا على صياغتها من جهة ثانية ، مثل جواز تكملة المادة اللغوية بمشتقات غير معجمية ، وجواز الاشتقاق من أسماء الأعيان والجواهر ، وقياسية المصدر الصناعى ، إلى غير ذلك من قواعد

تيسر وضع المصطلح العلمى وتذلله تذليلا . وقد استطاعت هيآت وأعلام من العلماء فى مصر والبلاد العربية أن يسهموا فى هذا العمل العلمى الجليل بوضع معاجم علمية متنوعة . وليس من ريب فى أن هذه الجهود العلمية الخصبة توشك أن تتحول بالفصحى العلمية المعاصرة إلى لغة علمية عالمية .

ولم تكسب الفصحى المعاصرة ألفاظ المصطلحات العلمية وحدها ، فقد كسبت أيضا آلاف الألفاظ المعبرة عن أدوات الحضارة وشؤون الحياة العامة ، وكثير منها كانت قد عنيت به المجامع اللغوية الأهلية التى تكونت بمصر فى أواخر القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، ووضعت لطائفة منها ألفاظا مستحدثة وارتضت بعض ما شاع على ألسنة الجمهور وأقلام الكتاب .

وعنى مجمعنا فى دوراته الأولى بهذه الألفاظ وتوقفت عنايته بها فترة ، ثم عاد إليها وألف لها لجنة ، تزخر بنشاطها مجلته ومحاضره ، وبهما حصيلة كبيرة من هذه الألفاظ الحضارية المتصلة بجوانب الحياة العصرية .

وبجانب ألفاظ الحضارة ومصطلحات العلوم تحمل الفصحى المعاصرة مصطلحات كثيرة ، ويتضح ذلك فى المقالات الصحفية

التى يقرؤها الجمهور كل يوم فإن القارىء العادى لها يشعر بحاجته حاجة ملحة إلى معجم يشرح له كثيراً من الألفاظ السياسية المحدثة التى لا تتضح له مدلولاتها اتضاحاً كافياً . ولنترك السياسة إلى لغة النقد الأدبى القديم ، ففى الشعر مثلا يتداول النقاد المعاصرون مثل هذه الألفاظ أو المصطلحات : الشعر الغنائى والملحمى والتمثيلى والمدرسة الكلاسيكية والرومانسية والرمزية والواقعية والتجربة الشعرية والوحدة العضوية والصورة والمضمون والمأساة والملهاة ونظرية الوحدات الثلاث : وحدة الزمان ووحدة المكان ووحدة الموضوع ، والسببية والحدث المتوتر الحاد . ويتداول المعاصرون من النقاد فى القصة ألفاظاً ومصطلحات من نفس هذا الطراز المحدث من : المذهب الواقعى والطبيعى والنفسى والوحدة السلوكية والشخصية النامية والبعد الاجتماعى والنفسى والإنسانى والصراع الفكرى والصراع الطبقى والتكوين العام للأحداث والمواقف ورسم الشخوص رسما بينا .

وقل ذلك نفسه فى النقد المسرحى ونقد الفنون . وكأننا نتعامل فى كل ذلك بلغة محدثة أو قل هى الفصحى المعاصرة تتشكل أشكالا وأنماطا جديدة فى ميادين العلم والحضارة والسياسة ونقد الآداب والفنون .

وإذا كانت الفصحى المعاصرة قد تطورت فى هذه الميادين جميعاً ، واستوعبت ما لا يكاد يحصى من الألفاظ والمعانى فإن تطورها فى مجال الأدب بفرعيه من الشعر والنثر قد يكون أوفر نمواً وحيوية ، أما الشعر فقد كثر ناظموه المعاصرون فى البلدان العربية وكثرت دواوينهم كثرة مفرطة ، وحدثت فيه ضروب شتى من التحول والتطور ، مما أعد لظهور أنماط جديدة فيه سياسية وقومية واجتماعية ، وليس ذلك فحسب ، فقد مضى الشعراء يغذون أشعارهم باتجاهات الشعر الغربى من رومانسية ورمزية وواقعية ، وأخذت مضامين شعرهم تتنوع تنوعا واسعاً ، كما تنوعت أشكاله الموسيقية وظهرت وازدهرت فيه المسرحية . وتكتب فى هذه التحولات فى الشعر المعاصر وأعلامه بحوث مطولة.

وبالمثل حملت الفصحى المعاصرة فنونا نثرية مستحدثة أهمها المقالة والقصة والمسرحية ، وقد نشأ قالب المقالة عند الغربيين بتأثير الضرورة الصحفية ، وحاكاهم فيها كتابنا منذ نشأت عندنا الصحف فى القرن الماضى ولم تكن الفصحى تعنى بالقصِّ إلا قليلا : فى المقامة وبعض نماذج هنا وهناك ، وقد تركت القصة الطويلة للأدب العامى ، وكُتبت فيه قصص شعبية كثيرة ،

حتى إذا اطلع أدباؤنا فى القرن الماضى على قصص الغربيين الطويلة أخذوا فى تمصير بعض نماذجها ، ثم عنوا ـ فيما بعد ـ بنقل كثير منها نقلا دقيقاً . ولم يلبثوا فى هذا القرن العشرين أن نشطوا ـ وخاصة منذ العشرينيات ـ فى كتابة القصة والأقصوصة .

وإنه ليصعب حصر القُصاص اليوم فى مصر والبلاد العربية فضلا عن حصر قصصهم الطويلة وأقاصيصهم القصيرة . ولم تكن الفصحى تعرف فن المسرحية ، وعلى شاكلة القصة عنى أدباؤنا أولا بتمصير بعض المسرحيات الغربية ، ثم عنوا بترجماتها الدقيقة ، ولم يلبث أن ظهر للفصحى كتّاب مسرحيون عديدون ، وإنهم ليعدون الآن بالعشرات فى مصر والأقطار العربية . وفى كل هؤلاء الأدباء من المسرحيين والقصاص وأصحاب المقالات وآثارهم تكتب بحوث طوال .

وإذا كان العباسيون ـ من قبل ـ شعروا بأنهم فى حاجة إلى أسلوب مولد يرتفع عن الابتذال ، ويهبط عن الإغراب الشديد، أسلوب وسط يقترب من أفهام عامة المثقفين دون ركاكة أو إسفاف فإن الأدباء النابهين شعروا فى عمق منذ أواسط القرن الماضى بأن ما انتهى إليه أسلوب الفصحى حينئذ من الجمود والضيق والتقيد بأغلال السجع والبديع يحول بينهم وبين ما يريدون أداءه وكانوا قد عرفوا للفصحى أسلوبا متحرراً من هذه

القيود عند ابن المقفع وأضرابه ، فعمدوا إلى محاكاته ، ولم يكتفوا بذلك ، بل أخذوا يحاولون النفوذ إلى أساليب أكثر سهولة ويسراً ، وتضافرت عوامل مختلفة على شيوع هذا الأسلوب الجديد بسبب انتشار التعليم واستخدام المطابع وذيوع الصحف ، فكثر القرّاء ، وكثر التبسيط والتيسير فى أسلوب الفصحى بين المترجمين والكتاب المختلفين . وكلما أمضت الفصحى المعاصرة شوطاً من الزمن اتسع فيها هذا التيسير والتبسيط .

ودَوْر الصحافة فى هذه الفصحى المعاصرة أوسع وأكبر شأناً من دور الكتب المترجمة والمؤلفة ، ومعروف أن الصحافة أخذت تنشط منذ عصر الخديوى إسماعيل ، ولم تكن تتجه مثل أصحاب الكتب إلى الجماهير المثقفة فحسب ، بل كانت تتجه إلى جميع الطبقات فى الأمة ، وكانت عنايتها شديدة بالطبقات الشعبية الدنيا ، إذ كانت تريد أن تحظى بأكبرجمهور قارىء وأن تقدم له ما يغريه على الإقبال عليها والمتاع بها ، ولذلك كان الكاتب فى أى صحيفة يحاول جاهداً أن يبسط لغته ، حتى يدنو من العامة ، وحتى لا يكون بينه وبينها أىُّ حجاب فى الخطاب ، لا فى الأفكار ولا فى الألفاظ ، فالأفكار مهما كانت عميقة أو دقيقة تبسّط تبسيطاً شديداً ، حتى لا تجد الجماهير أى عسر أو مشقة فى فهمها ،

والألفاظ تختار بسهولة ، حتى يفهمها الشخص العادى فى الأمة دون أية صعوبة .

ونَمْضى فى القرن الحاضر إلى حقبة العِشْرينيات التى نشأت فيها الأحزاب ، فنجد كل حزب يؤسس لنفسه صحيفة ينشر فيها آراءه فى الحكم والسياسة ، وأخذت كل صحيفة تجتذب إليها علماً من أعلام الأدب حينذاك . واختصم هؤلاء الأعلام فى شؤون السياسة والحكم خصومات عنيفة ، وأثاروا خصومات لا تقل عنفاً فى شؤون الأدب قديمه وحديثه ، وأخذوا يعرضون على القراء ـ استمالة لهم وجذباً ـ فصولا من أدبنا العربى القديم ومن الأدب الغربى الحديث. وبذلك التحمت صحافتنا بالحركة الأدبية ، وأفادت منها غزارة فى معانيها ودقة فى أفكارها ، إذ تغذت من أدب هؤلاء الأعلام وأضْفَوا على لغتها المعاصرة مسحة من الجمال الفنى مع محاولاتهم الخصبة لتبسيط الفصحى وتيسير أسلوبها المعاصر حتى تسيغها الجماهير وتجد فيها متاعًا هنيئًا .

وجانبان يلاحظان بوضوح فى هذا الأسلوب الميسر المبسط لفصحانا المعاصرة ، أما الجانب الأول فاستخدام طائفة من أدبائنا فى مقالاتهم وقصصهم كثيراً من الكلمات الشائعة فى العامية التى يظن أنها غير فصيحة ، وهى فى الحقيقة عربية فصيحة ، وإن

دارت على ألسنة العامة . ولا شك فى أنهم يقصدون قصداً إلى استخدامها فى كتاباتهم ، حتى يدنوا من الجماهير أكثر فأكثر وحتى تدرك وتتمثل ما يعرضون عليها من خواطر وأفكار ، ونضرب مثلا فذا من هؤلاء الأدباء : إبراهيم عبد القادر المازنى ، إذ كان يمتاز بحاسة لغوية مرهفة أعانته على التقاط كثير من الكلمات الشائعة فى العامية وردها إلى الفصحى ، لأنها فى واقع الأمر فصيحة ، وإن لاكتها العامة . وبذلك كان يحدث تبسيطاً ـ يشغف به ـ فى تعبيراته ، مع الاحتفاظ فى دقة بمقومات العربية وأوضاعها فى الإعراب وتصريف الكلمات ؛ ومع استخدام لغة بيانية ناصعة رصينة . وهذا الجانب فى الأسلوب المبسط الحديث لفصحانا ينبغى أن تتضاعف العناية به ، بحيث يعنى كل بلد عربى بوضع معجم تستقصى فيه الألفاظ العامية العربية بحيث تشيع فى ألسنة أبنائه مع النص على المشترك من هذه الألفاظ بين البلاد العربية ، ليستغلّ ذلك كله الأدباء المعاصرون فى كتاباتهم القصصية والصحفية . وحرى بى أن أذكر أن المعجم الوسيط صحح كثيرا من الألفاظ العامية وسلكها فى الألفاظ الفصيحة وهو عمل قيم رائع .

والجانب الثانى الذى يلاحظ فى الأسلوب الجديد المبسط لفصحانا المعاصرة أنه نشأت فيه بحكم التطور اللغوى صيغ

وعبارات يظّن لأول وهله أنها غير فصيحة ، حتى إذا عرضها العارفون باللغة على قواعدها وتصاريفها وَجَدُوا لها وجوهاً من التخريج تجعلها عربية فصيحة . وتعنى بذلك لجنة الألفاظ والأساليب فى المجمع ، وقد أخرجت مجلدين يسوُغان كثيراً من هذه العبارات والصيغ . والفصحى المعاصرة فى هذا الصنيع تجرى على سنن اللغات ، فتراكيبها وصيغها جميعاً لا تستعصى على التطور ، ولا هى أشياء ثابتة راسخة كالصخر الأصم ، بل هى كائنات حية مثل أصحابها ، فهم فى تطور وتغير مستمرِّين من يوم هبوطهم فى مهودهم إلى يوم استقرارهم فى لحودهم . وكذلك التراكيب والصيغ فى اللغة ، فهى ما تنى تتحرك وتتطور وتتغير. وهو جانب واسع جداً فى الأسلوب الجديد لفصحانا المعاصرة ، وينبغى أن لا تغلق أبوابها من دونه ، بل نفتحها على مصاريعها للعبارات والتراكيب المستحدثة ما دمنا نجد لها تخريجا يسوِّغها ويُسْبغ عليها صفة الفصاحة .

ـ ٤ ـ

ولعل فى كل ما قدمت ما يصور كيف أن الفصحى المعاصرة تعيش مرحلة خصبة من جميع الوجوه ، إذ وسعت مضامين شتى من العلوم والآداب ، ونفذت إلى أسلوب ميسر مبسط ، من شأنه أن يساعدها على انتشارها فى جميع الألسنة ، وقد ظفرت بفنون كانت خاصة بالعامية ، مثل فن القصة الطويلة ، فقد كانت العامية

تنفرد بها قبل العصر الحديث ، كَما أسلفنا ، وما إن شركتها الفصحى المعاصرة حتى أصبح لها القدح المعلى فى لغة القَصّ . ويلاحظ أن القُصاص الذين لا يزالون يتخذون العامية أداة لقصصهم فى عصرنا لا يَنُون يحوِّرون فى تراكيبهم وعباراتهم تحويرات متنوعة محاولين اللحاق بركب الفصحى . ولا أرانى أغلو إذا قلت : إن اللهجة العامية المستخدمة فى كثير من القصص والمسرحيات المعاصرة ليست هى نفس اللهجة العامية اليومية المتداولة كما قد يظن كثير من الناس ، بل هى لهجة وسطى بين العامية والفصحى . وهذا نفسه يلاحظ فى الأزجال الشعبية المعاصرة ، فلغتها تقترض كثيراً من كلمات الفصحى المعاصرة وتراكيبها . ومعنى ذلك أن الفنون الأدبية فى العامية تندفع فى عصرنا إلى الاقتراب من الفصحى اندفاعاً يبشر بأنها ستصبح يوماً لغتها السائدة . ومن هنا كنت أخالف من يبالغون فى تقدير خطر العامية على الفصحى المعاصرة ، والحقيقة عكس ذلك ، فإن الفصحى المعاصرة ما تزال تقهر العامية فى كل ميدان تلتقى معها فيه .

وكلنا نعرف أن الفصحى المعاصرة استولت منذ القرن الماضى على أكبر ساحة لغوية شعبية فى العصر ، وأقصد ساحة الصحف ومرَّ بنا آنفاً أثرها فى أسلوبها المبسط المعاصر ، ولم نعرض لآثرها

فى أدبها ، وهو أثر واسع ، إذ جعلته يحمل ما يعزّ حصره من الموضوعات السياسية والاجتماعية والروحية والفكرية ، كما جعلته يحمل صورا أدبية جديدة فى القصة والأقصوصة ، ولست أريد أن أتحدث الآن عن هذه الجوانب إنما أريد أن ألفت إلى أن الصحف لم تقف عند مخاطبة بيئة مثقفة بعينها ، كما كان شأن أدبائنا المتخاطبين بالفصحى قبل هذا العصر . فقد تخطت لعصرنا الحواجز الطبقية فى الشعب وخاطبت جميع طبقاته وجماهيره ، وها هى الملايين العربية تغدو وتروح كل يوم فى أيديها الصحف تقرأ فيها صباح مساء . وهو غزو كبير للفصحى غزت به العامية منذ أواسط القرن الماضى ، إذ سلبتها جمهورها القارىء ، وجعلته يحس بقوة أن مثله اللغوى الأعلى إنما هو فى الفصحى المعْرَبَةَ .

ولم تستول الفصحى المعاصرة من العامية على ساحة الصحف وكلماتها المطبوعة فحسب ، فقد أخذت أيضا تستولى منها على ساحة الإذاعة وكلماتها المسموعة والمرئية ، وحقا تكثر فى هذه الكلمات الأخطاء النحوية والصرفية ولكن هذه الأخطاء ستزول فى رأينا حتماً بتأثير الرأى الأدبى العام وما يتطلبه فى المسموعات والمقروءات من الصحة اللغوية.ولا ريب فى أنه يوجد بين المتحدثين فى الإذاعات من يعنون بلغتهم وصياغتهم وخاصة الأدباء المعاصرين .

والإذاعات تعد - بحق - وسيلة مهمة من وسائل نشر الفصحى في عصرنا ؛ لكثرة الملايين المستمعة لها يوميا كثرة تفوق كل حد ، إذ تستطيع أن تحمل الكلام قرأ إلى جميع أرجاء العالم في الشرق والغرب : إلى من يسكنون القصور والأكواخ ومن ينزلون على سفوح الجبال وفي بطون الأودية ومن يعيشون في المصانع والمدن وفي المزارع والقرى وفي البوادي والنجوع . والمستمع إليها ليس من الضروري أن يكون قارئاً ، فهي تخاطب القارئين والأميين على السواء . ولهذا ينبغي أن تتضاعف الجهود في مختلف الإذاعات لتبلغ بالفصحى المعاصرة الغاية المأمولة لها من الذيوع على جميع الألسنة في بلداننا العربية .

وواضح مما ذكرت أن الفصحى تحيا في عصرنا حياة مزدهرة إلى أبعد حدود الازدهار ، وهو ازدهار أتاح لها لغة علمية حديثة وفنوناً أدبية متنوعة وأسلوبًا مبسطًا ميسراً ، مع استيلائها على ساحة الصحف ، وساحة الإذاعة ، وإني أومن بأنها ستظل تزداد ازدهاراً وانتشاراً من يوم إلى يوم حتى تحل نهائياً في الألسنة مكان العامية ، لا فيما بقي لها من الفنون الأدبية الشعبية فحسب ، بل أيضا في لهجات التخاطب المستمعة لها يومنيا كثرة تفوق كل حد ، إذ تستطيع أن تحمل الكلام تواً إلى جميع أرجاء العالم في الشرق والغرب : إلى من يسكنون القصور

والأكواخ ومن ينزلون على سفوح الجبال وفى بطون الأودية ومن يعيشون فى المصانع والمدن وفى المزارع والقرى وفى البوادى والنجوع . والمستمع إليها ليس من الضرورى أن يكون قارئاً ، فهى تخاطب القارئين والأميين على السواء . ولهذا ينبغى أن تتضاعف الجهود فى مختلف الإذاعات لتبلغ بالفصحى المعاصرة الغاية المأمولة لها من الذيوع على جميع الألسنة فى بلداننا العربية .

تيسير النحو التعليمى

حين نشرتُ كتاب الرد على النحاة لابن مضاء القرطبى فى سنة ١٩٤٧ وضعت بين يديه مدخلا طويلا تحدثت فيه عن نقض ابن مضاء لنظرية العوامل فى النحو وإلغاء كل ما داخلها من علل ثوان وثوالث ومن أقيسة وتمارين غير عملية . ومضيت أتحدث عن حاجة النحو إلى تصنيف جديد يستضىء واضعوه بالانصراف عن نظرية العامل التى ألحَّ ابن مضاء على بيان بُطْلانها بما عرضه من أبواب التنازع والاشتغال ونواصب المضارع بعد الفاء والواو ، وأيضاً بما كرره من إلغاء التقدير والتأويل فى الصيغ والعبارات . وتراءى لى أن أضع هذا التصنيف حينذاك .

ولا أريد أن أعرضه الآن ، إنما أريد أن أذكر ثلاثة أُسس أخذت بها فى وضعه ، وأرى أنها ضرورية لكل من يبتغى تيسير النحو ، أما الأساس الأول فإعادة تنسيق أبوابه ، بحيث لا تصيب أذهان الناشئة بشيء من التشتت ، ومما يلاحظ على علومنا اللغوية كثرة الجزئيات والتفاصيل فيها ، بحيث يسودها غير قليل من الصعوبة على الدارسين ، بل من العنت والمشقة ، على نحو ما هو معروف عن

علم العروض والقوافى وكثرة المصطلحات فى مقدماته أو زحافاته وعلله وفى أوزانه وقوافيه ، مما يعوق الدارس له عن تمثله إلا أن يبذل جهداً مضاعفاً . وهذا نفسه يلاحظ فى النحو وأبوابه وفصوله وشعبه وتفاريعه الكثيرة التى توهن القوى العقلية للناشئة وترهقهم إرهاقاً شديداً . والأساس الثانى الذى رأيت الأخذ به حينذاك هو إلغاء الإعراب التقديرى والمحلى . متابعاً فى ذلك قرار المجمع فى تيسير النحو، لأنه فعلا لا يفيدنا أى فائدة فى ضبط الكلمات إعرابيا . والأساس الثالث أن لا تعرب الكلمة ما دام إعرابها لا يفيد شيئاً فى صحة النطق . وفى رأيى أن هذه الأسس الثلاثة إذا أُحسن استخدامها أمكن بها أن نيسِّر النحو دون أن نحدث أى تحوير أو تغيير فى مصطلحاته الموروثة : مصطلحات المبتدأ والخبر والفاعل ونائبه والمفاعيل والحال والتمييز والتوابع والمضاف . وأضيف الآن إلى هذه الأسس أساساً رابعاً ، هو ضوابط سديدة أو دقيقة للأبواب تتلاءم ورسمها رسماً متميزاً بحيث تتبين الناشئة أوضاعها ووظائفها فى التعبير تبيناً تاما ، وأنا أبتدئ تنسيق الأبواب ، فأول ما ألاحظ أن النحو يدرس التوابع فى باب الجمل ، وأرى أن تدرس فى أحكام الاسم المفرد وتقسيماته ، لتتبين الناشئة أن المتبوع لا يكون مع توابعه جملا مفيدة ، وبذلك ينمحى نهائياً من نفوسها الخلط بين النعت مثلاً والخبر أو بينه وبين الحال .

وننتقل إلى ملاحظة ثانية ، وهى تتصل بأول باب فى النحو وهو باب المبتدأ والخبر ، وسيظل دون مساس به ، غير أن النحاة يفرعون منه باب كان وأخواتها وكاد وأخواتها وما ولا ولات العاملة عمل ليس وباب إن وأخواتها وباب لا النافية للجنس وباب ظن وأخوانها مما ينصب مفعولين أصلهما مبتدأ وخبر وباب أعلم وأخواتها مما ينصب ثلاثة مفاعيل . وتلك سبعة أبواب ، وينبغى حذفها جميعاً ما عدا إن وأخواتها لسبب واضح هو أن المبتدأ بعدها ينصب ويسمى اسمها . أما كان وأخواتها فأراحنا منها الكوفيون إذ أعربوا الاسم المرفوع بعدها فاعلا والاسم المنصوب حالا . وبذلك لا تعود الناشئة تتعثر فى معرفة هل كان هى التى ترفع الاسم وتنصب الخبر أو العكس وهل إن هى التى تنصب الاسم وترفع الخبر أو العكس ، وتزول هذه البلبلة فى ألسنتها إلى الأبد . وكاد وأخواتها مثل كان وأخواتها أفعال وما بعدها فواعل فى رأى سيبويه والأخفش الأوسط والمبرد وبالمثل ظن وغاية ما فى الأمر أنها فعل متعدٍّ إلى مفعولين ، فتنتقل هى وأخواتها إلى باب الفعل المتعدى ومثلها أعلم وأخواتها التى تتعدى إلى ثلاثة مفاعيل . ويحذف باب ما ولا ولات العاملات عمل ليس فى رأي البصريين . أما لات فلا يليها إلا ظرف منصوب مثل (ولات حين مناَص) فما بعدها ظرف زمان منصوب ، ولا داعى لتقدير اسم لها محذوف ، وكان الأخفش يرى أنها لا تعمل شيئاً . وأماّ لا العاملة

عمل ليس فقال ابن هشام فى " المغنى " إن عملها قليل حتى ادُّعى أنه ليس بموجود ، وقال أيضاً إن ذكر خبرها قليل حتى إن الزجاج لم يظفر به وذهب مع الأخفش الأوسط إلى أن خبرها مرفوع . ويكفى أن ينكر الأخفش الأوسط والزجاج عملها لعدم دورانها فى اللسان العربى لنعفى الناشئة منها . وأما ما العاملة عمل ليس فلغة خاصة بالحجازيين ، والكوفيون يرون أن المنصوب وراءها منصوب بنزع الخافض . وتبقى لا النافية للجنس وينبغى أن لا يفرد لها باب بل تلحق بإن وأخواتها وينص على أن اسمها دائماً نكرة غير منوَّن . وإذن الأبواب الأولى فى كتاب النحو تُخْتَزَلُ إلى بابين هما باب المبتدأ والخبر وباب إن وأخواتها بما يشمل لا النافية للجنس . وبذلك تستريح الناشئة من ستة أبواب .

وإذاتقدمنا إلى أبواب الفاعل والمفعولات وجدنا ابن مضاء أراحنا من قديم من بابى التنازع والاشتغال ، أما التنازع فلأن العرب جاء عنهم مثل قام وقعد إخوتك ، ولم يرتضِ النحاة أن يكون لفعلين فاعل واحد حتى لا يجتمع مؤثران على أثر واحد ، فافترض البصريون صيغة " قاموا وقعد إخوتك " وافترض الكوفيون صيغة " قام وقعدوا إخوتك " . والصيغتان لا تعرفهما العرب .

ولذلك رأى ابن مضاء إلغاء الباب وقال إن ما جمع النحاة له من صيغ اخترعوها اختراعاً . ورأى ابن مضاء أن النحاة يعقِّدون باب الاشتغال وصوره . فمنها ما يجب رفعه ، ومنها ما يجب نصبه، ومنها ما يترجَّح فيه أحد الوجهين ، ومنها ما يجوز فيه الوجهان معاً . ولاحظ أن كثيراً من صوره لم ينطق بها العرب والباب من أكثر أبواب النحو تعقيداً ، وحلَّه ابن مضاء حَلاً يلغيه إلغاءً إذ قال إن الاسم المتقدم على الفعل إذا عاد عليه ضمير رفْع فهو مبتدأ ، وإذا عاد عليه ضمير منصوب أو متصل بمنصوب نصب ، وكأن صيغه إما أن تعود إلى باب المبتدأ والخبر ، وإما أن تعود إلى باب المفعول به ، وبذلك أراح النحاة من البابين .

ولعل أهم باب يوضح نقص التنسيق فى كتاب النحو وما جَرَّه من وضع أبواب وأسماء جديدة باب التمييز ، وعادة يتحدث النحاة فيه عن تمييز المقادير كيلاً ووزناً ومساحةً وما يماثلها فى نحو : قدح قمحاً ، ورطل زيتوناً ، وفدان أرضاً . وتمييز النسبة المحوّل عن مبتدأ فى مثل محمد كريم خلقا فأصل التعبير محمد خلقه كريم ، والمحول عن فَاعل مثل طاب محمد نفسًا فأصل التعبيرطاب نفس محمد والمحول عن مفعول به مثل قوله جل شأنه : (وفَجَّرْنا الأرْضَ عُيُوناً) وأصله فى تقدير النحاة وفجرنا عيون الأرض .

وهذا التمييز المسمى تمييز النسبة لا تكاد الناشئة تتصوره أو تدركه ، فى حين لو صيغ صياغة أخرى أكثر وضوحاً لتمثلوه ، ويمكن وضع قاعدة واضحة له فيقال إن التمييز يأتى بعد الصفة المشبهة مثل محمد كريم خلقاً وحسن أدباً وعميق علماً ، وهلم جرا ، ويأتى بعد الفعل اللازم فى مثل محمد طاب نسباً وعظم خلقاً وحسن أدباً واشتعل رأسه شيباً .أما المثال الثالث وهو قوله سبحانه : (وَفَجَّرْنا الأرْضَ عُيُوناً) فيحسن أن تعرب " عيونا " بدلا من الأرض ، لأن تصور الناشئة لها بدلا أوضح من تصورهم لها تمييزاً . وخاصة أنه يصعب الإتيان بأمثلة تطبيقاً عليها . وهذه صورة جزئية من صور التنسيق التى نريدها لأبواب النحو ، حتى تتمثلها الناشئة فى سهولة . غير أنها ليست هى التى نريد أن نقف عندها وحدها فى باب التمييز ، فإن النحاة لم يجمعوا فيه بقية صوره ، بل فتحوا لها أبواباً مستقلة . وأول باب نقف عنده صيغة التعجب فى مثل ما أحسن السماء منظراً ، ويلاحظ أنه ليس فيها شىء غير عادى . فهى تتركب من مبتدأ وفعل وفاعله المستتر ومفعول به وتمييز . وربما الذى دفع النحاة إلى أن يفردوا التعجب بباب هو الصيغة التعجبية الفعلية الثانية فى مثل قوله تعالى : (أَسْمِعْ بهم وأَبْصِر) . ولكن هذه الصيغة ينبغى أن لا نأخذ فيها برأى البصريين القائل بأن أسمع فعل ماضٍ على صورة الأمر . والباء حرف جر زائد داخل على الفاعل ، لما فى تصور ذلك من

صعوبة ، إنما هى فعل أمر كما قال الفراء والزجاج وابن كيسان والزمخشرى وبذلك يلغى الباب وتضم صيغته الأولى إلى صيغ التمييز . ومثله باب أفعال المدح والذم فى نحو نعم محمد شاعرا ، ولعل الذى جعل النحاة يفردون هذه الأفعال بباب مستقل أو بدراسة مستقلة أنهم ذهبوا فى مثل نعم الشاعر محمد إلى أن محمدا مخصوص بالمدح مبتدأ مؤخر والجملة السابقة له خبر مقدم. وبالمثل بئس أو ساء ـ وحبذا أو لا حبذا ـ المتحدث حسن . وإذا عرفنا أن ابن كيسان فى القرن الثانى الهجرى أعرب المخصوص بالمدح والذم بدلاً مما قبله ، وأخذنا بذلك تسهيلا على الناشئة سقط الباب بدوره أو ألغى وضمت صيغته فى مثل نعم محمد شاعراً إلى صيغ التمييز ، وكذلك صيغته فى مثل نعم الشاعر محمد إلى باب البدل ، دون حاجة إلى فتح باب مستقل لدراسته . ومثل البابين السالفين باب اسم التفضيل ، والنحاة يصرون فيه على أنه لا ينصب مفعولا به وإنما ينصب تمييزاً يبين جهة التفضيل مثل هو أفضل من صاحبه خلقاً . وواضح أنه بذلك صيغة من صيغ التمييز فينبغى أن يضم إلى بابه . ومعنى ذلك أن هذه الأبواب الثلاثة ينبغى أن تلغى من كتاب النحو وتضم إلى صيغ التمييز ومثلها صيغة العدد ، وصيغة كم الاستفهامية والخبرية . ونرى أن تُلْحَق بصيغ التمييز صيغة الاختصاص فى مثل : " نحن معاشرَ الأنبياء لا نورث " أو " نحن العربَ أسخياء " إذ الواضح أن كلمتى معاشر

الأنبياء والعرب بيان وتفسير للضمير قبلهما ، وهما لا شك مميزان له . وفى رأيى أن الذى منع النحاة البصريين من عدهم الاختصاص صورة من صور التمييز أنه معرفة ، وهم اشترطوا فى التمييز أن يكون نكرة ، غير أننا إذا أخذنا برأى الكوفيين القائلين بأن التمييز قد يكون معرفة ألغينا الباب وأدخلناه فى باب التمييز . وبدون شك إعرابه تمييزاً أوضح من إعرابه مفعولاً به لفعل محذوف تقديره أخص أو منادى كما ذهب الأخفش الأوسط . وواضح أنه بهذا التنسيق لباب التمييز ألغيت أبواب التعجب وأفعال المدح والذم ، واسم التفضيل وإعماله ، والعدد ، وكم الاستفهامية والخبرية ، والاختصاص . وهى ستة أبواب ، يكتفى بعرض أمثلتها فى باب التمييز عرضاً واضحاً . وإذا كان لا بد أن نستبقى من هذه الأبواب باباً فليكن باب العدد لأنه من مشاكل التعبير المعقّدة فى اللغة . ومع ذلك ينبغى أن يتلو باب التمييز مباشرة فى كتاب النحو . أما الأبواب الخمسة الأخرى فينبغى أن تلغى دون تردد تيسيراً على الناشئة .

وهذا التنسيق الجديد لأبواب النحو يجعلنا نعيد النظر فى بابى التحذير والإغراء مثل النارَ ، وإياك والنار ، تحذيراً ، ومثل : القراءةَ ، المذاكرةَ ، الصبرَ ، إغراء ، وواضح أن الصيغ المذكورة صور من صيغ المفعول به ، وهو كثيراً ما يحذف فعله . ومن صور حذفه

فى القرآن الكريم: (وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً) أى أنزل خيراً،وقوله عز شأنه: (انتهوا خيراً لكم) أى وأتوا خيراً لكم . فتوضع صور الإغراء والتحذير مع صور المفعول به المحذوف فعله فى باب سنقترحه لعرض الحذف لبعض أجزاء الجملة فى العربية .

ومن الأبواب التى ينبغى أن تحذف فى هذا التنسيق المقترح لأبواب النحو أبواب الترخيم والاستغاثة والندبة ، والترخيم حذف الحرف الأخير للمنادى وهو لهجة أشبه بأن تكون مهجورة الآن فلا يكلف الناشئة بالوقوف عليها وأن مثل يافاطمة يقال فيها يا فاطم بدون تاء ومثل يا جعفر يقال فيها يا جعف بدون راء . والاستغاثةليست إلا صورة خاصة من صور النداء ، يجر المنادى فيها لفظاً بلام مفتوحة ، ويعرب منادى فى مثل يا لعلى ، ويليهاالمستغاث له مجروراً بلام فيقال : يا لعلى لأخيه أو للمظلوم . وقد تحذف من المنادى اللام المفتوحة ويعوض عنها بألف فيقال : يا عليا للمظلوم . وهاتان الصيغتان للاستغاثة تلحقان بالنداء لأنهما صورتان منه ، ومثلها صيغ الندبة غير أن حرف النداء فيها " وا " فيقال : واعلى ، وقد تلحق المنادى ألف وقد تضاف إليها هاء السكت فيقال : " واعليا " كما يقال : " واعلياه. وكل هذه الصيغ للندبة والاستغاثة تلحق بالنداء مع بيانها ولا تعرب تيسيرا على الناشئة.

وقد يكون من الخير أن يكتفى فى دراسة أسماء الأفعال بعرضها فى باب المبنيات ، لأنها صيغ مبنية ثابتة .

ويتضح من هذا التنسيق المقترح لأبواب النحو أنه حذفت منه دراسة ثمانية عشر بابا من أبوابه ، هى باب كان وأخواتها ، وباب ما ولا ولات المشبهات بليس ، وباب لا النافية للجنس ، وباب كاد وأخواتها، وباب ظن وأخواتها ، وباب أعلم وأخواتها ، وباب التنازع ، وباب الاشتغال ، وباب التعجب ، وباب أفعال المدح والذم، وباب اسم التفضيل وباب كم الاستفهامية والخبرية ، وباب الاختصاص ، وباب التحذير والإغراء ، وباب الترخيم ، وباب الاستغاثة ، وباب الندبة ، وباب أسماء الأفعال . وبقى وراء ذلك الحذف من أبواب النحو باب المبتدأ والخبر ، وباب إن وأخواتها ومعها لا النافية للجنس ، وباب الفاعل ، وباب نائبه ، وباب المفعول به ، وباب المفعول المطلق ، وباب المفعول فيه ، وباب المفعول لأجله ، وباب المفعول معه ، وباب الاستثناء ، وباب الحال ، وباب التمييز، وباب الإضافة وباب التوابع وباب إعمال المصادر والمشتقات ، وباب حروف الجر مع العناية بحروف الجر الزائدة ، وباب الممنوع من الصرف ، وباب إعراب المضارع ونصبه وجزمه . وكأن ما حذف من أبواب النحو يماثل فى عدده ما بقى منه ، وهو لم يحذف كما يظن ، وإنما أدمجت الأبواب المحذوفة فى الأبواب الباقية

ابتغاء وضع بناء مبسط للنحو يجعل الناشئة تسيغه دون أن تبذل فيه ما تبذله الآن من مشقة وعناء.

وأترك أساس إعادة تنسيق أبواب النحو وما يترتب عليه من حذف أبواب كثيرة فيه طالما جعلته شديد العسر ، وأنتقل إلى الأساس الثانى الذى أشرت إليه : أساس إلغاء الإعرابين : التقديرى والمحلى ، وهو مبدأ وضعته ـ كما أسلفنا ـ أول لجنة عنيت بتيسير النحو ، إذ رأت أن فى تكليف الناشئة الإشارة إلى سبب التقدير فى مثل الفتى وأنه التعذر ، وفى مثل القاضى وأنه الثقل ، عبثاً لا يجنون منه ضبط كلمة ولا تصحيح إعراب . وكذلك الإعراب المحلى فى مثل " هذا " وأنها على السكون فى محل رفع وقولهم فى مثل " يا هذا " مبنى على ضم مقدر منع منه سكون البناء الأصلى فى محل نصب . وكل هذا عناء لا طائل تحته للتلميذ والنحو . وقد أخذ مجمع اللغة العربية بهذا المبدأ ، ورده مجمع دمشق كما مر بنا وكذلك مجمع بغداد مع إدخال تعديل طفيف عليه كأن يقال فى مثل " الفتى أقبل ". الفتى مبتدأ مرفوع لا تظهر عليه الضمة . وفى رأيى أنه يكفى أن تعرف الناشئة وظيفة الكلمة فى العبارة دون محاولة فى مثل الفتى أن يقال إنها مرفوعة بضمة مقدرة للتعذر ، أو يقال إنها مرفوعة لا تظهر عليها الضمة ، ونحو ذلك مما لا يفيد النطق أى فائدة حقيقية . وينبغى أن يضاف إلى إلغاء الإعراب

المحلى فى المبنيّات المفردة إلغاء الإعراب المحلى فى الجمل ، فيكفى أن يقال : هذه الجملة صلة أو صفة أو خبر أو مفعول به أو حال أو جواب شرط أو جواب قسم أو معطوفة أو اعتراضية أو مضاف إليها دون أن يقال إنه لا محل لها من الإعراب أو لها محل هو الرفع أو النصب أو الجزم إلى غير ذلك ، إذ لا يترتب على هذا كله شيء فى صحة النطق وسداده . وطبيعى أن نأخذ برأى ابن مضاء القائل بأنه لا يقدر للظرف والجار والمجرور متعلق عام فى مثل محمد عندك ومحمد فى الدار بحيث نقول إنهما متعلقان بمحذوف هو الخبر وتقديره مستقر أو استقر ، فهما بأنفسهما الخبر ، ولا متعلق هناك ولا محذوف . وطبيعى أيضاً أن نأخذ برأيه فى أن المضارع بعد فاء المضارع بعد فاء السببية وواو المعية منصوب دون حاجة إلى تقدير أنه منصوب بأن مضمرة وجوباً ونعمم ذلك فى أخواتهما وهى لام الجحود ولام التعليل وكى وحتى و أو التى بمعنى إلى أو إلا، فجميعها يأتى المضارع بعدها منصوباً ولا حاجة إلى تقدير نصبه بأن مضمرة جوازاً أو وجوباً . ويحسن أن نضيف إلى إلغاء الإعراب التقديرى ما رآه المجمع فى قرارات التيسير من إلغاء تقدير النيابة فى العلامات الفرعية للإعراب فى الأسماء الخمسة والمثنى وجمع المذكر السالم وجمع المؤنث السالم والممنوع من الصرف أو التنوين ، فقد قرر إلغاء فكرة أن المثنى يرفع بالألف نيابة عن الضمة فهو مرفوع بالألف فحسب . وكذلك جمع

المؤنث السالم منصوب بالكسرة دون ذكر نيابتها فيه عن الفتحة ، وبالمثل الممنوع من الصرف أو التنوين مجرور بالفتحة فحسب دون إضافة أنها نائبة فيه عن الكسرة . وأوثر أن يشار في المثنى وجمع المذكر السالم إلى أن النون في آخرهما بدل من التنوين في المفرد ، حتى لا يظن بعض الناشئة أنها آخر الكلمة .

وثالث الأسس التي ينبغي أن نعتمد عليها في تيسير النحو أن لا نعرب الكلمة ما دام إعرابها لا يفيد شيئا في صحة نطقها ، ويتضح ذلك في أبواب الاستثناء وأدوات الشرط وكم ولا سيما وأن المخفَّفة من الثقيلة فأما باب الاستثناء فيذكرون من أدواته بجانب إلا : ما خلا وما عدا وما حاشا وغير وسوى . ويعربون الأداة الأولى في مثل جلس التلاميذ ما خلا عليا هكذا : ما مصدرية وخلا فعل ماض فاعله مستتر وجوباً تقديره هو يعود على البعض المفهوم من الكلام ومحمدا مفعول به . وما المصدرية وما بعدها في تأويل مصدر منصوب ، واختلف في إعرابه هل هو حال أو ظرف ، والراجح أنه حال ، وهو رأي السيرافي . ويلاحظ أن هذا الإعراب كله لا يذكر فيه الاستثناء ولا شيء من مشتقاته : وأوضح من هذا الإعراب العسير الذي يصعب علي الناشئة تصوره أن يقال : " ما خلا " أداة استثناء وما بعدها مستثنى منصوب ، وكذلك الشأن في إعراب أختيها : ماعدا وماحاشا . وأما غير فقال النحاة إنها أداة

استثناء فى مثل " جاء القوم غير زيد " بالنصب و" ما جاءنى أحد غير زيد " بالنصب والرفع وقالوا إن اعرابها هو نفس إعراب الاسم التالى لإلاّ فى الأمثلة المناظرة ، والمناظر لهذين التعبيرين هو " جاء القوم إلا زيداً " و " ما جاءنى أحد إلا زيدا أو إلا زيد " إذ يجوز النصب على الاستثناء والرفع على البدلية بعد النفى . ومعنى ذلك أن غير فى المثال الأول منصوبة على الاستثناء مثل نصب " زيداً " فى المثال " جاء القوم إلاّ زيداً " وهى فى المثال الثانى يجوز فيها النصب على الاستثناء والرفع على البدلية مثل نصب زيد ورفعه فى المثال الثانى . وإذا رجعنا إلى ابن هشام وجدنا حلاً سهلاً لهذه المشكلة فقد نقل عن أبى على الفارسى أن غير التى تعرب مستثنى منصوبا إنما هى حال وقال إن هذا الإعراب اختاره ابن مالك وأما غير المرفوعة التى يعربها النحاة فى الصيغة المنقية السابقة بدلا فقال إنها تعرب نعتاً ، وكذلك إن جاءت مجرورة كما فى قوله عز شأنه : (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم) . وحرى بنا أن نأخذ بهذا الإعراب لغير وتخرجها من باب الاستثناء ، حتى نعفى الناشئة من تحويلهم فى إعرابها على ما بعد إلا وما يحدث ذلك فى أذهانهم من اختلاط . ومثلها فى هذا الحكم سوى . وحرى بنا أن نأخذ بهذا الإعراب لغير وتخرجها من باب الإستثناء حتى نعفى الناشئة من تحويلهم فى إعرابها على ما بعد إلا وما قد يحدث ذلك فى أذهانهم من اختلاط ، ومثلها فى هذا الحكم سوى ، وحرى بنا أن

نأخذ بما قالت به لجنة التيسير الوزارية القديمة والدكتور محمد كامل حسين من أن الاستثناء المفرغ فى مثل (وما محمدٌ إلاَّ رسولٌ) ليس من باب الاستثناء فنخرجه منه نهائياً لأنه قصر وتخصيص وليس استثناء . وبذلك كلِّه تَسقُط جميع صعوبات باب الاستثناء ويصبح من أخف أبواب النحو . ولا تكون فيه صورة وهمية ، بل تكون جميع صورة استثناء حقيقياً .

وباب أدوات الشرط من الأبواب العسرة فى الإعراب ، والنحاة يقسمونها إلى حروف وأسماء ، والحروف : إنْ ولَوْ ، والأسماء : من وما ومهما وأى وأين وأنى وحيثما ومتى وإذا وكيفما .

وهم يعربون مَن فى مثل :من يجلس أجلسْ معه مبتدأ ويختلفون فى الخبر هل هو فعل الشرط أو جواب الشرط أو هما معاً والرأى الراجح أنه فعل الشرط.وما مفعول به فى مثل (وما تفعلوا من خير يعلمه اللّه) وظرف زمان أو مفعول فيه فى مثل (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم). ومهما مفعول به فى مثل مهما تفعل أفعل ويمكن أن تعرب مفعولا مطلقاً بمعنى أى شيء تفعل أفعل. وأى تعرب بحسب ما تضاف إليه ، فهى مفعول به فى مثل أى الكتب تقرأ أقرأ ومفعول فيه أو ظرف زمان فى مثل (أيما الأجلين قضيتُ فلا عدوان على).وأين وأنى وحيثما ومتى وإذا منصوبة

على الظرفية وكيفما على الحالية . وحرى أن نستذكر إعرابهم لإذا الشرطية فى مثل (وإذا تُصبْك خصاصة فتجمَّل) إذ يقولون هكذا : " إذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه" ومعنى ذلك أن العامل فى إذا فى العبارة السالفة هو الجواب "تجمل " فهو الذى عمل فيها النصب على الظرفية وأن فعل الشرط " تصبك خصاصة " مضاف إلى إذا . وكل ذلك لا يفيد الناشئة فى نطقها لإذا أىّ شىء . وبالمثل المحاولات السابقة فى إعراب أدوات الشرط الأخرى ، فكلها فى غنى عن هذا الإعراب ، لأنها من المبنيات التى تلزم حالة واحدة فى النطق ويكفى أن تعرف الناشئة أن المضارع يسكن أو يجزم بعد هذه الأدوات وأنه يليها جملتان .

وواضح أنه يتحتم حذف الإعراب لأدوات الشرط من كتاب النحو الميسر ، وبالمثل ينبغى حذف إعراب كم الاستفهامية والخبرية ، وماذا يفيد الناشئة فى نطقهم إذا تعلموا أن كم فى مثل " كم تلميذاً حضر الدرس " مبتدأ وفى مثل " كم كتاباً قرأت " مفعول به وفى مثل " كم نظرة نظرت " مفعول مطلق وفى مثل " كم يوماً غبت " مفعول فيه وفى مثل " بكم شجرة مررت " مجرورة . وكل هذا تكلف لا يفيد شيئاً فى النطق ويكفى أن تعرف الناشئة أن كم استفهامية أو خبرية ، وأن الأولى يليها تمييز مفرد منصوب وأن تمييز الثانية يكون دائماً مجروراً مفرداً أو مجموعاً . ومما

أطالوا فى إعرابه وتكلفوا له صوراً بعيدة من التأويل إعراب " لا سيما على " فى مثل " سبقوا لا سيما على " فقد ذهب أبو على الفارسى إلى أن "سى " حال ورجح عليه ابن هشام قول من ذهبوا إلى أن لا نافية للجنس و " سى " اسمها وما زائدة وعلى بعدها مضاف إلى سى أو مرفوع وهو خبر لمضمر محذوف وما موصولة أو نكرة موصوفة بالجملة بعدها وجوز بعضهم نصب ما بعدها وأعربه مستثنى . وواضح أنها أداة لا تحتاج إلى إعراب ، وهى أداة تخصيص ، وما بعدها لا يحتاج إلى إعراب أيضاً لأنه يجوز فيه الرفع والنصب والجر ، وإذن فينبغى أن يعفى الناشئة من إعرابها هى وما يليها مرفوعاً أو منصوباً أو مجروراً . ومما ينفى أن يعفوا منه أيضاً إعراب أن المخففة من الثقيلة ، ومعروف أنّ " أن " ساكنة النون يليها مضارع منصوب غير أن نحاةالبصرة وجدوا فى الذكر الحكيم أمثلة فيها " أن " داخلة على مضارع مرفوع كقوله جل شأنه فى سورة طه : (أفلا يروْن أنْ لاَ يرْجعُ إليهم قولاً ولا يَمْلِكُ لهم ضَرّاً ولا نَفْعًا) وبذلك قرأ السبعة ، وكقوله تبارك وتعالى فى سورة المائدة " (وحسبوا أنْ لا تكونُ فِتْنَةٌ فعَمُوا وصَمُّوا) بقراءَة أبى عمرو وحمزة والكسائى فقالوا إنَّ أنْ فى الآيتين ليست هى أن الناصبة للمضارع إنما هى مُخَفَّفة من أنَّ أخت إنَّ واسمها ضمير شأن محذوف . وهو تأويل بعيد لأنه لا ضرورة لأن تخفف " أنَّ " هذا التخفيف. وأيضاً لا ضرورة لأن يحذف اسمها ويقدر ضمير شأن

كما يقولون . والكوفيون لذلك محقون حين أنكروا هذا كله فى " أن الساكنة النون " فى الآيتين الكريمتين وما يماثلهما ، وقالوا إنها لا تعمل شيئاً لا فى الفعل المذكور ولا فى الضمير المقدر المحذوف . ويكفى أن يقال إنها أداة ربط مثلها مثل أنْ فى قوله تعالى : (فأوحينا إليه أن أصنْعَ الفلك بأعيننا)والبصريون يسمون الأخيرة أن المفسرة وقد انكر الكوفيون أن تكون أن تفسيرية وأنكرها معهم ابن هشام .

والأساس الرابع ، وهو وضع ضوابط سديدة ، من شأنها أن تضيف وجوهاً أخرى من تيسير النحو على الناشئة ، ويتضح ذلك فى أبواب المفعول المطلق والمفعول معه والحال . أما المفعول المطلق فقد وضع ابن هشام له فى كتابه : " أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك " هذا الضابط : "اسم يؤكد عامله أو يبين نوعه أو عدده وليس خبراً ولا حالا " وقرن الخبر والحال به فى هذا الضابط أو التعريف يدل على اضطراب صورته فى أذهان النحاة ، لأن لكل من الخبر والحال وظيفة سوى وظيفة المفعول المطلق المؤكد فى مثل " قرأت قراءة " والمبين للنوع فى مثل " قرأ قراءة المتقن للعربية " والمبين للعدد فى مثل " قرأ قراءتين " . فأين هذه الصور للمفعول المطلق من صور الخبر والحال ؟ والنحاة يمضون فيقولون إنه ينوب عن المفعول المطلق ما يدل عليه ، وهو صفته فى مثل علمه كثيراً

وضميره فى مثل " علمه تعليماً لم يعلمه أحداً " واسم الإشارة السابق للمصدر فى مثل " علمه ذلك العلم " ومرادفة فى مثل " جلس قعوداً " وآلته فى مثل " ضربه عصا " وعدده فى مثل " سجد أربع سجدات " وكل وبعض حين يضافان إلى المصدر فى مثل " علمه كل العلم أو بعض العلم " . وكل هذه الصور لا تدخل فى الضابط الذى وضعه ابن هشام للمفعول المطلق ، ولذلك يقولون إنها تنوب عنه أو عن مصدر الفعل السابق لها ، وأفردوها بالدرس . وكثرتها تجعل من الصعب على الناشئة أن تحيط بها فضلاً عن تصورها تصوراً دقيقاً ، فى حين أننا لو وضعنا للباب هذا الضابط السهل : " المفعول المطلق كل اسم منصوب يصف الفعل أو يتعلق به ضربا من التعلق سواء أكان مصدراً أو غير مصدر " لاستراح الناشئة من التفصيل فى الصور السابقة إذ ينتظمها جميعاً هذا الضابط سواء أكانت مصدراً مثل : قرأت قراءة أو صفة مثل قرأت كثيراً إذ هى وصف للفعل وأنه كان كثيراً ، وهكذا الأمثلة الأخرى السابقة ، إذ دائماً تتعلق بالفعل وجهاً من التعلق ، إذ تشير إليه أو تذكر عدده أو ضميره أو آلته إلى غير ذلك .

ويذكر ابن هشام للمفعول معه هذا الضابط : " اسم فضله تال لواو بمعنى مع تالية لجملة ذات فعل أو اسم فيه معناه وحروفه " . ويجعل ابن هشام والنحاة للاسم بعد الواو خمس حالات وجوب

العطف فى مثل " اشترك زيد وعمرو " ، ورجحان العطف فى مثل " جاء زيد وعمرو " ويجوز " جاء زيد وعمرا " على أن عمرا مفعول معه ، ووجوب أن يكون مفعولا معه فى مثل " سرت والجامعة " ورجحان أن يكون مفعولا معه فى مثل " قمت ومحمدا " لأن العطف على الضمير المتصل يستلزم ضميراً فاصلاً ، وامتناع أن يكون مفعولا معه أو معطوفاً فى مثل" شربت ماءً وطعاماً " إذ يقدرون لكلمة " طعاماً " فعلا محذوفاً مثل " أكلت " . وإذا رجعنا إلى ضابط الباب وجدناه طويلاً ومبهما بعض الإبهام وفى رأيى أنه لرغبة النحاة فى تفريعات الأبواب وكثرتها ذكروا فيه الصور السابقة جميعاً ، مع أن واحدة منها فقط هى التى ينطبق عليها الباب وهى سرت والجامعة . وهكذا واو المفعول معه دائماً تفصل ما بعدها عن الفعل السابق لها فلا يقع عليه كما فى مثل سافرت وطلوع الفجر . والواو حينئذ كأنها تحل محل ظرف زمان أو ظرف مكان . وبهذا التوجيه يتّضح الباب فى نفوس الناشئة ويكون ضابطه على هذا النمط : " المفعول معه اسم منصوب تال لواو بمعنى مع ، لا يصح أن يعطف على ما قبله لأن الفعل السابق له لا يقع عليه " أو بعبارة مختصرة وأكثر دقة : " اسم منصوب تال لواو بمعنى مع تفيد الظرفية الزمانية أو المكانية " . وبذلك يتعين الباب وتصبح صورته فى غاية الوضوح ولا تضطرب فيه الناشئة ، وخاصة حين يجيز لهم النحاة أن يقال : جاء زيد وعمرو ، وجاء زيد

وعمرا ، فيضطرب الباب فى أذهانهم ، والواو فى العبارة الثانية عاطفة وليست واو المعية كما هو واضح .

وليس ضابط الحال خيراً من ضابط المفعول معه والمفعول المطلق، فقد ضبطه ابن هشام على هذا النحو " وصف فضلة مذكور لبيان الهيئة " وهو ضابط غامض ، ويشرحه ابن هشام ، فيقول : " خرج بذكر الوصف المفعول المطلق وبذكر الفضلة الخبر ، لأن الفضلة منصوبة والخبر مرفوع ، وخرج ببقية الضابط التمييز والنعت " ، وبذلك يصبح ضابط الحال أنه اسم ليس مفعولا مطلقاً ولا خبراً ولا تميزاً ولا نعتاً " . فماذا تفهم الناشئة من مثل هذا الضابط ؟ إنها لا تكاد تفهم ولا تتصور شيئاً . والغريب أن النحاة ـ فيما عدا سيبويه ـ لم يلاحظوا أن الحال يحمل معنى الظرفية ، فإذا قلت جاء محمد مبتسماً كان الابتسام صفة لمحمد فى وقت معين هو وقت المجى ء أو وقت الفعل ، فهو صفة مقيدة بزمان معين . ولذلك أرى أن يوضع له هذا الضابط البسيط : " الحال صفة نكرة مؤقتة منصوبة " . وبذلك يخرج الخبر المرفوع ، كما يخرج النعت فهو صفة لازمة . ولا علاقة بين الحال بهذه الصورة والمفعول المطلق ولا بينه وبين التمييز ، فنحتاج إلى إضافة كلمات فى تعريفه أو ضابطه تخرجهما . وبذلك يتعين الحال فى نفوس الناشئة ، فهو صفة مؤقته بزمن معين كما فى مثل قابلته راجعاً من رحلته ،

ولقيته مسروراً . ويوضح وصف الحال بأنه صفة مؤقتة أنه حين يكون جملة وتسبق جملته الواو نحس أنها تحل محل ظرف زمان ، وقديماً لاحظ ذلك سيبويه وقال إن معناها إذ ، كما يلاحظ فى مثل " أقبل زيدٌ وكان غاضباً " أى إذ أو بينما كان غاضباً . وتلك علامة واو الحال أنها زمانية مثل واو المفعول معه فى قول القائل : " استيقظت وطلوع الشمس " وهى علامة لا تتخلف فى الجملة الحالية المسبوقة بالواو.

ولا بد أن نضيف إلى ما قدمنا التخفّف من مسائل الصرف العويصة التى لا تفيد الناشئة فى صحة النطق بالعربية ، بل لا بد من حذفها كمسائل الإعلال ، ومثلها مسائل الإبدال إلا الضرورى منها المتعلق بالنطق وصحته مثل أل الداخلة على ما أوله حرف شمسى ومثل إبدال الضاد الساكنة طاء فى نحو عرضت والدال الساكنة تاء فى نحو حمدت والتاء طاء فى نحو اصطلح . وينبغى التّخفّف فى دراسة التصغير ، فلا يُدْ رَسُ للناشئة منه إلا الثلاثى والرباعى دون التعرض لما لا يستعمل من أمثلتهما. وكذلك النسب ينبغى أن يكتفى فيه بالأمثلة الشائعة التى تجرى فى ألسنة الناشئة .

وبقيت تتّمات لهذا التيسير المقترح ، إذ لا بد من العناية بتضمين كتاب النحو جداول لتصريف الفعل مع الضمائر : الفعل

السالم والمهموز والمضاعف والمثال والأجوف والناقص ، وبالمثل تصريف الفعل المضارع مع نون التوكيد ، وبحق قال الدكتور محمد كامل حسين فى مقاله " النحو المعقول " : إنه ينبغى أن يحفظ التلاميذ هذه الجداول فى أول عهدهم بالتعليم كما يحفظون جداول الضرب فى الحساب . ويحسن أن تظل هذه الجداول فى كتب النحو طوال التعليمين : الإعدادى والثانوى ، حتى إذا احتاج التلميذ إليها وجدها تحت بصره . ولا بد من العناية بباب إعمال المصادر والمشتقات إعمال الفعل ، فإنه ينبغى أن يمرن التلاميذ على وضع الأفعال المضارعة المبنية للمعلوم مكان المصادر وأسماء الفاعلين والصفات المشبهة ، ليتصوَّروا بدقة عملها ، وكذلك يُمَرَّنون فى صيغ اسم المفعول على وضع الأفعال المضارعة المبنية للمجهول مكانها ليتضح لهم إعماله . واشترط البصريون فى إعمال اسم الفاعل أن يكون للحال أو للاستقبال ، فإذا كان للماضى لم يعمل ، وأعمله الكوفيون لمجيئه للماضى مع إعماله فى قوله جل شأنه : (وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) وينبغى الأخذ برأيهم ، حتى يكون إعمال اسم الفاعل مطرداً ولا تضطرب قاعدته فى أذهان الناشئة . ولا بد من العنايةبدراسة حروف الجر الزائدة ومواضع زيادتها مع المبتدأ والفاعل . وفى رأيى أنه ينبغى أن نجمع صور الحذف لبعض أجزاء الجمل وكذلك صور التقديم فيما بينها فى باب تسميه باب الحذف والتقديم ، إذ يحذف أحياناً ـ كما هو معروف ـ

المبتدأ والخبر والفاعل والمفعول به واحداً ومتعدّداً ويحذف الفعل أحياناً ، وقد يتقدم الخبر على المبتدأ والمفعول به على الفاعل . وكل ذلك يجمع فى باب حتى يقف التلاميذ بوضوح على صورة العبارة العربية فى أشكالها المتنوعة .

وواضح مما قدمنا أن هذا التيسير المقترح للنحو العربى يُعْفى الناشئة من شطر كبير من أبوابه إذ ذابت فى أبوابه الأساسية . كما يعفيهم من التقدير فى إعراب المفردات والجمل وفى متعلق الظرف والجار والمجرور وفى نصب المضارع بعد أن المصدرية المحذوفة ومن تصور أن علامات الإعراب الفرعية نائبة عن علامات أصلية . ويُعْفيهم من الإعراب المعقَّد لبعض أدوات الشرط ومن إعراب هذه الأدوات جملة وإعراب كم الاستفهامية والخبرية ولا سيما وأن المخففة من الثقيلة . وفى الوقت نفسه يضبط لهم ضبطاً دقيقاً أبواب النحو المليئة بالصعاب كأبواب المفعول المطلق والمفعول معه والحال . وأصبحت صيغ الاستثناء والتمييز محددة أو فى تحديد . وحُذف من الصرف الإعلال وخُفِّف الإبدال والتصغير والنسب . وعُنى بأربعة أبواب ، هى : جداول الفعل مع الضمائر وإعمال المصادر ، والمشتقات وحروف الجر الزائدة ، والحذف والتقديم ، حتى تستقر صياغات هذه الأبواب فى نفوس الناشئة وفى رأيى أنه لا بد أن يُعْنى فى دروس المطالعة للناشئة ببيان

مخارج الحروف حتى ينطقوا كلمات العربية نطقاً سليماً وكذلك بتعريفهم بمواضع ألفات الوصل وألفات القطع وبالوقف أو قَطْع النطق عند أواخر الكلمات .

ونسرد فيما يلى منهج كتاب النحو الميسر المقترح

أولا : أحكام الكلمة

الكلمة : اسم وفعل وحرف :

الاسم :

تقسيمه إلى مذكر ومؤنث وعلامات التأنيث .

تقسيمه إلى مفرد ومثنى وجمع .

تقسيمه إلى مقصور ومنقوص وممدود .

تقسيمه إلى منكر ومعرف وأنواع المعارف .

تقسيمه إلى جامد ومشتق .

أنواع المشتقات : اسم الفاعل . أسماء المبالغة . اسم المفعول . الصفة المشبهة . اسم التفضيل . اسم الزمان والمكان والآلة .

تقسيمه إلى متبوع وتابع .

أنواع التوابع .

تقسيمه إلى معرب ومبنى

أنواع الإعراب . المبنيات

(الضمير ـ اسم الإشارة ـ الاسم الموصول ـ اسم الاستفهام ـ

أسماء الظرف - أسماء الشرط - أسماء الأفعال) . المصغر- المنسوب

الفعل :

تقسيمه إلى ماض ومضارع وأمر .

تقسيمه إلى صحيح ومعتل . وإلى مجرد ومزيد .

تقسيمه إلى لازم ومتعد .

تقسيمه إلى مبنى للمعلوم ومبنى للمجهول .

تقسيمه إلى مبنى ومعرب .

جداول تصريف الفعل مع الضمائر .

تصريف المضارع مع نون التوكيد .

الحرف :

أنواع الحروف

(حروف الجر . حروف الجر الزائدة . حروف العطف . حرفا الاستفهام . حروف النفى . حروف النداء . حروف الشرط . حروف الجزم .حروف الجواب . حروف القسم . حروف التنبيه . حروف التخصيص .حروف المصدر . حرفا الاستقبال . حرفا التفسير. حرف التوقع . حرف الردع .

ثانيا : أحكام الجملة

تقسيم الجملة إلى اسمية وفعلية :

المبتدأ والخبر . إن وأخواتها ومعها لا النافية للجنس الفاعل . نائب الفاعل . المفعول به . المفعول المطلق . المفعول فيه . المفعول لأجله . المفعول معه . الاستثناء . الحال . التمييز . العدد المضاف . الأسماء العاملة عمل الفعل : المصادر والمشتقات وأسماء الأفعال . الحروف .النداء الممنوع من الصرف أو التنوين . المضارع المنصوب والمجزوم . الحذف والتقديم .

وواضح أن هذه الصورة المقترحة للنحو ليست ثورة على قواعده المأثورة التى وضعهاله عباقرته الأفذاذ ، وإنما هى محاولة جادة لتيسيره ، حتى يصبح أداةً تعليميةً مبسّطة للناشئة بحيث تستطيع أن تتمثّل قواعده وتسيغها دون إرهاق أو عناء شاق ، فقد حذف منه شطر كبير من أبوابه لما تَبَيّن من أنها تفريعات يمكن ، بل يحسن ، أن ، تدمج فى الأبواب الأساسية . وحذفت منه صعوبات كثيرة كانت تجعل تمثله عِسراً على الناشئة ، فقد حُذِف الإعرابان التقديرى والمحلى وحُذِف إعراب كل ما لا يعود من إعرابه فائدة على صحة النطق به . وضبطت أبوابه المضطربة بضوابط دقيقة تحيط

بصورها التعبيرية إحاطة تامة . واكْتُفِى من علم الصرف بما تدعو إليه الحاجة الحقيقية واعْتُنِى بأبواب لم تكن تحْظَى فى كتب النحو المؤلفة للناشئة بعناية كافيه .

تتمة تيسير النحو التعليمى

(١)

كثيرون يظنون أن فكرة تيسير النحو للناشئة فكرة حديثة نشأت منذ الثلاثينيات فى هذا القرن العشرين وهى فكرة قديمة منذ الجاحظ فى القرن الثالث الهجرى أى منذ أكثر من ألف عام ، إذ يقول فى رسالة مُوصياً معلم العربية للصبى الناشىء : " فأما النحو فلا تشغل قلب الصبى منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن ومن مقدار جهل العوام فى كتاب إن كتبه وشعر إن أنشده وشىء إن وصفه ، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به من رواية المثل والشاهد والخبر الصادق والتعبير البارع وإنما يرغب فى بلوغ غاية النحو ومجاوزة الاقتصاد فيه من لا يحتاج إلى تعرف جسيمات الأمور وتدبير المصالح للبلاد والعباد ، ومن ليس له حظ غيره ولا معاش سواه . وعويص النحو لا يجدى فى المعاملات ، ولا يضطر إليه شىء " .

فالناشىء – فى رأى الجاحظ - يكفيه من النحو معالمه الأساسية الكبرى التى تعصم لسانه من اللحن ، وحسبه أن يفقهها

فقهاً حسناً دون أن يتعمق فى أغوار النحو ودقائقه العويصة فإن ذلك إنما يحتاج إليه المتخصص فيه الذى وقف حياته على دراسته والتعرف على مشاكله ، وكلما قهر مشكلة وتغلب عليها نفذ إلى مشكلة أخرى محاولاً بكل جهده أن يذللها وأن يسيغها وأن يتقنها فهماً ودرساً وتحليلاً .

وهذه التفرقة بين نحو الناشئة ونحو المتخصصين ظلت ماثلة فى أذهان علماء النحو بعد الجاحظ وزمنه إذ نراهم يكتبون للمتخصصين فى العربية كتباً مطولة مفصلة ويكتبون للناشئة كتباً مختصرة موجزة مجملة . وكلنا نعرف كيف تلقف علماء النحو عن الزجاجى المتوفى سنة ٣٣٩ للهجرة كتابه "الجمل فى النحو" وهو مختصر لطيف فيه، ومضوا يدرسونه للناشئة فى بلدان العالم العربى . وكان يعاصره أبو جعفر النحاس المصرى، وكان يدرس بالفسطاط فى مصر للمتخصصين كتاب سيبويه الضخم ، وألف للناشئة مختصراً فى النحو سماه "كتاب التفاحة" لا يتجاوز ست عشرة صحيفة استطعت فى كتابى "المدارس النحوية" أن أستخلص منه مذهبه النحوى مع إيجازه واختصاره . ويطّرد هذا الصنيع عند كثيرين من علماء النحو فى الحقب التالية، فيؤلف ابن بابشاذ المصرى المتوفى سنة ٤٦٩ مختصراً فى النحو سماه "المقدمة". ويصنع صنيعه ابن برى العالم النحوى اللغوى

المصرى المتوفى سنة ٥٨٢ وطارت شهرته وقصده الطلاب من كل فَجٍّ وفى مقدمتهم عيسى الجزولى المغربى ، ويذيع مقدمته فى بلاده. ولعل مختصراً فى النحو لم يلق من الرواج والشهرة مالقيه مختصر" الأجرومية " لابن آجروم المتوفى سنة ٧٢٣ وهو لا يكاد يتجاوز عشرين صحيفة ، ولأبى حيان المتوفى سنة ٧٤٥ " اللمحة البدرية فى علم العربية" فى اثنتين وعشرين صحيفة .

ويؤلف ابن هشام المصرى المتوفى سنة ٧٦١ كتابه الضخم " مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب " للمتخصصين ألفه علَى غير مثال سابق ، وألف بجانبه كتباً مختلفة للناشئة منها : " قطر الندى وبَلُّ الصّدا " يروى به المبتدئين الظامئين لمعرفة العربية دون التعثر فى شباك النحو وعقابه الصعبة . وتكاثرت مختصرات النحو من أجل الناشئة بعد ابن هشام ، ومن أهمها "المقدمة الأزهرية فى علم العربية " للشيخ خالد الأزهرى المتوفى سنة ٩٠٥ للهجرة . وللشيخ عبد الوهاب الشعرانى المتوفى سنة ٩٧٣ مختصر فى النحو سماه " لباب الإعراب المانع من اللحن فى السُّنة والكتاب " وهو فى نحو أربعين صحيفة . وكل هذه المختصرات – وما يماثلها كثير – تعرض أبواب النحو الأساسية للناشئة فى إجمال كاف .

(٢)

ودار الزمن دورات ، حتى إذا كنا فى الثلاثينيات من هذا القرن العشرين تعالت أصوات تدعو إلى تيسير النحو على الناشئة وكان المجلِّى السابق إلى تلبيتها الأستاذ إبراهيم مصطفى فى كتابه المشهور " إحياء النحو " وقد رأى فيه أن تختزل أبواب النحو التى تتجاوز ثلاثين باباً فى ثلاثة أبواب كبيرة هى باب الضمة علم الإسناد وباب الكسرة علم الإضافة ، وباب الفتحة وذهب إلى أنها ليست علامة إعراب . وربما كان أهم ما وجه إلى هذه النظرية من نقد أنها تُضيع على الناشئة معرفة وظائف الكلمات فى العربية ، إذ تجمع المبتدأ والخبر واسم كان واسم كاد والفاعل ونائبه فى سلك واحد ، دون تفرقة ، كما تجمع المفعولات جميعها فى سلك واحد أيضاً دون تمييز بين مفعول ومفعول . وألفت فى وزارة المعارف (وزارة التربية والتعليم الآن) لجنة من كبار الأساتذة فى الأدب والنحو من القائمين على تعليم العربية فى الوزارة وفى جامعة القاهرة وفى دار العلوم لغرض وضع مقترحات لتيسير النحو وتبسيطه ، وكان من أهم ما اقترحته الاستغناء عن الإعرابين التقديرى والمحلى . وإلغاء العلامات الفرعية فى الإعراب وكذلك إلغاء ألقاب الإعراب ، وهى الرفع والنصب والجر والجزم ، والاكتفاء بألقاب البناء ، وهى الضم والفتح والكسر والسكون ، ورد

الجملة العربية إلى ركنين أساسين هما الموضوع والمحمول وقد يليهما تكملة وتشمل جميع المفعولات. واقترحت اللجنة حذف الإعلال والإبدال الصرفيين . وبذلك التقت هذه المقترحات مع نظرية الأستاذ إبراهيم مصطفى القائلة بإقامة صرح النحو على ثلاثة أبواب ، وقد سمتها اللجنة : الموضوع ، والمحمول ، والتكملة ويصدق عليها ما قلناه آنفا من أن هذا الاختزال الشديد لأبواب النحو من شأنه أن يُضيع على الناشئة المعرفة الدقيقة لوظائف الكلمات فى الصياغة العربية . وعرضت الوزارة مقترحات تلك اللجنة على مجمعنا اللغوى ، فخصها في الدورة الحادية عشرة بثمانى جلسات انتهت بإقرارها بعد إدخال تعديلات عليها ، أهمها أن يُعْدَلَ فى تسمية ركنى الجملة عن الموضوع والمحمول مصطلحى أصحاب المنطق إلى المسند إليه والمسند مصطلحى علماء البلاغة ، وأن يعدل عن ألقاب البناء وهى الضم والفتح والكسر والسكون إلى ألقاب الإعراب وهى الرفع والنصب والجر والجزم ، وأن يذكر مع التكملة بيان غرضها ، فيقال مثلاً فى نحو " رأيت زيداً " : زيدا مفعول به تكملة . وبذلك استدرك المجمع فى مصطلح التكملة ما يوضح وظيفتها وطُلب إلى الوزارة أن تؤلف كتب النحو للناشئة على أسس دراسته لمقترحات اللجنة المذكورة وما أدخل عليها من تعديلات ، وأُلِّفت كتب النحو التعليمى بعد عدة سنوات على تلك

الأسس ، وظلت الناشئة تتعلم هذا النحو الميسر سنوات ، ثم رئى الانصراف عنه .

وفى هذه الأثناء تصادف أنى اطلعت فى المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية على مخطوطة من كتاب الرد على النحاة لابن مضاء القرطبى قاضى قضاة دولة الموحدين فى الأندلس والمغرب المتوفى سنة ٥٩٢ ووجدته يدعو فى الكتاب إلى إلغاء نظرية العوامل فى النحو وكل ما ارتبط بها من علل وأقيسة وتقديرات وتأويلات فى الصيغ والعبارات . ولكى يؤيد ذلك ببراهين قاطعة درس فى تفصيل أبواب التنازع والاشتغال ونصب المضارع بعد فاء السببية وواو المعية بأن مضمرة وجوباً مبيناً أنها جميعاً أبواب افتراضية لا تؤيدها الحقائق اللغوية . واقترحت فى مدخله - على ضوء تحليلاته وآرائه - تصنيفاً جديداً للنحو يذلل صعابه وييسر قواعده، وضعته على ثلاثة أسس ، هى إعادة تنسيق أبواب النحو بحيث تدمج الأبواب الفرعية فى الأبواب الرئيسية كلما أمكن ذلك . وهو إدماج لايؤدى إلى حذف صيغ الأبواب الفرعية من النحو كما قد يتبادر ، إذ هو فقط يلغى عنوانات الأبواب ويبقى على صيغها فى الأبواب المتبقية التى تستوعبهافى وضوح. والأساس الثانى لهذا التصنيف المقترح الذى تصورته حينذاك هو إلغاء الإعراب

التقديرى والمحلى متابعاً فى ذلك مقترحات لجنة وزارة المعارف وقرارات مؤتمر المجمع سنة ١٩٤٥ . والأساس الثالث لهذا التصنيف هو أن لا تُشغل الناشئة بإعراب كلمة لا يفيدهم إعرابها فى صحة النطق بها أى فائدة ، إذ الإعراب ليس غاية فى ذاته إنما هو وسيلة لنطق الناشئة السليم للكلم فى العربية .

(٣)

وفى مؤتمر المجمع سنة ١٩٧٧ قدمت مشروعاً لتيسير النحو للناشئة أقمته على الأسس الثلاثة السابقة ، وأضفت إليها أساسا رابعا هو اقتراح ضوابط دقيقة لبعض أبواب النحو تجمع صور التعبير فيها جمعاً محكماً أو توضحها توضيحاً وافياً تاماً . وأحال المؤتمر المشروع على لجنة الأصول فى المجمع ، ودرسته دراسة علمية خصبة . وأقرت شطراً كبيراً من مقترحاته ، معدلة فى جوانب منها تعديلات سديدة ، واعتمد مؤتمر المجمع فى سنة ١٩٧٩ما انتهت إليه اللجنة من قرارات ، وأنا أعرض ذلك فى إجمال .

أما فيما يختص بإعادة تنسيق أبواب النحو ، بحيث تدمج بعض أبوابه الفرعية فى أبوابه الرئيسية فقد وافق المؤتمر على ما اقترحته لجنة الأصول من وضع بابى " ظن " و " أعلم " فى باب الفعل المتعدى على أن يكون ذلك خاصاً بكتب الناشئة . وأن يكتفى

فى باب التنازع بالصور التى توارد بها الاستعمال فى الفصحى فى مثل : " دخل وجلس محمد " و " محمد يحسن ويتقن عمله " و " ناقشنى وناقشت محمدا " ووافق المؤتمر على ما رأته اللجنة من جواز رفع الاسم المشغول عنه ونصبه ولا داعى لذكر حالات الوجوب أوالترجيح وتُرَدُّ الأمثلة الواردة فى مذكرتى إلى أبوابها من كتب النحو ، كما كنت اقترحت . ورأت اللجنة أن الصيغ النحوية التى تعرب تمييزاً وتتفرق فى أبواب كثيرة يمكن جمعها فى باب واحد تيسيرا على الناشئة ، وكنت قد حصرتها فى الصيغ التالية بعد أسماء المقادير وبعد الصفة المشبهة وبعد الفعل اللازم وبعد فعل التعجب وبعد نعم وأخواتها وبعد اسم التفضيل وبعد العدد وبعد كم الاستفهامية وبعد صيغ محفوظة ، وسلكت معها صيغة الاختصاص فى مثل : " نحن العرب كرام " ووافقت اللجنة على أنه لامانع من إدخال باب التحذير والإغراء فى باب المفعول به ، وإدخال بابى الاستغاثة والندبة فى باب النداء مع تعيين دلالة كل صيغة منهما عند عرض أمثلتها ، ووافقت على حذف باب الترخيم من كتب النحو المدرسية . وواضح أن كتب النحو التعليمى بذلك لا تزال تحافظ على أبواب النحو الأساسية ، إذ لا يزال فيها المبتدأ والخبر ، والنواسخ ما عدا بابى " ظن " و " أعلم " ، ولا يزال الفاعل ونائبه وجميع المفعولات : المفعول به ، والمفعول المطلق ، والمفعول فيه ، والمفعول لأجله ، والمفعول معه ، والاستثناء والحال ، والتمييز ،

والتـوابـع : الـنعت ، والـعطف ، والتـوكـيـد ، والبـدل ، والمضـاف والمضـاف إليـه ، وحـروف الجـر زائدة وغـيـر زائدة ، والمجـرورات .
وكنـت قـد اقـتـرحت حـذف باب كان وأخواتـها اعـتـمـاداً على إعـراب الكوفـيين لصيـغـها ، إذ يعربونـها أفـعـالاً لازمـة ومـا بـعدها فـواعل مرفـوعـة وأحوالاً منصوبـة . وردت لجنـة الأصول هذا الاقـتـراح ، كما ردت لى اقتـراحاً ثـانيـاً يحذف باب كاد وأخواتها اعـتماداً على إعراب سيبويه لها ؛ إذ قال إن معنى أفعال المقاربة والرجاء قارب أو قرب، وأعرب الاسم المرفوع بعدها فى مثل " كاد زيد أن يقوم" فاعلا و" أن يقوم " مصدر مؤول بمعنى القيام ، وإذا جعلنا كاد بمعنى قارب كان مـفـعـولاً بـه لهـا ، وإذا جـعلناها بمعنى قـرب كـان المصـدر المؤول مـجروراً بمن مـقدرة أى قـرب زيد من القـيـام . على كل حال لم تـوافق لجنـة الأصـول على هذا الاقـتـراح ومـا تـضـمنـه من إعـراب سـيـبـويـه لصيغة كاد وأخواتها.

وفـيـمـا يـخـتـص بإلـغـاء الإعـرابـين الـتـقديرى والمحلى كانت لجنة وزارة المعارف قد اقـتـرحت إلغاءهـمـا فـلا داعى لأن يـقـال فـى مـثـل : "جاء الفتـى ": الفتـى فـاعل مـرفـوع بضـمـة مـقـدرة منـع من ظـهـورهـا التـعذر ، بل يكفـى أن يقـال " الفتـى " فـاعل فـحسب ، وبالمثل لا داعى لأن يقـال فـى مـثـل : " هـذا زيـد " : هـذا مـبـتـدأ مـبـنـى على السكون فـى مـحـل رفـع بل يكفـى أن يقـال : " هـذا " مـبـتـدأ فـحـسـب . ووافـق مـؤتمر

المجمع فى سنة ١٩٤٥ على هذا الاقتراح . وأعادت لجنة الأصول النظر فى هذا الموضوع ، ورأت ورأى معها مؤتمر المجمع لسنة ١٩٧٩ : " أن ما انتهى إليه اتحاد المجامع العربية من الإبقاء على الإعرابين التقديرى والمحلى دون تعليل (أى دون تكليف التلاميذ تعليل خفاء الإعراب) فيه تيسير فى تعليم النحو العربى ، ففى نحو " جاء القاضى " يقال : " القاضى " مرفوع بضمة مقدرة ، وفى نحو : " جاء من سافرَ " يقال : " مَن " فاعل محله الرفع ، وفى نحو " محمد يحضر " يقال : " يحضر " جملة فعلية خبر . وأرى تيسيراً على الناشئة أن تعميم الإعراب المحلى فى مواضع الإعراب التقديرى ببيان أن الكلمة مقصورة ومنقوصة ومبنية محلها جميعاً الرفع أو النصب أو الجر . وأخذت اللجنة – ووافقها مؤتمر المجمع – برأى ابن مضاء القائل بأن لا يقدر للظرف والجار والمجرور متعلق عام، ورأت على ضوء بحثه في نصب المضارع بعد فاء السببية وواو المعية أن يقال فى إعراب الفعل المضارع المنصوب بأن المضمرة بأنه منصوب بعد الأدوات الظاهرة . وكانت لجنة وزارة المعارف قد رأت أن يكون لكل حركة لقب واحد فى الإعراب والبناء، واكتفت بألقاب البناء ، وخالفها مؤتمر المجمع لسنة ١٩٤٥ فقرر الاكتفاء بألقاب الإعراب ، وأخذت لجنة الأصول ومؤتمر المجمع لسنة ١٩٧٩ بقراره . وكانت لجنة وزارة المعارف قد اقترحت إلغاء العلامات الفرعية فى الإعراب ، ووضعت لها صيغة بها بعض الصعوبة ، فألغى مؤتمر المجمع لسنة

١٩٤٥ هذه الصيغة مع إبقائه على الاقتراح الأساسى ، وهو إلغاء العلامات الفرعية فى الإعراب ، فلا الفتحة نائبة عن الكسرة فى الممنوع من الصرف ولا الكسرة نائبة عن الفتحة فى جمع المؤنث السالم ولا الواو فى الأسماء الخمسة وجمع المذكر السالم ولا الألف فى المثنى نائبتان عن الضمة ورأت لجنة الأصول - ووافقها مؤتمر المجمع لسنة ١٩٧٩ -" توحيد أسماء علامات الإعراب الأصلية والفرعية بتسميتها علامات إعراب " .

واعتمدت لجنة الأصول الأساس القائل بأن يحذف - من كتب النحو التعليمى - إعراب أى كلمة لا يفيد إعرابها أى فائدة فى صحة نطقها وسلامته على نحو ما يتضح فى بعض أدوات الاستثناء وأدوات الشرط الاسمية وكم الاستفهامية والخبرية ولاسيما . أما الاستثناء فقد انتهت اللجنة فيه إلى القرار الآتى : أولاً : المستثنى التام الموجب وغير الموجب يجوز نصبه . ثانياً : فى حالة الاستثناء بخلا وعدا وحاشا يكون المستثنى منصوباً دائماً على اعتبار أن خلا وأختيها أدوات استثناء مثل " إلا " . ثالثاً : إذا كانت أداة الاستثناء غير وسوى كانت الأداة منصوبة ومضافة وما بعدها مضاف إليه مثل : " ما جاء أحد غير على " . أما نحو" ما قام إلا محمد " و " ما قام غير زيد " فهو قصر لا استثناء ، وكنت قد اقترحت فى مذكرتى عن باب الاستثناء إخراج غير وسوى من أدواته اعتماداً

على رأى أبى على الفارسى ، إذ ذهب إلى أنه حين تنصب غير فى مثل : " ما جاء أحد غير زيد " تكون حالا ، ويرجح رأيه أنها تأتى مرة منصوبة على الحالية ، ومرة نعتا فى مثل : (صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم) . وقد تأتى مبتدأ أو فاعلا فى مثل : " غير زيد جاء - ما جاء غير زيد " ومثلها فى إعرابها "سوى".

ورأت لجنة الأصول - كما اقترحت - أنه لا ضرورة لأن تكلف الناشئة إعراب أسماء الشرط ، وقالت : " يكتفى فى هذا الباب بذكر ما يجزم من أدوات الشرط الاسمية وما لا يجزم وبذكر أن هذه الأدوات تقتضى جملتين : جملة الشرط وجملة الجواب ، ويجزم فعل الشرط وفعل الجواب إذا كانا مضارعين . ومعروف أن " كم الاستفهامية " تعرب مبتدأ فى مثل : " كم كتابا على المكتب " ومفعولا به فى مثل :" كم كتابا قرأت" ومفعولاً مطلقاً فى مثل : " كم رأيا رأيت " ومفعولا فيه فى مثل : " كم يوما صمت" . وكم الاستفهامية فى كل هذه الإعرابات لا يفيد إعرابها شيئا فى صحة النطق بها ، ومثلها " كم الخبرية " فى التعبيرات المماثلة. وقد رأت اللجنة الاكتفاء فى باب كم بأنها إذا كانت استفهامية ميزت بمفرد منصوب مثل : " كم علماً درست؟ وإذا سبقت بحرف جر أضيف التمييز إليها مثل : " بكم قرش تصدقت . وإذا كانت خبرية

(للكثرة) جر تمييزها بالإضافة مفرداً أو جمعاً مثل : كم بطل استشهد فى المعركة -كم أبطال استشهدوا فى المعركة ، وقد سُبق تمييزها بحرف جر مثل قوله تعالى : " كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله " . وانتهت اللجنة فى صيغة " لاسيما " إلى القرار الآتى : " لا سيما أداة للمخالفة فى الحكم بترجيح ما بعدها على ما قبلها فى المعنى ، وإذا كان ما بعدها اسماً مفرداً جاز رفعه ونصبه وجره ، مثل : " يعجبنى الزهر لاسيما الورد " .

وفيما يتعلق ببعض الأبواب وما ينبغى أن يوضع لها من ضوابط أكثر سدادا وافقت اللجنة على وضع ضوابط جديدة أكثر دقة لأبواب المفعول المطلق والمفعول معه والحال ، أما المفعول المطلق فعرفه النحاة بأنه اسم يؤكد عامله أو يبين نوعه أو صفته وهو ضابط يقصر عن الإحاطة بجميع صيغ المفعول المطلق فقد يكون صفة لمصدر مثل : " قرأ كثيراً " أو اسم إشارة سابقاً لمصدر مثل " علمه ذلك العلم " أو ضميراً عائدا على مصدر مثل : " أتقن عمله إتقانا لم يتقنه أحد من زملائه " . لذلك ومثله وافقتنى اللجنة على وضع ضابط جديد للمفعول المطلق ، هو أنه : "اسم منصوب يؤكد عامله أو يصفه أو يدل عليه نوعا من الدلالة" . ووضع النحاة للمفعول معه ضابطاً مبهماً هو أنه : اسم فضلة تال لواو بمعنى مع تالية لجملة ذات فعل أو اسم فيه معناه وحروفه وخلطوا بين واو

-المفعول معه التى تفيد معنى الظرفيه الزمانية أو المكانية وبين واو العطف ، ولذلك أقحموا عليه أربع صيغ أو صور كان ينبغى أن يُنَحّوْها عنه وهى وجوب العطف فى مثل : "اشترك زيد وعمرو " ورجحانه فى مثل "جاء زيد وعمرو " وامتناع أن تكون الواو عاطفة أو للمعية فى مثل : " أكلت طعاما وماء " أى وشربت ماء ، ورجحان أن تكون الواو للمعية فى مثل : " قمت وزيدا " وهى صيغة رفضها النحاة فى باب العطف . والحق أن الصيغ الأربع ليست من باب المفعول معه وأخيرا نصل إلى صيغته الحقيقية ، وهى التى تكون فيها الواو للمعية حاملة شيئا من معنى الظرفية ، مثل : " سرت وحديقة الحيوان " و" استيقظت وطلوع الشمس " إذ ما بعد الواو لا يمكن عطفه على ما قبلها لذلك كله وافقتنى اللجنة على وضع ضابط جديد للمفعول معه هو أنه : " اسم منصوب تال لواو بمعنى مع ، لا يشترك مع ما قبل الواو فى معنى العامل ". وبسبب عدم الدقة فى ضابط الحال يغمض الفرق على الناشئة بينه وبين النعت إذ قالوا أنه " وصف فضلة مذكور لبيان الهيئة " ولم يضيفوا فى الضابط ما يدل على أنه صفة مقيدة بزمن معين ، بخلاف النعت فهو صفة مستمرة ، لذلك وافقتنى اللجنة على ضابط جديد له ، هو أنه " وصف مؤقت نكرة منصوب لبيان هيئة صاحبه " .

(٤)

هذه - فى إجمال - قرارات لجنة الأصول فى المجمع ومؤتمره بناء على مذكرة لى قدمتها سنة ١٩٧٩ فى تيسير النحو للناشئة ، وقد عدت مراراً أفكر فى هذا التيسير ونواقصه ، ولاحظت أنه ينقصه أساسان : خامس وسادس حتى نبلغ غاية ما نبغى من تذليل النحو التعليمى وتبسيطه تبسيطاً يُصَفِّيه من كل الشوائب وفى الوقت نفسه يبين فى وضوح خصائص الصياغة العربية بإضافة أبواب وفروع جديدة فى بعض الأبواب . أما الأساس الخامس فهو حذف كل الزوائد التى من شأنها أن تعوق قليلا أو كثيراً إساغة الناشئة للنحو . وأول ما أذكره من ذلك ما يصادفهم فى بعض الأبواب من شروط يمكن الاستغناء عنها بعرض صيغ كثيرة للباب تتيح لهم أن يتمثلوها ويقيسوا عليها دون حاجة إلى استظهار شروط يحفظونها ، من ذلك شروط صوغ اسم التفضيل وفعل التعجب وشروط صاحب الحال وشروط إذن وحتى الناصبتين للمضارع. ومن ذلك شرط دلالة اسم الفاعل العامل على الحاضر والمستقبل ، فإن دل على الماضى لم يعمل ، وهو شرط منقوض بآية سورة الكهف : " وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد" .

ومما ينبغى التخفف منه فى القواعد المتراكمة فى بعض الأبواب ، الاكتفاء بعرض صيغ وأمثلة كثيرة فى الباب ، وأضرب

لذلك مثلا : باب التصغير وكثرة قواعده وأمثلته التى لا نستعملها اليوم مثل تصغير شاة على شُوَيْهة وسنة على سُنَيَّة أو سُنَيْهة وريح على رُوَيحة ومطمئن على طُمَيئِن وعطاء على عُطيّ ومعاوية على مُعَيَّة أو مُعَيْوِيَة وقدام على قُدَيديمة وحتى فعل التعجب يصغر فيقال : " ما أُحَيْسِن القصيدة " ويصغر اسم الإشارة : هؤلاء فيقال "هاؤلياً " وكل ذلك وما يماثله ينبغى أن يحذف من باب التصغير فى كتب النحو التعليمى ، وتذكر فيه فقط صيغه المستخدمة الدائرة على الألسنة وفى الكتب الأدبية مثل تصغير فتى على فُتَىّ وابن على بُنَىٌّ ، وابنة وبنت على بُنَيَّة ، وعين على عُيينْة، وإذن على أذيْنة وحسن على حسين وخلف على خليف ، ودار على دُوَيْرة ، ونار على نُوَيْرة ، وزهرة على زهيرة وشاعر على شُوَيْعر وعبد على عُبَيْد فى عبيد الله وما إلى ذلك .

ومما ينبغى حذفه - فى رأيى - من كتب النحو التعليمى الصيغ النادرة أو الشاذة غير المستعملة ، فمثلا تابع اسم "لا" النافية للجنس ، يقول فيه النحاة : إنه يجوز فيه الرفع والنصب ، وإذا كان نعتا جاز فيه البناء على الفتح ، فلك أن تقول : " لا طالب يمنياً فى الفصل " أو " لا طالب يمنىٌّ فى الفصل " وينبغى الاكتفاء بالنصب فى النعت وبقية التوابع أخذا بالمتبادر الظاهر. وينبغى حذف إعراب اللغز المعروف الذى لا يزال يتردد فى

كتب النحو التعليمى ، وأقصد لغز " لا حول ولا قوة إلا بالله " إذ يجيز النحاة فى إعرابها خمسة أوجه : وجهين فى اسم " لا " الأولى وهما ؛ البناء على الفتح باعتبارها نافية للجنس ، والرفع باعتبارها عاملة عمل " ليس " أو مهملة ، وفى الوجه الأول وهو البناء على الفتح يجوز فى اسم " لا " الثانية البناء على الفتح باعتبارها نافية للجنس ، والنصب عطفا على اسم " لا " الأولى المبنى على الفتح ، والرفع باعتبار " لا " الثانية مهملة ملغاة عطفا على محل " لا " الأولى مع اسمها لأن محلهما محل رفع ، فنقول : "لا حولَ ولا قوة إلا بالله " و " لا حول ولا قوةً إلا بالله" و " لا حولَ ولا قوةٌ إلا بالله " . وفى الوجه الثانى وهو رفع اسم " لا " الأولى يجوز فى اسم " لا " الثانية البناء علي الفتح باعتبار لا نافية للجنس ، ويجوز فيه الرفع عطفا على اسم " لا " الأولى المرفوع ، باعتبار " لا" الثانية مهملة ملغاة . وبذلك يعرب لغز : " لا حول ولا قوة إلا بالله " على خمسة أوجه من صور الإعراب وإذا عرفنا أن اسمى " لا " الأولى والثانية فى الصيغة مبنيان على الفتح فى لغتنا اليومية فضلا عن لغتنا الأدبية عرفنا أنه لا حاجة للناشئة إلى أوجه الإعراب الأربعة المغايرة وأنه ينبغى حذف هذا اللغز من كتب النحو التعليمى .

وفى رأيى أنه ينبغى الاكتفاء فى تلك الكتب بحالة الجر فى نعت المضاف إلى المصدر مثل كلمة " الجيد " فى قولنا : " قراءة الكتاب الجيد مفيدة " ولا داعى بتاتا لعرض جواز النصب فى كلمة الجيد على الناشئة فيقال : " قراءة الكتابِ الجيدَ مفيدة " باعتبار أن المنعوت وهو كلمة " الكتاب " فى المثال مفعول به فى المعنى لكلمة " قراءة " لأن فى ذلك مخالفة واضحة لظاهرة اللفظ المنعوت ، إذ هو مجرور فعلا فينبغى أن يكون نعته مجرورا دون نظر إلى أنه مفعول به فى المعنى . ومثل ذلك تماما نعت المفعول به المضاف إلى اسم الفاعل فى مثل : " زيد كاتب المقالة الأدبية " إذ ينبغى أن يكتفى فى إعراب كلمة الأدبية بالجر مراعاة للفظ المنعوت ولا داعى مطلقاً لعرض جواز النصب على الناشئة لكلمة " الأدبية " مراعاة لمعنى المنعوت وأنه مفعول به فى المعنى، فإن فى ذلك مغايرة بَيِّنة لظاهر اللفظ المنعوت . ومثل ذلك اسم المفعول حين يضاف إلى نائب الفاعل فإنه ينبغى الاكتفاء فى الحكم الإعرابى لنعته فى مثل " زيدٌ محمود العمل الطيب " بالجر مراعاة للفظ المنعوت، ولا داعى أبداً لعرض جواز الرفع على الناشئة لكلمة " الطيب " مراعاة لمعنى المنعوت ، وأنه نائب فاعل فى المعنى ، إذ فى ذلك مباينة واضحة لظاهر اللفظ المنعوت . وكلنا نعرف التعقيد الشديد فى الحكم الإعرابى لتابع المنادى وأنه إذا كان المنادى مفردا : نعتاً أو توكيداً جاز فيه الضم مراعاة للفظ وجاز النصب مراعاة للمحل فنقول " يا

على الشاعر " ضما ونصبا و " يا على نفسه "ضماً ونصباً و إذا كان بدلاً أو معطوفاً لم يجز فيه إلا الضم مثل : " يا أبا حسن على " و "يا زيد وعمرو " . وإذا كان التابع غير مفرد نصب إلا إذا كان اسماً مشتقاً مثل " يا حسن أخا حسين " أما مثل : " يا محمد الحسن الخلق" فيجوز فيه الرفع والنصب . وإذا كان المنادى غير مفرد نصب تابعه مثل " يا أبا حسن الظريف " . وكل هذه الأمثلة من افتراضات النحاة وحقا جاء فى الذكر الحكيم ؛ (يا جبال أوبى معه والطيرُ) وقد قرئت بنصب الطير ورفعها . وأرى حذف هذا الباب من كتب النحو التعليمى ، لأنه لغز معقد عسر شديد العسر أما المثال القرآنى فيعرض على الناشئة وحده وحسبهم معرفته .

ومما ينبغى حذفه من كتب النحو التعليمى عمل المصدر منكراً أو معرّفا بالألف واللام فى مثل : " قراءةُ النحوَ نافعة – زيد مجيد القراءة النحوَ " فالنحو فى المثال الأول مفعول به لقراءة وهى نكرة ، وأيضا النحو فى المثال الثانى مفعول به للقراءة وهى معرفة . والصيغتان شاذتان ولا تدوران فى الكتابة الأدبية فضلا عن الألسنة ، إنما الذى يدور إضافة المصدر للمفعول به فى الصيغة الأولى ، فيقال : " قراءة النحوِ نافعة " ودخول لام الجر على المفعول به فى المثال الثانى فيقال : " زيد مجيد القراءة للنحو " وصيغة ثالثة للمصدر لا تقل شذوذا عن الصيغتين السابقتين ، ولذلك

ينبغى حذفها من كتب النحو التعليمى هى الأخرى ، وهى إضافة المصدر إلى مفعول وتأخر فاعله فيقال : " قراءة النصِّ زيدٌ حسنةٌ " ويكفى أن تعرض هذه الكتب الصيغة الطبيعية المقابلة ، وهى صيغة المصدر المضاف إلى فاعله الذى يتلوه مفعوله إذ يقال : "قراءة زيدٍ النصَّ حسنة ".

ومن الصيغ التى ينبغى حذفها - فى رأيى - من كتاب النحو التعليمى صيغة عمل اسم الفاعل إذا كان مبتدأ الرفعَ والنصْبَ فيما يتلوه بشرط أن يعتمد على استفهام أو نفى ويوجب النحاة حينئذ إفراده مع فاعله الظاهر مثل : " أحاضر أصدقاؤك - ما منشد الشعراء قصائدهم " ويعربون " أصدقاؤك " فى المثال الأول و" الشعراء " فى المثال الثانى فاعلين سدا مسد الخبر للمبتدأ قبلهما- وبالمثل يشترط النحاة لعمل اسم المفعول فى نائب الفاعل حين يكون مبتدأ نفس الشرط مع الاستفهام والنفى مثل : " أمحمود أصدقاؤك - ما محمود أصدقاؤك " ويعربون " أصدقاؤك." فى المثالين نائب فاعل سد مسد الخبر للمبتدأ قبله . وفى ذلك خلل واضح لقاعدة المبتدأ والخبر ، إذ يكون لدينا نوعان من المبتدأ نوع له خبر ، وهو النوع المتداول الشائع فى أساليب العربية وجملتها الاسمية ، ونوع له مرفوع يغنى عن الخبر ، وتختل تبعاً لذلك قاعدة المطابقة بين المبتدأ وتتمة جملته إفرادا وتثنية وجمعا . وكل ما

جاء به النحاة من شواهد على هذا الخلل الكبير فى باب المبتدأ والخبر بيت مجهول القائل تلا فيه المبتدأ وهو اسم فاعل - فاعل مرفوع ، وبيت ثان لأبى نواس تلا فيه اسم المفعول وهو مبتدأ - نائب فاعل . وفاتهم أن أبا نواس لا يحتج بشعره فى وضع القواعد النحوية لتأخره زمنيا عن عصر الاستشهاد على أن ابن جنى وجه إعراب بيته توجيها يسقط الشاهد فيه من أيدى المحتجين به . وإذن لا يبقى فى أيديهم سوى بيت مجهول القائل ، وخطأ واضح أن ننقض ببيت مجهول القائل قواعد باب المبتدأ والخبر بل الواجب إهماله وإهمال ما رتب عليه النحاة من صيغ هى من افتراضاتهم .

ولا أرتاب فى أنه حين تحذف من كتب النحو التعليمى كل هذه الزوائد التى ذكرتها والتى تتحول جوانب منها أحيانا إلى ما يشبه الألغاز يصبح تعليم النحو أكثر يسراً ، إذ لا يداخله شيء يفضل عن المقدار المطلوب للناشئة . ويقينا ستظل هذه الزوائد مفصلة فى كتب النحو الكبرى ، وسيظل المتخصصون فى دراسته يعنون بها ويفرغون لها ، كما لاحظ ذلك الجاحظ قديما ، أما الناشئة فحسبهم أن يعرفوا - دون عوائق - ما يقيمون به ألسنتهم ويعصمهم من الخطأ والزلل فى العربية.

(٥)

وبجانب هذا الأساس الخامس الذى يقوم على حذف الزوائد والفضول من كتاب النحو التعليمى أساس سادس مناقض له يقوم على إدخال إضافات متنوعة فى هذا الكتاب ، منها إدخال طائفة فيه من القواعد التى تتصل بنطق الكلم فى العربية وسداده ، وهى قواعد هدى أسلافنا إليها من قديم محاولتهم الجادة أن يحسنوا قراءة القرآن الكريم وترتيله، مما جعلهم يضعون لذلك علماً مستقلاً هو علم التجويد ، وفيه تدرس بدقة مخارج الحروف وصفاتها وحركاتها والتشديد والتنوين وحروف اللين والمد وهمزتا القطع والوصل ومواضعهما فى الكلم وأل الشمسية والقمرية والإدغام للحروف بعضها فى بعض كإدغام الدال فى التاء فى مثل : " عبدت . ولم يكن أسلافنا من النحاة يسجلون قواعد ذلك كله فى أوائل كتبهم النحوية لأن الناشئة كانت تبدأ حياتها التعليمية بحفظ القرآن الكريم ، وتتعلم هذه القواعد فى أثناء استظهاره ، لذلك استغنى النحاة عن تدوينها فى أوائل كتبهم النحوية ، أما الآن وقد أصبحت الناشئة لا تبدأ تعلمها بحفظ الذكر الحكيم أو على الأقل بحفظ أجزاء كثيرة منه ، وبالتالى أصبحت لا تعرف النطق السليم للكلم فى العربية وحروفها وحركاتها وصفاتها ، حتى لنجد كثيرين من الناشئة يمضغون الكلام وحروفه مضغا بحيث لا نكاد نتبين ما

ينطقون به فإن من الواجب أن نقتبس لهم من علم التجويد في كتاب النحو التعليمي ما يقيمون به نطقهم السويّ السديد للعربية.

وقد عُنينا بالحديث كثيراً عن تيسير النحو ، وكدنا ننسى علم التصريف الخاص ببنية الكلمة ، وينبغي أن تتسع العناية به في كتاب " النحو التعليمي " فتفتح فيه فصول طويلة عن أبنية الفعل وتقسيماته الكثيرة إلى ماض ومضارع وأمر وإلى صحيح ومعتل وإلى مجرد ومزيد وإلى متصرف وجامد وإلى معرب ومبني ، وفصول ثانية طويلة عن أبنية الاسم وتقسيماته الكثيرة إلى صحيح ومعتل ونكرة ومعرفة ومذكر ومؤنث ومفرد ومثنى وجمع واسم ذات واسم معنى وجامد ومشتق مع عرض المشتقات ومعرب ومبني مع عرض المبنيات. ويضاف إلى هذه الفصول فصل طويل عن أنواع الحروف . وينبغي أن يلحق بعرض أبنية الكلمة المفردة بابان : باب المضاف والمضاف إليه ، وباب المتبوع والتابع نعتا وتوكيدا وعطفا وبدلا ليستقر في أذهان الناشئة أن هذين البابين يدخلان في أبواب الكلمة المفردة .

وأرى من الضروري أن تضاف مع باب نطق الكلمة إلى كتب النحو التعليمي أبواب جديدة ، منها باب تقسيم الجملة إلى اسمية

وفعلية وبيان ما بين الجملتين من فروق لتتضح للناشئة جملة المبتدأ والخبر من جهة وجملة الفعل وفاعله ومفعولاته من جهة ثانية، ومن تلك الأبواب باب واسع لعرضه إعمال المصدر والمشتقات عرضاً واسعاً مفصلاً ، وباب لعرض حروف الزيادة جارةً وغير جارةً ، وباب لعرض الحذف والذكر فى عناصر الجملة العربية مبتدأ وخبراً وفعلاً وفاعلاً ومفعولاً وتمييزاً ومضافاً إليه وحروفاً ، وباب لعرض صور التقديم والتأخير فى أجزاء الجملة بين المبتدأ والخبر وبين الفعل والفاعل والمفعول وبين اسم إن وخبرها وبين الحال وكان وأخواتها وبين التمييز وفعله ، وباب لأنواع الجمل على على أن تقسم إلى مستقلة كالجملة الاستئنافية والحوارية وغير مستقلة كجملة الخبر والمفعول والنعت والعطف .

وبجانب هذه الأبواب السبعة التى أرى إضافتها إلى كتب النحو التعليمى ينبغى أن تضاف فروع كثيرة حتى تحيط الناشئة بخصائص الكلم وتصاريفها ومقومات الجمل وصور صياغاتها ، من ذلك أن يضاف فى أبنية الفعل جداول مفصلة لتصريفه بجميع صوره مع ضمائر الرفع المتصلة وجداول أخرى لتصريف المضارع والأمر مع نون التوكيد ومن ذلك أن تضاف فى باب تذكير الأسماء وتأنيثها الدلالات المختلفة لتاء التأنيث اللفظى . ويضاف مع المثنى وجمع المذكر السالم فرق ما بين نونهما ونون الأفعال الخمسة وبيان

أن نونهما بدل من التنوين فى المفرد، ولذلك تحذف فى حالة الإضافة بينما نون الأفعال الخمسة علامة رفعها ، ولذلك تحذف حين تنصب أو تجزم . ويضاف مع جمع التكسير اسم الجمع فى مثل أمة وقوم واسم الجنس الجمعى فى مثل شجرة وشجر وتركى وترك ، مع بيان الفرق بينهما وبين جمع التكسير . والمصدر بدوره يذكر معه المصدر الصناعى فى مثل حرية وإنسانية مع بيان اشتقاقه . ويذكر مع اسم الفاعل أن آخره يحذف من الفعل المقصور والمنقوص وهو الياء ويخلفها تنوين إلا إذا دخلت عليه أداة التعريف فإن ياءه لا تحذف مثل : " ناه – قاض – الناهى – القاضى " . ويذكر أن هناك فواعل تأتى فى اللغة مجرورة لفظاً مرفوعة محلاً ومفعولات تأتى مجرورة لفظاً منصوبة محلاً . وتذكر بعض الأفعال المستعملة فى الألسنة بصيغة المبنى للمجهول . وتذكر فى باب الممنوع من الصرف صيغة أُخَر جمع أخرى وصيغ أُحَاد إلى عُشار لمجيئها فى الذكر الحكيم في قوله عزّ شأنه : (مَثْنى وثُلاث ورُباع) . ومن الفروع المهمة المتصلة بالجمل والتى ينبغى أن تضاف إلى كتب النحو التعليمى صيغة جمع مالا يعقل فى الكون والطبيعة والأشياء وبيان أنها تعامل مع الخبر والنعت والفعل معاملة المفردة المؤنثة فيقال : " الأشجار مزهرة – إنها أشجار مزهرة وقد تمتعنا بمنظرها – الأشجار أزهرت وفاح شذاها " . ومن الفروع المهمة التى ينبغى إضافتها إلى كتب النحو التعليمى أن الفعل يجوز تذكيره

وتأنيثه حين يكون فاعله جمع تكسير لذكور أو لإناث ، فيقال : "جاء الطلاب - جاءت الطلاب " . ويقال : " جاء الفواطم - جاءت الفواطم ".

تلك هي الأسس التي ترسم - في رأيي - العدة والعتاد لكتب النحو التعليمي بحيث ينبغي أن تنسق أبواب النحو فيها تنسيقاً جديداً سديداً تحذف فيه بعض الأبواب الفرعية وتضم صيغها إلى الأبواب الأساسية ، وينبغي أن يوحد الإعراب التقديري والمحلي في صيغة واحدة . كما ينبغي أن تلغي علامات الإعراب الفرعية والمتعلق العام للظرف والجار والمجرور ، وينبغي أن تكون الغاية من الإعراب دائماً صحة النطق، فلا تعرب كلمة لا يفيد إعرابها فائدة في ضبط اللفظ بها وسلامته . وينبغي أن توضع ضوابط دقيقة مستحدثة للأبواب المبهمة وينبغي أن يقتصد في الشروط والقواعد التي تقحم على بعض الأبواب ، بل ينبغي أن تلغي إلغاء ، ما دام من الممكن أن تغني عنها كثرة الأمثلة في التعلُّم والدُّرْبة . وينبغي أن تحذف كل الصيغ الشاذة المعقدة التي تملأ قنوات النحو بأعشاب كثيرة . وليس ذلك فحسب ، إذ ينبغي أن تضاف إلى كتب النحو التعليمي طائفة من قواعد علم التجويد حتى تحسن الناشئة نطق العربية والتلفظ بحروفها وحركاتها وكلماتها تلفظاً صحيحاً . وينبغي أيضاً أن تضاف طائفة من الأبواب والفروع المهمة تمكن

الناشئة من التعرف على كثير من دقائق العربية ، وواضح أن ذلك كله يقتضى أن يعرض النحو التعليمى فى أبوابه وفصوله وفروعه عرضاً جديداً ، يعين الناشئة حقا على تمثل مقومات الصياغة العربية وأوضاعها فى الكلم والجمل تمثلا سليماً قويماً .

لغة المسرح بين العامية والفصحى

كثيرون يظننون أنه لم يكن لمصر عهد بالمسرح و تمثيلياته قبل محاكاتها للمسرح الأوربى في النصف الثانى من القرن الماضى ، وهو ظن مخطئ ، إذ كان لديها من قديم مسرح خيال الظل ، وهو مسرح دمىً متَحركُة متكلمة . وعرف العرب هذا المسرح فى مطالع القرن الثالث الهجرى إذ نجد فنًّانا خَيَاليًّا يتوعد الشاعر الهَجَّاء دعبلا إن هو هجا أباه أن يتخذ أمه فى الخيال سخرية يُضْحك عليها الناس. وشاع الخيال فى العالم العربى ، وعُنيت به مصر زمن الدولة الفاطمية ، إذ كانت تكثر من الاحتفالات فى الأعياد الإسلامية ، و المسيحية والمصرية القديمة ، ويقول المقرّيزى : " كان الناس يطوفون فى تلك الأعياد بالخيال والتماثيل و السماجات". والتماثيل هى دُمَى خيال الظل وأشباحه، والسماجات : شخوص كانوا يتراءون فى صور منكرة مضحكة. ويقال إن صلاح الدين الأيوبى الذى كان فى شُغُل دائماً بحرب الصليبيين اختلس من أيامه التى كان يقضيها فى القاهرة بعض الوقت ليشاهد مسرح خيال الظل ، وأعجب بما رآه عليه من تمثيل ودُمىً متحاورة . ويَرْقى ابن دانيال أكبرُ الخياليين فى عصر

المماليك بتمثيليات خيال الظل رقياً بعيداً إذ ألَّف له - كما ذكرنا في كتابنا : الفكاهة في مصر " - ثلاث تمثيليات بديعة ، أولاها وأهمها تمثيلية" طيف الخيال"وهي.ملهاة هزلية تصورجوانب من الحياة الاجتماعية في عهد الظاهر بيبرس ، ونرى طيف الخيال في فواتحهايَعْرِضُ أمر بيبرس المشهور بتحريم الغوايات وتشديده في أعقاب أصحاب الحانات ، ويتصور أن إبليس مات وانتهت غواياته ويرثيه رثاء هزليًا مضحكاً ، واصفاً كيف كُسِّرَتْ أواني الخمر ودنانه ، والخمَّارون يتباكون بدموع غزيرة . وتبدأ مشاهد الملهاة ، وهي تدور حول مشكلة الخاطبة في العصور الماضية وماكان يحدث عن طريقها من أغلاط في حقائق العروسين ، فالعريس يدَّعِي أنه أمير من أمراء الموصل وحقيقته أنه بائس فقير ، والعروس شمطاء قبيحة منتهى القبح .وتحدث في أثناء الزفاف مفارقات مضحكة كثيرة يتخلَّلها إنشادُ الشعر والغناءُ والرقص . وشخوص الملهاة في غاية الوضوح ويطرد في المسرحية تسلسل منطقي محكم ، وبيئتها المصرية مصورة تصويراً دقيقاً سواء في أحداثها السياسية أو في علاقات الرجال بالنساء والشعب بحكامه .

وتمثيليةُ ابن دانيال الثانية بعنوان " عجيب و غريب" وهي تصور سوقاً مصرية يدخلها واحد بعد واحد ، وكل منهم يتحدث فنضحك إذ يمثل في حديثه وعلى لسانه حرفته التي يحترفها أو

جاليته التى ينتسب إليها والتى هبطت القاهرة حديثاً .ونراهم وقد جمدت ألسنتهم عند صور معينة من الكلام . والتمثيلية الثالثة بعنوان : " المتيم" وهى خاصة بالحب وحيل المحبين ، وفيها مشاهد مضحكة من عراك الديكة ونطاح الكباش و الثيران.

ومن يقرأ هذه التمثيليات يلاحظ توّا أن ابن دانيال مع محافظته على السجع فيها والشعر اقترب قرباً شديداً من لغة زمنه اليومية ، فأحيانا يسكِّنُ أواخر الكلمات غير ملتزم لعلامات الإعراب فيها ،وأحياناً يستخدم كلمات عامية . وكأنه أحسَّ بقوة أنه ينبغى أن يعرض على أفراد الشعب تمثيلياته بلغة قريبة من لغة التخاطب اليومية التى تجرى على ألسنتهم ، و التى تعودتها آذانهم وأسماعهم . وظاهرة ثانية تلاَحظُ على مسرح خيال الظل ، هى ما يصحب الحوار فيه أحياناً من إنشاد الشعر و الموسيقى والغناء ، و كأن ابن دانيال تنَبَّهَ – و تبعه الخياليون يتنبَّهون – إلى أن الشعب المصرى يَسْتَهويه الطرب والغناء، ففسحوا لهما فى تمثيلياتهم ،حتى يشبعوا هذا الجانب عنده.

وبجانب هذا المسرح الكبير : مسرح خيال الظل عرفت مصر مسرحاً صغيراً للدمى كان إلى زمن قريب يَتَنَقَّل بين أحياء القاهرة الشعبية ، هو مسرح الأراجوز ، ويقال إنه جاء من تركيا

وهو فيها يسمى قراقوز: أى العين السوداء ؛ لأن كثرة من كانوا يعرضون على الجماهير هناك كانوا من الغجر الجَوَّالين . وأكبر ظنى أن كلمة أراجواز إنما هى تحريف مع تطور الزمن لاسم قراقوش الذى فوَّض له صلاح الدين بناء قلعة الجبل وكان فيه غفلة وحمق ، فعرضه ابن مماتى فى كتابه : "الفاشوش فى حكم قراقوش" بل عكسه فى مرايا محدبة تصور كثيراً من فكاهاته ونوادره ، واستغله أصحاب خيال الظل فى مسرحهم الصغير للدمى . وظل الأراجوز حَياً فى مصر حتى نقله السلطان سليم مع خيال الظل إلى تركيا .وحُرِّف اسم قراقوش إلى قراقوز، وعاد إلينا باسم أراجوز .

وكانت تُسْتَخدمَ العاميةُ دائماً فى كل ما يمثَّل عليه ، وابن مماتى هو الذى أعدَّه من قديم لذلك فإن نوادره القراقوشية التى صاغها فى كتابه الفاشوش مكتوبة باللغة العامية لزمنه.

و تمضى مصر بهذا التراث التمثيلى الذى تسوده - أوتشيع فيه - العامية حتى النصف الثانى من القرن الماضى ويُدخل إليها يعقوب صنُّوع لعهد الخديوى إسماعيل المسرح الغربِّى متخذا قاعة الأزبكية مكانا لفرقته المسرحية ، ويأنس المصريون إلى فرقته ومامثلت من مسرحياته الهزلية الاجتماعية ، و كانت بالعامية ، وكان يضمنها أغانى شعبية ، وكأنه أراد أن تكون نقلة طبيعية

للجمهور المصرى من مسرح خيال الظل إلى المسرح الغربى الحديث. ويؤكد هذه الرغبة وتلك الصلة عنده أنه قدَّم على مسرحه أحيانا عروضا لخيال الظل بأغانيه و لغته العامية.

وكأن تراث مصر التمثيلى لخيال الظل والأراجوز أعدَّها لقبول المسرح الغربى ويدل على ذلك أوضح الدلالة أن بعض اللبنانيين والسوريين ممن عرفوا المسرح الأوربى و تمثيلياته حين رأوا أن يحتذوا على مثاله مسارح عربية فى وطنيهما : لبنان وسوريا مُنوا بإخفاق ذريع وكان" مارون نقاش " اللبنانى أول من نهض بهذه المحاولة فى منتصف القرن الماضى ، فألف ثلاث مسرحيات استلهم فيها موليير واتخذ لتمثيلها مسرحا ملاصقا لبيته فى بيروت ولكن مواطنيه أعرضوا عنه ، فأخفقت محاولته. ويحاول فى سوريا نفس المحاولة أبو خليل القبانى ، فيتخذ فى دمشق مسرحا يؤلف له طائفة من المسرحيات الغنائية وتنشب ضد مسرحه معارضة شديدة فيضطر إلى إغلاقه ، ويهاجر إلى مصر فى سنة ١٨٨٤، و يقيم له مسرحا بها، أخذ يقدم عليه مسرحيات غنائية، و جميعها تطبع بطوابع الركاكة و العامية . وراج هذا المسرح الغنائى عند المصريين واكبُّوا عليه عند مؤسسه القبانى ثم عند خليفته إسكندر فرح ، ومن خلاله ظفرت مصر برائد فن الأوبرا والأوبريت فيها : الشيخ سلامة حجازى . وشغف المصريون

به و بفرقته التى ظلت ناشطة حتى سنة ١٩١٤ و خلفه منذ سنة ١٩١٧ على هذا المسرح الغنائى الشيخ سيد درويش.

ويعود جورج أبيض من بعثة مسرحية فى مطلع العقد الثانى من القرن الحاضر ، ويؤلف فرقة مسرحية . ويقدم لها ترجمات دقيقة لمآس يونانية و غربية حديثة ، غير أن الجمهور أعرض عنها وعن مسرحه الجاد إذ كان مولعا حينئذ بمسرح الشيخ سلامة حجازى الغنائى ونلتقى فى سنة ١٩١٣ بفرح أنطون ومسرحيته الاجتماعية : " مصر الجديدة و مصر القديمة" وسنخصها بكلمة عما قليل . ويدورالعام فينشر مسرحيته التاريخية :" السلطان صلاح الدين " المكتوبة بفصحى مبسطة .ولا يلبث إبراهيم رمزى أن ينشر فى سنة ١٩١٥ مسرحيته التاريخية " أبطال المنصورة" المكتوبة بفصحى رصينة ويكتب فى نفس العام مسرحيته الاجتماعية الشعبية : " دخول الحمام مش زى خروجه ". وسرعان مانلتقى بمحمد تيمور ومسرحياته الاجتماعية المكتوبة بالعامية . وتغرق المسارح فى العقد الثالث من هذا القرن فى ملاه ومهازل فكاهية على نحو ما هو معروف عن مسرحى نجيب الريحانى وعلى الكسار ، كما تغرق فى الميلودراما و كوارثها المفجعة الصارخة ، وتعم فى ذلك كله العامية . ومانكاد نمضى فى سنة ١٩٢٧م حتى ينشر شوقى مسرحيته الشعرية " مصرع

كليوباترة" وتلاها بمسرحيتين شعريتين و طنيتين مثلها ، هما "على بك الكبير "وقمبيز" وبمسرحيتين شعريتين عربيتين هما "مجنون ليلى " "وعنترة". وأضاف إلى تلك المآسى الخمس ملهاة شعرية هى : "الست هدى "وبذلك وضع أساس المسرح الشعرى الفصيح وأقام أركانه وعمده ورفع بناءه سامقا. وكان ذلك عملا باهرا ، لا من حيث إن شوقى صاغ هذا الفن المسرحى الشعرى فى الفصحى لأول مرة فحسب ، بل أيضا لأنه قاوم به تيار العامية الذى كان قد طغى على المسرح المصرى وفُتن به الشباب ، فجاهد ضده بقوة ، واستطاع أن يصرفهم عنه إلى حين ، إذ راعتهم مآسيه حين مثلت وكذلك ملهاته روعة بالغة . ومع ذلك انعقد غبار نقدى كثيف حول مآسيه ، وعُقدت له محاكمات شتى على أساس مخالفاته لصيغة المسرح الكلاسيكى الفرنسى فى قواعد المأساه ، إذ أدخل على مآسيه عناصر فكاهية .وأكبرالظن الذى جعله يندفع إلى ذلك نجاح مسرحى الريحانى والكسار حينئذ وإكباب الجمهور المصرى على هزلياتهما الفكاهية ، فرأى أن يدخل على مآسيه شيئاً من الفكاهة ، حتى يرضى ميول هذا الجمهور ويجذبه إلى مسرحه. وأيضا فإنه خالف صيغة المسرح الكلاسيكى الفرنسى فى قواعد المأساة ، إذ أدخل على مآسيه تيارا من القطع والأشعار الغنائية الملحنة ، وإنما دفعه إلى ذلك ما رآه فى الجمهور المصرى من شغف شديد بالمسرح الغنائى وانصرافه عن المسارح الجادة مثل مسرح

جورج أبيض كما أسلفنا ، فرأى أن يدخل هذا التيار على مآسيه استرضاء واجتذابا للجمهور . وفعلا ظفرت مآسيه حين مثلت بنجاح منقطع النظير كما ذكرنا . وكل ذلك وما يماثله قصد إليه شوقى عامدا فى مسرحه حتى يحدث للمسرح المصرى العربى صيغة جديدة فى المآسى ، صيغة تميزه . وبدلا من الإشادة بمقصده وبالصيغة الجديدة التى اقترحها للمأساة فى المسرح المصرى العربى أخذ النقد العنيف يُكال له كيلا. ومما يدل على نجاح مسرحه ومآسيه متابعة الأستاذ عزيز أباظة له فى التوفر على المسرح الشعرى الفصيح وإخراجه كثيرا من المآسى التى مثلت وأعجب بها الجمهور مثل " قيس ولبنى " و " الناصر" و " شهريار " وتلاه الأستاذ على أحمد باكثير يخرج مسرحيات شعرية تاريخية وإسلامية متنوعة.

ويلبى شوقى نداء ربه سنة ١٩٣٢ و يلمع في النثر المسرحى الفصيح اسم الأستاذ توفيق الحكيم ، و كان قد وعى المسرح الفرنسى الغربى وعياً عميقاً ، فحاول صنع مسرحيات نثرية فصيحة على غرار مسرحياته ، مع بث الروح الشرقية فيما ينشئ من مسرحيات: ولم يلبث أن نشر فى سنة ١٩٣٤ أولى مسرحياته: "أهل الكهف " مقيما الصراع فيها بين الإنسان والزمان ، و تلاها بمسرحية " شهرزاد" مقيما الصراع فيها بين الإنسان والمكان.

وتتوالى له مسرحيات يستوحيها من موضوعات دينية ومن أساطير إغريقية وغير إغريقية. ويذهب كثير من النقاد إلى أن مسرحه ذهنى تجريدى مما يجعل مسرحياته صالحة للقراءة أكثر من صلاحيتها للتمثيل . وجعله هذا النقد يضيف إلى مسرحياته الذهنية مسرحيات وطنية ، و مضى يتوسع فى المسرحيات الاجتماعية وأخذ هذا الاتجاه يعمق عنده بعد الثورة . ومن أهم ما يميزه أنه غزير الإنتاج المسرحى وأنه لا يكاد يترك فى المسرح الحديث بابا إلا ويفتحه على مصاريعه ، من ذلك فتحه لباب مسرح العبث أو اللامعقول ، وتأليفه فيه مسرحيته : " ياطالع الشجرة " . وله فى مسرحياته أسلوب عربى مبين غاية الإبانة ، شفاف غاية الشفافية ، أسلوب سلس متدفق عذب .

ويعنى الأستاذ محمود تيمور بالإنتاج المسرحى . وينشر فيه مسرحيات قصيرة وأخرى طويلة يستمدها من التاريخ القومى العربى ، مستخدماً فيها الفصحى ، وله مسرحية اجتماعية هى : "المخبأ رقم ١٣ " وقد كتبها فى نسختين إحداهما بالفصحى والثانية بالعامية ومرجع ذلك عنده ما صرح به فى كتابه " دراسات فى القصة والمسرحية " من أن الفصحى إنما ينبغى أن تكون لغة المسرحية المترجمة والتاريخية . أما المسرحية الاجتماعية فينبغى

أن تكتب بالعامية لأنها لغة الكلام اليومية المهيمنة التى تستعذبها الآذان و التى تستقر فى أعماق النفوس والأفئدة.

وتحدث نهضة مسرحية كبيرة بعد الثورة بما أنشىء من أكاديمية للفنون ومعهد عال للفنون المسرحية وبما أقيم من مسارح متعددة وكُوِّن من فرق مسرحية متنوعة . وسرعان ما ظهر أفذاذ فى المسرح الشعرى الفصيح وفى المسرح النثرى . و نلتقى فى المسرح الأول بالأستاذ عبد الرحمن الشرقاوى ومسرحياته الشعرية من مثل " مأساة جميلة المناضلة الجزائرية و" الفتى مهران." و" الحسين شهيداً " ، واختار لمسرحياته الشعر الحر حتى يتيح لها-فى رأيه - شعراً دراميا متكاملا . وتلاه فى نفس الاتجاه المسرحي والشعر الدرامى الحر الأستاذ صلاح عبد الصبور فى مسرحياته من مثل " مأساة الحلاج " و" مسافر ليل " و " ليلى والمجنون" و" الأميرة تنتظر " .

ونلتقى بكثيرين من كتاب المسرح النثرى ، وقليل منهم من يؤثر الفصحى فى كتابة مسرحياته مثل الأستاذ فتحى رضوان فى مسرحيته " دموع إبليس " التى نشرها سنة ١٩٥٦ وله وراءها مسرحيات مختلفة . ويلقانا الأستاذ ألفريد فرج و يعنى بفصحى مبسطة فى كتابة مسرحياته التاريخية مثل سليمان الحلبى .

وتكثر العامية فى المسرحيات الاجتماعية والواقعية وكأنما تصرُّ الكثرة من أصحاب هذا الاتجاه على أن تكون العامية أداة التعبير وحدها فى مسرحياتهم و نذكر منهم الأستاذ نعمان عاشور وهو غزير الإنتاج وله مسرحيات كثيرة منها " المغماطيس" و"الناس اللى تحت " و " الناس اللى فوق "و"سيما أو نطة" و" عيلة الدوغرى" ونلتقى بالدكتور يوسف إدريس و محاولته إيجاد مسرح مصرى أصيل مسرح له صيغته و طبيعته المستقلة عن طبيعة المسرح الغربى و صيغته ، وعرض نموذجاً لما يقدِّم من مسرحيات فى هذا المسرح هو " مسرحية الفرافير " استمدها من التمثيل الريفى الشعبى ملغياً فيها الحائط الوهمى بين منصة المسرح ومقاعد الصالة أو بعبارة أخرى بين الممثلين و المتفرجين . و يلقانا الأستاذ لطفى الخولى و مسرحياته من مثل " قهوة الملوك " " القضية "و يريد بها قضية التغير الاجتماعى الاشتراكى ، وللدكتور رشاد رشدى إنتاج مسرحى كثير ، وهو متعدد الاتجاهات المسرحية قد استغل الفن الشعبى القديم : فن خيال الظل فى مسرحيته " اتفرج يا سلام " وهى تحكى قصة تاجر وما لقيه من ظلم وهوانٍ على يد حاكم ورجاله . وللأستاذ سعد الدين وهبة كثير من المسرحيات مثل كبرى الناموس والسبنسة والمحروسة وسكة السلامة والمسامير ولأستاذ ميخائيل رومان مسرحيات متعددة مثل الدخان والعرضحالجى والوفد ولن نستطيع أن نمضى

فى استقصاء كتابنا المسرحيين النابهين الذين يؤثرون العامية فى كتابة مسرحياتهم لأنهم أكثر من أن نستقصيهم فى برهة زمنية قصيرة وإنما أردنا بمن ذكرنا منهم أن ندل على هذا المدّ أوالسيل العامى فى المسرح المصرى ولعل فيما أسلفت ما يصور فى إجمال تاريخىٍ قضيةَ استخدام العامية و الفصحى فى لغة المسرح منذ نشأته إلى اليوم ، و كيف أنه بدأ عاميا أو يكاد ، وظل على ذلك عشرات السنين سواء فيما وُضِعَ له من مسرحيات غنائية أو فيما تُرْجم له أو عُرِّب أو مُصِّر ، حتى إذا كنا فى القرن الحاضر عُنى بعض الكتاب النابهين بكتابة مسرحيات نثرية جيدة ، تتخذ الفصحى أداة لها فى التعبير على نحو ما ذكرنا عن فرح أنطون وإبراهيم رمزى فى مسرحيتيهما السلطان صلاح الدين وأبطال المنصورة . و عُنى كل منهما بتأليف مسرحية اجتماعية وفكّرا فى لغتها هل تكون فصيحة أو عامية؟ أما إبراهيم رمزى فاختار لمسرحيته : " دخول الحمام مش زى خروجه " اللغة العامية الشعبية وأما فرح أنطون ففكّر طويلا فى لغة مسرحيته : "مصر الجديدة ومصر القديمة " و انتهى إلى أن يجمع فيها بين الفصحى والعامية، فجعل الفصحى لشخوص الطبقة العليا والعامية لشخوص الطبقة الدنيا .واقترح لغة ثالثة للسيدات فى المسرحية ، سماها فصحى مخففة ، وكتب فى صدر المسرحية بيانا أوضح فيه موقفه من هذه القضية اللغوية فى المسرحية و الحل الذى خلص إليه يقول : " إنما

مجلس التمثيل (المسرح) مجلس أناس يقلدون غيرهم . فاذا كانت الروايات معربة صح جعل اللغة العربية الفصحى لغة لها ، بحسبان أن الرواية حكاية حال قوم لغتهم أعجمية ، ولنا حق اختيار اللغة التى نجعلها قالبا لتلك الحكاية ، و لكن إذا كانت الرواية تأليفا وإنشاداً وموضوعها شئونٌ من لغتهم العامية ، وجعلنا لغة هذه الروايات اللغة العربية الفصحى صرفا خرجنا عن الطبيعة التى ما أنشئت الروايات التمثيلية إلا لتقليدها ، وخالفنا الواقع فى شكله وصورته ، وفى هذا هدم لأصل من أصول التمثيل الأساسية ، وكيف يستطاع مثلا جعل خريستو فى (مسرحية) مصر الجديدة ينطق باللغة الفصحى وهو أعجمى ؟ وما يكون رأى مشاهدى هذه الرواية إذا سمعوا فيها نساء قهوة الرقص وباعة الصحف والخادمين والبرابرة والسكارى المترنِّحين بل والسيدات فى خدورهنَّ ينطقون باللغة الفصحى ؟ ثم نرى من وجه آخر أننا إذا جعلنا تأليف الروايات التمثيلية الاجتماعية باللغة العامية حرصا على تقليد الطبيعة كل التقليد كما هى وظيفة مجالس التمثيل (المسارح) وقعنا فيما هو أشد وأنكى ، وقعنا فى إحياء العامية وإضعاف الفصحى . وهذا أمر يأباه كل من ذاق لذة هذه اللغة الجميلة التى جرى حبها منا مجرى الدم فى المفاصل ، وما كنت لأرضى بأن يكون الشروع فى أمر كهذا الأمر على يدى . هذا هو المشكل الذى وقعت فيه فى تأليف (مسرحية) مصر الجديدة ،

وسيقع فيه بعدى كل من يتصدى لتأليف الروايات التمثيلية الاجتماعية باللغة العربية ".

ثم يذكر فرح أنطون الحلّ الذى ارتضاه لهذا المشكل ، وهو أن يجعل شخوص الطبقة العليا فى المسرحية ، كما قلنا ، يتكلمون الفصحى ، وشخوص الطبقة الدنيا يتكلمون العامية، وجعل للسيدات فى المسرحية لغة ثالثة بين الفصحى و العامية سماها الفصحى المخففة . وبذلك أحال فرح أنطون مسرحيته إلى رقع لغوية : رقعة فصحى ورقعة عامية ورقعة بين بين تتوسطهما.وذكر آنفا أنه إنما أدخل العامية واللغة الثالثة على لسان الشخوص ليمثل الطبيعة فى المجتمع والواقع . وفاته ما قاله عن إيثار الفصحي للمسرحيات المترجمة وأن الغرض من التمثيل حكاية حال قوم ، وأن من الخير أن تؤدّى الحكاية فى تلك المسرحيات المترجمة باللغة الفصحى المحبوبة كما يقول. وهذا نفسه ينطبق على المسرحيات الاجتماعية ما دام الغرض من التمثيل دائما حكاية حال الناس فى المجتمع لا حكاية لسانهم ،ومن المؤكد أن الطبقة العليا فى أيامه كانت مثل الطبقة الدنيا تتكلم العامية ، فكان ينبغى أن يعمِّم ، إما أن يختار ماقاله فى المسرحيات المترجمة أنها تمثيل حال لا تمثيل لسان ، ويطبِّق ذلك على الطبقة الدنيا كما طبَّقة على الطبقة العليا فيجعلها تتحاور مثلها بالفصحى ، وإما أن

يختار ماقاله عن المسرحيات الاجتماعية من أنها تمثيل للطبيعة و الواقع و يطبق ذلك على الطبقة العليا كما طبقه على الطبقة الدنيا فيجعلها تتحاور بالعامية .و كان ينبغى أن لا يفرد للسيدات حينئذ لغة ثالثة خاصة لأنهن كن يتحدثن العامية مثل الطبقتين الأخريين . وكل ذلك معناه أن تجربة فرح أنطون اللغوية فى مسرحيته : " مصر الجديدة ومصر القديمة " لم تكن تجربة سوية . ومع أنها مُثِّلت على المسرح لم تلق النجاح المنشود ومن أجل ذلك لم يحاول فرح أنطون نفسه - فضلا عمن كانوا حوله أو جاءوا وراءه - تقليدها ، لأنها تحمل عدة صور من الأداء اللغوى ، وكان ينبغى أن يختار لمسرحيته إحدى اثنتين . إما أن يجعل مسرحيته فصيحة الأداء كمسرحية السلطان صلاح الدين ، وإما أن يجعلها عامية الأداء كمسرحية زميله رمزى الاجتماعية المارّ ذكرها ومثل مسرحيات معاصره محمد تيمور: الهاوية و غير الهاوية . ومن هنا كنا نرى أن فرح أنطون ترك المشكل اللغوى فى مسرحيته مصر الجديدة والمسرحيات الاجتماعية المماثلة لها دون وضع حل سديد له .

ومضى الكتاب المسرحيون بعده يقدمون أعمالهم للمسرح باللغة العامية .ونحّاها شوقى عنه فى مسرحياته الشعرية كما ذكرنا ، وبالمثل نحاها الأستاذ توفيق الحكيم عن مسرحياته

النثرية، ومثّلت له مسرحيته " أهل الكهف" سنة ١٩٣٥، و لكنها لم تلق النجاح المظنون لتمثيل الشخوص فيها لأفكار مجردة ؛ وكأنهم لا يزالون فى العالم الخيالى لأسطورتهم بعيدين عن عالم الواقع. و توالت مسرحياته المستمدة من الأساطير غير أنها لم تحظ بالتمثيل على منصة المسرح ، لما تردد بين النقاد من أن تلك المسرحيات إنما تصلح للقراءة فقط ولا تصلح للتمثيل ، لأنها ذهنية تجريدية. ويسلّم لهم توفيق الحكيم بوجهة نظرهم إذ يقول فى مقدمة مسرحيته بيجماليون التى نشرها سنة ١٩٤٢ " إنى أقيم اليوم مسرحى داخل الذهن ، وأجعل الممثلين أفكاراً تتحرك فى المطلق من المعانى مرتدية أثواب الرموز ... لهذا اتسعت الهوة بينى وبين خشبة المسرح ، ولم أجد قنطرة تنقل هذه الأعمال إلى الناس غير المطبعة. لقد تساءل البعض : ألا يمكن لهذه الأعمال أن تظهر على المسرح الحقيقى ؟ أما أنا فأعترف بأنى لم أفكر فى ذلك عند كتابة روايات مثل أهل الكهف وشهرزاد وبيجماليون . ولقد نشرتها جميعا ولم أرض حتى عن أن أسميها مسرحيات ".

على أن الأستاذ الحكيم كان قد أخذ يتدارك الموقف بتأليفه – مع مسرحيات ذهنية أخرى –مسرحيات اجتماعية كثيرة ، نشرها مفردة أو فى مجموعات ، غير أن النقاد ظلوا يقولون إن طوابع مسرحه الذهنى لاتزال تسيطر على مسرحه الاجتماعى . فهو فيه

لا يزال يبدأ من فكرة ويحاول تطبيقها فى المجتمع . حتى إذا قامت الثورة تطور الفن المسرحى الاجتماعى عند الأستاذ الحكيم متخلصا من آثار مسرحه الذهنى ممعنا فى تصوير واقع المجتمع متأثرا بفلسفة الثورة الاشتراكية على نحو ما يتضح فى مسرحيته "الصفقة" التى صور فيها الفلاحين فى قرية مصرية يناضلون نضالا مستميتا فى سبيل الحصول على قطعة أرض زراعية من أرضهم الطيبة أيام استشراء الإقطاع وتفاقمه.

والأستاذ الحكيم فى هذه المسرحية لم يتحول فقط من مسرحه الذهنى إلى المسرح الاجتماعى الواقعى بالمعنى الدقيق ، بل أيضا تحول من لغته الفصيحة التى تخلو من أى أثر للعامية فى مسرحياته السالفة إلى لغة وسطى بين العامية والفصحى ، سماها " لغة ثالثة" متخذا من مسرحية " الصفقة " حقل تجربة لإيجاد حل للغة المسرح التى تخاطب أفراد الجمهور، وينبغى أن يفهموها بمجرد سماعها. وكان الكلام قد كثر- منذ فرح أنطون - عن العامية والفصحى على المسرح و كان أنصار العامية يتمسكون دائماً بأن التمثيل فن شعبى ، و ينبغى أن يكون بلغة الشعب العامية المتداولة بين الناس. ورأى الأستاذ الحكيم تحت بصره مسرحيته "الأيدى الناعمة " تنقل من زيها الفصيح الذى وضعها فيه إلى زى عامى مُثّلت به فى سنة ١٩٥٤. لذلك استقر فى نفسه أن يستحدث للمسرح هذه اللغة الثالثة الجديدة التى كتبَ بها مسرحية الصفقة

المنشورة فى سنة ١٩٥٦ وقد ألحق بها بيانا أوضح فيه الحاجة إلى تلك اللغة ، وفيه يقول :" استخدام الفصحى يجعل المسرحية مقبولة فى القراءة ، ولكنها عند التمثيل تستلزم الترجمة إلى اللغة التى يمكن أن ينطقها الأشخاص. فالفصحى إذن ليست لغة نهائية فى كل الأحوال ، كما أن استخدام العامية يقوم عليه اعتراض وجيه ، وهو أن هذه اللغة ليست مفهومة فى كل زمن ولا فى كل قطر بل ولا فى كل إقليم ، فالعامية إذن ليست هى الأخرى لغة نهائية فى كل مكان أو زمان . وكان لا بُدَّ لى من تجربة ثالثة لإيجاد لغة صحيحة لا تجافى قواعد الفصحى ، وهى فى نفس الوقت مما يمكن أن ينطقه الأشخاص ولا ينافى طبائعهم ولا جَوَّ حياتهم ، لغة سليمة يفهمها كل جيل و كل قطر و كل إقليم . و يمكن أن تجرى على الألسنة فى محيطها ، تلك هى لغة هذه المسرحية. قد تبدو لأول وهلة لقارئها أنها مكتوبة بالعامية ، و لكنه إذا أعاد قراءتها طبقاً لقواعد الفصحى فإنه يجدها منطقية على قدر الإمكان . بل إن القارئ يستطيع أن يقرأها قراءتين : قراءة بحسب نطق الريفى فيقلب القاف إلى جيم أو همزة تبعاً للهجة إقليمه ، فيجد الكلام طبيعيا مما يمكن أن يصدر عن ريفى ، ثم قراءة أخرى بحسب النطق العربى الصحيح ، فيجد العبارات مستقيمة مع الأوضاع اللغوية السليمة . إذا نجحت فى هذه التجربة يؤدى ذلك إلى نتيجتين :

أولاهما : السير نحو لغة مسرحية موحدة فى أدبنا ، تقترب بنا من اللغة المسرحية الموحدة فى الآداب الأوربية . وثانيهما وهى الأهم : التقريب بين طبقات الشعب الواحد وبين شعوب اللغة العربية بتوحيد أداة التفاهم على قدر الإمكان دون المساس بضرورات الفن".

وكل من يقرأ هذا البيان يمتلئ إعجابا بهذه التجربة اللغوية الجديدة التى ترفع فوق منصات المسارح الأسوار بين الفصحى والعامية ، وكأنما لم تكن كلها أسواراً بالمعنى الدقيق لكلمة أسوار، بل كان كثير منها أقواسا وهمية . وينبغى أن نعود إلى مسرحية الصفقة نفسها لنرى حقيقة ما رُفع من هذه الأسوار . وبمجرد أن نتصفحها نلاحظ فيها عملين كبيرين : عملا نتفق فيه مع الأستاذ الحكيم كل الاتفاق ، وعملا نختلف معه فيه كل الاختلاف ، فأما العمل الذى نتفق معه فيه فإدخاله فى مسرحيته كثيرا من العبارات والأمثال العامية ، وهى فصيحة تامة الفصاحة ، مع أنها كثيرة الجريان على الألسنة فى اللغة اليومية الدارجة ، ونضرب لذلك بعض الأمثلة من الفصل الأول فى المسرحية.

" لكن المسألة بالأصول – هى لايهمها فلان ولا علان– هس من فضلكم اسكتوا دقيقة واحدة – عدٌ لهاله ربنا – لا له فى التور ولا فى الطّجين – ذنبكم على جنبكم – انهضوا هُمُّوا – ماله؟ – اللّه لا

يكسبك – انت على راسنا من فوق – لونها يقرف الكلب – تعمل الطاسة مَسْقَى للكتاكيت – سرقني جرّدني – كل ما عندى مرصود للكفن والخرجْة – حلفت بالله فى علاه و سماه و نبيُّه الزِّيْن – ما عندى لك غير كلمة واحدة – فال الله ولا فالك – ياكل مال النبى – ساعة القضا يَعْمَى البصر – صلاة النبى أحسن – ما باليد حيلة – احزموا أمركم – ما يقدر على القدرة إلا الله – عملتها فىّ – ربُّنا أمر بالسُّتْر – خَلِّص لهم الموضوع بالتى هى أحسن – فكرة معتبرة – على شرط لا نكلمه هناك كلمة ولا نفتح له سيرة ".

وجميع هذه التعبيرات تدور على ألسنة العامة فى لغة التخاطب اليومية ، وهى فصيحة كاملة الفصاحة. وهو معنى ما قلناه من أن الأسوار بين الفصحى والعامية بدت فى جوانب من المسرحية ، و كأنها كانت أقواساً و همية . ومسرحية " الصفقة" – بهذا الأداء اللغوى الجديد – تُعَدُّ إرهاصاً قوياً لتحول خصب فى لغة المسرح الفصحى ، إذ تلتحم بها العامية التحاماً من شأنه أن يمحو جانباً من الأسوار والحواجز التى كان يظن أنها تفصل بين عبارات العامية و عبارات الفصحى ، فإذا هما يتعانقان على منصة المسرح ويتحدان هذا الاتحاد الواضح وهذا العمل الأول فى مسرحية الصفقة جدير بكل ثناء.

أما العمل الثانى الذى قلنا إننا تختلف فيه مع الأستاذ الحكيم فهو: النطق بحروف بعض الكلمات في المسرحية كما تُنْطَقُ فى العامية ، ومعروف أن عاميتنا أبدلت الذال دالا فى بعض الكلمات الفصيحة ، مثل ذاب تنطقها داب ، وأبدلت الثاء تاء فى مثل ثلج تنطقها تلجا ، وأبدلت الظاء ضادا فى مثل ظُلْمة أو ظَلْمة بفتح الظاء تنطقها ضلمة : فهل تُكْتَبُ مثل هذه الكلمات فى المسرحيات وتنطق على المسرح بصورتها العامية أو تُرَدّ إلى صورتها الفصيحة ؟ أما الأستاذ توفيق الحكيم فيرى أن نبقى لها صورتها العامية بدليل مانقرؤه فى الفصل الأول من مسرحية الصفقة من مثل العبارات التالية:

" ندبح الدبيحة بدلا من نذبح الذبيحة - قاعد يَحْلِق دقنه بدلا من : قاعد يحلق ذقنه - تصح منك الكلمة دى ؟ بدلا من تصح منك الكلمة هذه ؟ - أنت راجل حاج تلات حجات بدلا من : أنت رجل حاج ثلاث حجات - سبق قلت لنا بعضمة لسانك - بدلا من : سبق قلت لنا بعظمة لسانك ".

وفى رأيى أنه كان ينبغى للأستاذ الحكيم أن لا يدفع تجربته الجديدة فى لغة المسرح إلى هذا المأزق ، لأنه بذلك يهبط بفصحى المسرح إلى العامية دون حاجة أو ضرورة واضحة. وكان المأمول أن يرتفع بالكلمات السابقة إلى الفصحى ويردها إلى صورتها

الصحيحة على نحو مارد كلماتٌ عامية أخرى فى نفس هذا الفصل الأول من المسرحية ، فقد رد كلمة التور فى العامية إلى كلمة الثور الفصيحة فى المثل الآنف ذكره" لا له فى الثور ولا فى الطُحين ".وكلمة " لاله" فى صدر هذا المثل هى في العامية " لا لو " فردها إلى نطقها الفصيح . و بالمثل رد كلمة التلت العامية إلى كلمة الثلث الفصيحة على لسان بعض الشخوص . ورد مراراً كلمة " مالو" العامية إلى كلمة " ماله " الفصيحة . وعلى هذه الشاكلة كان يحسن أن يرد الكلمات العامية المذكورة منذ قليل إلى النطق العربى الفصيح.

ونمضى مع الأستاذ توفيق الحكيم إلى سنة ١٩٦٦ و فيها ينشر مسرحيته : " الورطة " ويلحقها ببيان يتحدث فيه عن ظاهرة استبدال العامية لبعض الحروف العربية مسوغاً للكاتب المسرحى الإبقاء عليها فى حوار الشخوص أو على الأقل الإبقاء على طائفة منها ، يقول : " الدال والذال والضاد والظاء يحل أحدها فى النطق محل الآخر فى بعض البيئات والقبائل .. وعلى ذلك لا جناح فى نطقنا بالظبط بدلا من بالضبط و نطقنا دا ودى وده بدلا من ذا وذى وذه وكذلك ماسارعلى نهجها مثل كذا التى ننطقها كِدا أو كده ". وكل هذه الإبدالات موجودة فى المسرحية وموجود معها إبدال الثاء تاء فى بعض الكلمات فى مثل "يعنى التالتة تابتة "

بدلا من " يعنى الثالثة ثابتة ". ومما يدل على أن ذلك يفتح بابا كبيرا لاستبقاء الكلمات العامية المحرّفة فى الحوار المسرحى أن الذال لا تبدل فى عاميتنا دالا أحيانا فحسب ، بل قد تبدل زايا فى مثل كلمتى الذخيرة والذمة وأن الضاد لا تبدل فى عاميتنا أحياناً ظاء فحسب ، بل قد تبدل " دالا" فى مثل مدغ الطعام بدلا من مضغ الطعام ، وأيضاً الثاء لا تبدل تاء فحسب ، فقد تبدل سينا فى مثل الثروة والثمْن . ولو أن الكاتب المسرحى كتب فى مسرحيته هذه الكلمات جميعاً بنطقها العامى مافهمها القارىء ولا الممثل للمسرحية ، وهل يستطيعان مثلا معرفة أن الزخيرة بالزاى هى الذخيرة بالذال وأن السروة بالسين هى الثروة بالثاء ؟ إن مثل ذلك يؤدى إلى مشكلة لعلها أكثر تعقيداً من مشكلة النطق بالحروف المبدلة فى بعض كلمات العامية. ولا ريب فى أنه أولى لفصحى المسرح المقترحْة أن تعدل هى فى نطق الحروف المبدلة فى الكلمات العامية وتردها إلى نطقها الصحيح. وبذلك يرتفع الكتاب المسرحيون بلغتنا العامية ، إذ يشيعون النطق الصحيح للكلمات العامية المبدلة بعض حروفها بترداد الممثلين فى حوارهم لهذا النطق ومحاكاة الجماهير لهم فى ترداده.

و كلنا نعرف أن من الظواهر فى عاميتنا استخدام طائفة من الاختزالات فى الكلمات ، وقد سوغ الأستاذ توفيق الحكيم مجموعة

منها استخدمها على لسان الشخوص فى مسرحيته " الورطة " مثل " أيوه" اختزال " إى و اللّه " و " إيه" اختزال " أى شىء" و " ليه" اختزال " لماذا" و" اللى " اختزال " الذى" . يقول : " مثل هذه الرخص والاختزالات فى التخاطب يمكن قبولها ، إذ من الشطط أن نطالب الناس بالطفرة ونلزمهم فى مجالسهم العادية استعمال١٢٧ كلمة " لماذا " بدلا من " ليه " ... إذا أردنا أن نطاع فلنأمر بما يستطاع ". وفى رأيى أن استخدام الكتاب المسرحيين لصور اختزال الكلمات فى العامية على ألسنة الشخوص فى مسرحياتهم مثل استخدامهم لكلمات الفصحى المبدلة حروفها ، كل ذلك من شأنه أن يهبط بالفصحى إلى دوائر العامية بدلا من أن يرتفع بالعامية إلى دوائر الفصحى ، وأيضا فإنه يضيع علينا وعلى الأستاذ توفيق الحكيم النتيجة الثانية التى ذكر فى بيانه الملحق بمسرحية الصفقة أنها النتيجة المهمة فى رأيه كما أشرنا إلى ذلك آنفا وهى التقريب بين شعوب اللغة العربية بتوحيد أداة التفاهم ، إذ نعود ثانية إلى عاميتنا مبقين منها - فى لغة المسرح - أسوارا تحول بينها و بين ما نريد من فصحى مسرحية تتوحد بين الشعوب العربية.

وأنا- مع كل ما قدمت - أقول إن التاريخ الأدبى العربى المعاصر - وخاصة المسرحى منه -سيظل يذكر للأستاذ توفيق

الحكيم أنه رفع صرح المسرح النثرى الفصيح على أسس وطيدة ، وأيضا سيظل هذا التاريخ يذكر له محاولته إيجاد لغة ثالثة مسرحية وسطى بين الفصحى والعامية ، و أنه وضع لها قاعدة مهمة هى استخلاص العبارات والتراكيب التى يظن أنها عامية ، بينما هى فصيحة ، واستخدامها على ألسنة الشخوص فى المسرحيات على نحو ما استخدمها فى مسرحيتيه : الصفقة والورطة ، وأضاف الأستاذ الحكيم إلى هذه القاعدة قاعدة ثانية فى بيانه الملحق بمسرحية الورطة ، هى استخدام كتَّاب المسرح لكلمات تشيع فى استعمالنا الدارج و نحسبها عامية ، وهى - فى حقيقتها - فصيحة ، وذكر أن الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى - رحمه الله - كان يستخدم فى كتاباته كثيرا من هذه الكلمات ، و مثل لها بقولنا فى العامية :" أشوفك بكرة " و " اخرج برة " و " خش فى الموضوع " و " زيى زيك " و " بس " - وقد تجرد غير باحث لتأصيل الكلمات العربية فى العامية ، و ألفت فى ذلك مصنفات مختلفة ، من أحدثها " معجم الألفاظ العامية المصرية ذات الأصول العربية " للدكتور عبد المنعم عبد العال ، ولا تزال تبذل الجهود فى هذا الاتجاه، وللأستاذ الدكتور محمد التنير جهد قيم فيه ، تفضل بإطلاعى عليه . وحبذا لو عنيت لجنة اللهجات فى مجمعنا الموقر بوضع معجم للكلمات العامية استعمالا العربية أصلا ونسبا ، حتى يجدها كتابنا المسرحيون مَدَّ أيديهم وأبصارهم .

وبالقاعدتين السابقتين اللتين وضعهما الأستاذ توفيق الحكيم للغة المسرح الثالثة ، بل بهذين الرافدين : رافد الكلمات العامية العربية ورافد العبارات العامية العربية ستظل الفروق بين فصحى المسرح والعامية تضيق تدريجا يوما بعد يوم ، حتى تتكون لنا فصحى مسرحية تعايش الجماهير فى محيطها اللغوى اليومى ويفهمها العرب فى مختلف بلدانهم من الخليج إلى المحيط . وإنى لواثق أن أعلام كتابنا المسرحيين سينفذون إلى تحقيق هذا الأمل المنشود للأمة العربية فيستحدثون لها هذه الفصحى المسرحية المبسطة ويظلون ينمونها دون تحيف أو تنقص لمقومات العربية .وبذلك ينهضون فى فصحى المسرح بنفس الدور اللغوى العظيم الذى نهض به أعلام كتابنا الصحفيين منذ القرن الماضى إلى اليوم نافذين إلى فصحى صحفية مبسطة ، فهمتها - وتفهمها- الجماهير الشعبية العربية فى يسر. وبالمثل ستتحقق للمسرح - كما تحقق للصحافة - فصحى مبسطة فى الغد مهما طال الزمن .

الشعر الحر

بين التراث الشعري والحداثة

منذ أخذ الشعر الحر فى الظهور والشيوع بين الشعراء المعاصرين ارتفعت صيحات كثيرة ضده تقول : إن الطوابع والخصائص النغمية للشعر العربى تكاد تنمحى منه انمحاءً ، بحيث يصبح من الصعب أن يسمى شعرا ، إذ يفقد المقوِّمات النغمية الأساسية لتراثنا الشعرى من مثل القافية التى توحِّد بين كل أبيات القصيدة و التى تحدث بينها تساوقاً وائتلافًا فى نغمها تستريح عنده الأذن والنفس ، وليس ذلك كل ما يفقده فإنه يفقد أيضًا فكرة انقسام البيت إلى شطرين ، بل لا أبيات فيه ، ولا شطور إذ تتحول المنظومة منه إلى سطور متوالية ، ممًا يجعله أشبه بالنثر ، بدليل أننا حين نقرأ إحدى منظوماته نشعر أننا نقرأ فقراً أو مقالة نثرية لا منظومة شعرية ، وسرعان ما نقرؤها دون ريث أو تمهل إذ لا توجد وقفات فى نهايات السطور نقف عندها أو نتمهل قليلاً . وأيضًا فإن سطورها لا توجد بينها معادلات نغمية ، فسطر طويل و سطر قصير، والطول يختلف ، و كذلك القصر ، حتى قد يصبح كلمة.

وكان من آثار هذه النواقص فى نغمه أن فقد - فى جمهوره - خاصة أساسية فى تراثنا الشعرى هى قابليته الواسعة الخصبة للتلحين والغناءِ ، ومعروف أن المغنين ظلوا يتغنون بالشعر العربى طوال ستة عشر قرناً أو تزيد ، منذ نشأته فى الجاهلية إلى اليوم . وهذه القابلية للتغنى فيه تكاد تنعدم فى الكثرة من منظومات الشعر الحر لسقوط القوافى منها وسقوط الإرنانات الإيقاعية التى تهيئ للترنم بها والتغنى فيها . ولا تستطيع التفعيلة و حدها التى استبقاها الشعر الحر من إيقاع التراث الشعرى العريق أن تتلافى ما حدث فيه من النواقص النغمية الكثيرة وخاصة أن سطور التفعيلة مشوشة بين الطول والقصر.

ويقول أصحاب الشعر الحر : لماذا يطلب فى شعرنا الحديث التمسكُ بالإيقاع الموسيقى الكامل لتراثنا الشعرى ، مع أن هذا الإيقاع إنما تكامل عند أسلافهم العرب وحدهم ، فإن نظام القافية لم يعرفه اليونان ولا الرومان فى أشعارهما وعرفه الفرنسيون فقط فى البحر الإسكندرى وقوافى أبياته المتقابلة ، وعرفه الإنجليز فى صور من شعرهم الغنائى وشاع عندهم الشعر المرسل المتحرر من القافية على نحو ما هو معروف عن شكسبير فى مسرحياته ، فلماذا يُحْجَرُ على الشاعر العربى المعاصر ويُطْلب إليه التمسك بنظام القافية و بنسب موسيقية تتحد فى جميع أبيات القصيدة؟

ولماذا لا تُتْرَك له الحرية فى أن يختار لشعره نمطاً جديداً لم يسبق إليه ؟ إن من الخير أن يتاح له ذلك وأن لا تعطَّل جريته ، لأن حاضر أمته العربية و ما يتصل به من المشكلات السياسية والاجتماعية يختلف عن ماضيها وما اتصل به من هذه المشكلات ، وليس للإيقاع الشعرى المتكامل فى التراث قيمة ثابتة لا يحق للشاعر المعاصر الفكاك منها ، بل هى قيمة متغيرة متحولة ، وهو لذلك يقبل التشكيل من جديد، و خاصة إذا مسَّت الحاجة فى الشعر إلى الفسحة فى التعبير على نحو ما تمُّس الآن حاجة الأوضاع الجديدة فى مجتمعاتنا العربية المعاصرة ، ويغلو بعض أصحاب الشعر الحر فى هذا التصور، حتى ليصبح شعرهم فى إيقاعه مختلفا اختلافاً بَيِّنًا عن إيقاع تراثنا الشعرى، إذ لا يستبقون منه شيئاً سوى التفعيلة وحدها.ويقول كثيرون منهم : إننا لم نعد فى حاجة للربط الوثيق بين حاضرنا وماضينا فى الشعر لأننا نعيش عصراً حديثا وينبغى أن تتسع فيه الحداثة لتشمل كلَّ شىء شعرا وغير. ويقولون : لماذا لا يتسع التراث فيشمل التراث العالمي البابلّى والفينيقى والفرعونى واليونانى ؟ ومحاولة التوسع بالتراث ليشمل التراث الإنسانى القديم جميعه ليس موضوع الجدال لأن ذلك إنما يتعلق بجانب من الجوانب المتعددة فى مضمون الشعر الحر لابجانب من جوانب الإيقاع الحديث فيه . ولعل شعر شوقى الفرعونى البديع أكبر دليل على أن إيقاع الشعر الموروث يستطيع النهوض

بالتعبير عن التراث الإنسانى دون أى قصور بل مع الروعة التى تستهوى الألباب.

ففكرة التمسك بالتراث الإنسانى وحاجة التعبير عنه إلى تَغْيير الإيقاع فى تراثنا الشعرى يتضح فيها الغلو كفكرة أن حياتنا السياسية والاجتماعية تبدَّلت أوضاعها و أنه يجب أن يتبدَّل معها هذا الإيقاع ، وما كانت التغيرات فى الحياة السياسية و الاجتماعية ، ولا كان التراث الإنسانى.ما كان ذلك كله ليقتضى ألواناً بعينها من ألوان الإيقاع ، بحيث يقال : إن إيقاعاً بذاته هو الذى يلائمه دون سواه .

وإذا رجعنا قليلاً ننظر فى تطور شعرنا العربى الحديث وجدنا هذا التطور يبدأُ بقوة عند البارودى ، وقد صوَّر أحداث زمنه الخطيرة ، إذ كان من المشاركين فى الثورة العرابية وعبَّر عن منازعها دون حاجة إلى تغيير الإيقاع الموسيقى فى التراث الشعرى وعبر عن تاريخ مصر الفرعونىٌ فى بعض قصائده دون حاجة أيضا إلى التغيير فى هذا الإيقاع، وخلفه شوقى وحافظ ووقفا مع مصر وأمتهما العربية يستثيران الحمية والحماسة لمقاومة الاستعمار واسترداد الحرية والاستقلال ، واستحال الشعر عندهما فى كثير من جوانبه إلى ما يشبه قذائف نارية ملتهبة يقذفان بها

المستعمرين ، وتكاثرت هذه القذائف عند جيلهما من الشعراء فى مصر و البلاد العربية. ولم يؤدِّ ذلك عندهم جميعاً إلى ثورة - أو ما يشبه الثورة - على إيقاع التراث الشعرى ، بل لقد أعانهم هذا الإيقاع على كل ما أرادوا من ثورة الشعوب العربية على المستعمرين ، وبذلك كان شعرهم شعر ثورة على الاستعمار لاشعر ثورة على الإيقاع الشعرى الموروث . ولم يقل أحد : إنهم قَصَّروا فى الأبعاد الروحية والسياسية والاجتماعية للشعوب العربية ، بل لقد أوجد حافظ صورة حديثة من الشعر الاجتماعى صوَّر فيها حياة البائسين المطحونين فى البيئات الشعبية بالمجتمع المصرى ، وسار على دربه كثيرون من الشعراء فى الشام و العراق وغيرهما من البلدان العربية ، ولم يرتفع صوت فى تلك الأيام بأن الشعر لم يؤدِّ دوره الواجب فى تصوير حياة العرب بمشاكلها السياسية والاجتماعية التى كانت تقلقها وما ارتبط بها من آلام وآمال ، بل لقد نهض بذلك نهضة رائعة ، لا تزال مشاعرنا الوطنية و القومية تتغذى بها - كما تغذى الجيل الماضى - غذاءً يلذ القلوب ويمتع النفوس.

وقد استطاع شوقى أن يتسع بطاقة الإيقاع الشعرى الموروث، فلا يقف بها عند الشعر الغنائى ، بل يمدُّها لتستوعب الشعر المسرحى على نحو ما نعرف فى تمثيلياته الست : مصرع

كليوباترا، ومجنون ليلى ، وقمبيز ، و على بك الكبير ، و عنترة ، والست هدى ، وقد خلبت ألباب معاصريه ولاتزال تخلب ألبابنا بروعتها الموسيقية وما حمَّل فيها الإيقاع الشعرى الموروث من ذبذبات نغمية وإرنانات صوتية ، تُرْهف لها آذاننا وتتغلغل ألحانها فى دخائلنا ، فتنتعش بها قلوبنا ، ونحس كأن الكلمات عنده تتعانق ، وهو تعانق نغمى يحدثه فيها اكتمال الإيقاع الشعرى الذى ورثناه عن الأسلاف ، والذى استطاع شوقى فى تمثيلياته أن يستخرج منه إمكاناته الموسيقية ، وأن يسخرها لأداءِ الشعر التمثيلى أداءً بديعاً.

و هى مفارقة واضحة : أن يستطيع شوقى التمكين لإيقاع تراثنا الشعرى فى النهوض بفنٍّ شعرى كان يُظن أنه لا يستطيع النهوض به ، وإذا هو ينهض به ، بل يثب به وثبة لم يكن يحلم بها معاصروه ، فإذا لنا شعر تمثيلى رائع بجانب شعرنا الغنائى العريق . وخطأ أن ينحِّى أصحاب الشعر الحر هذا الإيقاع الوافر الأنغام عن شعرهم بحجة الحداثة وما ينبغى لإيقاع الشعر العربى الموروث من تطور . وكأنهم لم يلتفتوا إلى أن الشعر العربى ظل يتخلَّق فى أحشاءِ هذا الإيقاع قروناً متطاولة وأنه استطاع دائماً أن يؤدى أعمق المشاعر والأفكار . وقد نظم كثير من الأسلاف قصائد

فلسفية كثيرة تموج بها كتب التراجم لفلاسفتهم ، وقصيدة ابن سينا فى النفس وهبوطها من العالم العلوى إلى العالم السفلى ثم رُقِّيها و صعودها إلى عالمها العلوى مشهورة ، وهى أم قصائد كثيرة لشعراءِ المهاجَر الأمريكى ، وكان يعاصر ابن سينا أبو العلاء ، وديوانه - اللزوميات - يعكس فلسفته وتشاؤمه المرير وآراءَه فى العالم والمادة والزمان والمكان والخير والشر والجبر والاختيار ، وأفكارَه التى لا تكاد تحصى فى شئون الدين و الحياة والمجتمع والأخلاق . وكل ذلك نهض به عنده إيقاع تراثنا الشعرى ، بل لقد أضاف إلى هذا الإيقاع عقدة نغمية فى منتهى الصعوبة ، هى التزام حرف أو أكثر قبل الرويّ لا فى قصيدة واحدة ولا فى مجموعة محدودة من القصائد ، بل فى جميع قصائد ديوانه اللزوميات أو لزوم مالا يلزم بمجلديه الضخمين .

ولعلى لا أتجاوز الحق إذا قلت : إن القول بان إيقاع التراث الشعرى لم يعد يصلح للوفاءِ بواقع الأمة العربية لعصرنا فيه مبالغة وفيه قصور ، أمَّا المبالغة فلأن هذا الإيقاع استطاع أن يؤدِّى - على توالى العصور - كل ما عاشته الأمة العربية من حياة سياسية واجتماعية ومن ثقافة وفكر فلسفى و علمى ، ممَّا يؤكِّد أنَّهُ مُعَدٌّ - فى كل عصر - لكى يفى للأمة وشعوبها العربية بكل متطلباتها وحاجاتها السياسية والاجتماعية والفكرية والحضارية ،

وأما القصور فلأن كثيرين ممن يدَّعون هذه الدعوى يدفعهم إليها شعور عميق بأنهم لا يستطيعون أن يبلغوا – عن طريق الإيقاع الشعرى الموروث – غايتهم من أداءِ الحاضر وواقعه أداء شعرياً سديداً ، لا لأنه – فى ذاته – يستعصى على ذلك ، بل لأنه يستعصى عليهم الضرب المحكم على قيثارته وأوتارها المختلفة ، بحيث يستخرجون منها ما يشبه الأنغام التى طالما لذّت آذاننا وأفئدتنا كما لذَّت أسلافنا. وهى أنغامٌ تؤثر فى نفوسنا وأعصابنا تأثيراً شديداً .

ولا أريد أن أغضَّ من الشعر الحر وناظميه بعامة ، وخاصة أن نابهين منهم لا يَبْتُرُون التواصل بينهم و بين الإيقاع فى تراثنا الشعرى ، إنما أغضّ من نظم أولئك الذين يدعون– بشدَّة – إلى هذا البَتْر وأن تتقطع الأوصال بين حاضر الشعر الحر وذلك الإيقاع الموروث ، بل هم يريدون أن يَمحوا محواً كل صلة بينهما ، فهؤلاء هم الجديرون حقًا منا بالغضِّ من منظوماتهم التى يتداعى فيها بنيان الإيقاع الشعرى الموروث تداعياً بيِّنا .وأنا أُبسط ما حدث عند أسلافنا من تحولات فى هذا الإيقاع لم تلفه، بل كانت من عوامل تثبيته وترسيخه ، وأول ما كان من ذلك أن الشعراءَ العباسيين اشتقوا منه نمطاً للشعر التعليمى هو المزدوج ، والقافية فيه تختلف من بيت إلى بيت غير أنها تتحد بين كل شطرين متقابلين ، حتى يتلافوا بذلك مانقص من نغم

القافيـة.المطردة فى القصيـدة. واسـتعانـوا فى هذا الشعـر بـبحـر الرجز ، وهو من أوفر البحور الشعرية أنغاماً ليتلافوا ما نقص من نغم القوافى المتتاليـة المتحدة فى الروى . واشـتق العباسيـون من الإيقاع الشعرى الموروث نمطاً ثانياً هو الرباعيات ، وهى مقطوعات تتألف من أربعة شطور يتحد أولها وثانيها ورابعها فى القافيـة ، أمـا الشطر الثـالث فـقد يتـحـد مع تلك الشطور فى قـافيتـه وقـد يختلف وأعَدَّ هذا النمط من قديم لظهور الشعر الدورى فى العربية وفيـه تتألف القصيـدة من رباعيـات أو أدوار ، وقد تبلغ خمسين دوراً أو رباعيـة. و نمط ثالث اشتقه العباسيون من الإيقاع الشعرى الموروث هـو المسـمَّطات وهـى قـصـائد تتـألف من أدوار ، وكل دور يتـألف من أربعـة شـطور أو أكـثـر ، وتتـفق شطـور كلِّ دور فـى قافيتها ما عدا الشطر الأخير فإنه ينفرد بقافية مغايرة يلتزمها الشاعر فى جميع الشطور الأخيرة من كل دور. وعدَّد الأندلسيون الشطر الأخـيـر فى أدوار المسمَّطات ، فـجـعلوه شطرين أو أكـثـر والتزموا قوافى شطوره فى كل دور، وبذلك استحدثوا الموشحات التى اشتهروا بها والتى وضع قوانين عروضها الشاعر المصرى ابن سناء الملك ، فـأعـدَّها بذلك لتشيع فى العالم العربى جميعـه . وواضح أن كل تلك الأنماط الشعرية المستحدثة عند العباسيين والأندلسيين اشتُقَّت اشـتقاقـاً من الإيقاع الشعرى الموروث فى القصيدة العربية ، فلا تزال قائمة فيها جميعاً فكرة البيت وفكرة

الشطر وفكرة القوافى ، وإن خالفوا فيها بين قواف وقواف على نحو ما يتضح فى المزدوج و المسمّطات و الموشّحات جميعاً .

ونمضى إلى العصر الحديث ، و تنعقد الصلات بين أدبنا و بين الأدب الغربى ، و يكثر الحديث عن خُلُوّ الشعر العربى من الشعر القصصى والشعر التمثيلى عند الغربيين و يقال : إن من أسباب ذلك ارتباط شعرنا بنظام القافية ، و يقال : إنها العقبة الكأداء التى حالت بين شعرائنا وبين نظم الملحمات و المسرحيات ، وتنادى كثيرون: حطّموا سدود القافية وأسوارها ، ولبّى النداء توفيق البكرى وعبد الرحمن شكرى فى مصر .وجميل صدقى الزهاوى فى العراق ، فنظموا نماذج من الشعر المرسل ، ولم تظفر جميعاً بشئ من النجاح لنبوِّها عن الذوق العربى . وعاد شعراؤنا يستلهمون الأنماط التى تحدثت عنها من الشعر الدورى و المسمّطات والموشحات وانتشر ذلك فى البلاد العربية وفى المهاجَر الأمريكى ، وتقبّله الذوق العربى قبولاً حسناً ، إذ رأى الشعرَ الحديثَ فيه لا يزال موصولاً بإيقاع تراثنا الشعرى الذى ألفناه ، والذى تجد فيه نفوسنا متاعاً أى متاع.

وأنا إنما أسوق ذلك كله للمتطرفين من أصحاب الشعرالحر دعاة الانفصام عن الإيقاع الشعرى الموروث ، و كأنما يريدون لنا أن نبدأ

عالماً جديداً فى الشعر من فراغ أو من الصفر ، متناسين أنهم بذلك يحاولون استئصال الجذور الشعرية المتأصلة والراسخة فى تراثنا وأعماقنا وتكويننا العضوىّ ، والنفسى . وأكبر الظن أن فكرة الحداثة و التجديد هى التى جرّت إلى ذلك ودفعت إليه فقد شغف كثير من أصحاب الشعر الحر المتطرفين – وبخاصة بين الشباب – بأن يأتوا بحديث جديد لم يسبقوا إليه ، ونحن نحيى فيهم هذه النزعة ، غير أنه ينبغى أن لا تنتهى بفصم علاقاتهم بإيقاع التراث الشعرى ، بحجة الحداثة ولرغبة فى التجديد ، لأنه ليس كل حديث أو جديد يقبل أو يتحتم أن يقبل ، إذ الحداثة والجدة ليست قيمة شعرية ذاتية . فمن الحديث الجديد . ما نقبله ونرتضيه ، لأنه يتفق وأذواقنا ولا ينبو عنها أى نبو ، ومنه مالا نرتضيه ولانقبله ، لأن أذواقنا لاتُسيغه و تنفر منه نفوراً شديداً .

وأنا – مع كل ما ذكرت – لا أقول : إنه ينبغى أن لا يحدث أىّ تطور فى إيقاع شعرنا الموروث لأن التطور من سنن الحياة وهى متطورة متحركة دائماً ، وقد رأينا هذا الإيقاع يتطور عند الشعراء العباسيين والأندلسيين – كما أسلفنا – فى صور مستحدثة من الرباعيات والشعر الدورى والمسمّطات ، و الموشحات ، وهى صور تلتحم التحاماً وثيقاً بفكرة البيت والشطر فى إيقاع القصيدة الموروثة ، مع النفوذ إلى قواف متنوعة ، وهو ما نريده للشعر الحر

المعاصر بحيث يسيطر عند أفذاذه نظام موسيقى ، يعيد له غير قليل من روعة النسق النغمى والجمالى لتراثنا الشعرى . وابتداءً تظل فيه فكرة السطر بدلاً من البيت والشطر فى إيقاع شعرنا الموروث إذ هى جوهر إيقاعه الجديد ولبُّه ، ولكن لا يُتْرَكُ شاعره بعد ذلك حرًا طليقاً ينظم سطوره كما يشاء ويهوى على نحو ما نرى الآن ممَّا أحدث فيه ما يشبه الفوضى ، فإذا هو ساحة مفتَّحة الأبواب دون أى حجاب لمتشاعرين - لا يحصيهم العد ، وإذا غثاء منه لا حصر له يملأ الأجواءِ العربية. وهو ما يجعلنى ألحّ أن يتوفر له - مع التفعيلة التى تمتدّ فى سطوره- نظام نغمى جمالى من شأنه أن يغلق الأبواب دون ارتياده إلا للموهوبين من أصحاب الملكات الشعرية الخصبة الذين يستطيعون أن يردُّوا إليه حيوية الشعر العربى الموروث وغير قليل من جماله و بهائه.

وفى رأيى أن أول ما ينبغى على أصحاب الشعر الحر الموهوبين من إعادة النظر فيه فقدان كثير من منظوماته للقافية ، ولا أقول القافية الموحدة كما فى القصائد ، وإنما أقول القافية المنوّعة كما فى المسمّطات والموشحات والشعر الدورى . ويحتج كثيرون من أصحاب هذه المنظومات بأن التزام القافية المنوّعة قد يدفع الشاعر إلى اقحام زوائد تخلخل المعانى فى المنظومة الشعرية وما ينبغى لها من تركيز ، إذ تضطره إلى أن يجتلب ألفاظًا لا تحتاجها

المعانى، ممَّا يجعلنا نشعر كأن ترهلاً دخل على السطر فى المنظومة، فأفسد صياغتها ، وأصابها بغير قليل من الركاكة . ومن المؤكد أن ذلك لا يحدث لشاعر موهوب ممتاز ، إنما يحدث لشاعر ضعيف أو متشاعر يجف نبع شاعريته إزاءَ المعانى قبل وصوله إلى القافية المنوعة المنشودة ، فلا يستطيع إكمال سطوره إلا بملحقات وإضافات لا حاجة إليها ، ومثله لا يكون شاعراً يستحق هذا الوصف إنما يكون شويعراً أو متشاعراً ، وينبغى أن تغلق أبواب الشعر الحر أمامه. وبدون ريب لا تصادف هذه الصعوبة الشاعر الجدير بإطلاق اسم الشاعر عليه ، وهل يستطيع أحد أن يقول : إن شاعراً فذًّا من شعراءِ تراثنا الشعرى - مثل امرئ القيس فى الجاهلية ، وجرير فى العصر الإسلامى ، والبحترى فى العصر العباسى ، و المتنبى فى عصر الدول والإمارات ، وشوقى فى العصر الحديث - كان يصعب عليه الوصولُ إلى قوافيه فى أبياته إلا إذا أضاف إليها زوائد كثيرة ؟ إن ذلك لا يصدق على أحد منهم ولو سجَّل النقاد على أحدهم أبياتا من هذا الطراز السقيم لا تتجاوز أصابع اليدين - بل اليد الواحدة - لسلقوه بألسنة حِداد وشككوا فى موهبته الشعرية ، وأثاروا عليه حملات شعواء لا تهدأُ أبداً . ومعروف أن الشاعر لا يفكر - مثل الناس العاديين - بألفاظ ثم يصوغها صياغة موسيقية، بل ينشأ فى نفسه المعنى بصيغته الموسيقية الكاملة. وبذلك يسقط كلُّ ما يقال من أن القافية من شأنها أن تحدث ترهلاً ، أو خلخلة فى

المعانى الشعرية وفى رأينا أنها - على العكس - تحكمها وتضبطها وتمسكها بزمام نغمى يستوفى المعنى فى كل بيت من أبيات الإيقاع الشعرى الموروث وأيضا فى كل سطر من سطور إيقاع الشعر الحر وعندها يتضح رنين النغم وقراره سواءً فى القافية الموحدة والقافية المنوَّعة.

ولا أشك فى أن أخطر ما يهدد منظومات الشعر الحر خلوها من القافية المنوَّعة ، ومن زمن بعيد ألحُّ على عودتها إلى تلك المنظومات. لأنها ظلت - كما ظلت أُختها الموحَّدة - تُعَد ركناً أساسيا فى شعرنا - على توالى العصور - بحيث إذا سقطتا جميعاً منه أحسسنا كأنما خَرَّ أو تداعى من قواعده . ومِمَّا يوضِّح - بقوة - شغف الأجيال العربية السالفة بالقافية أنهم عمموها فى النثر على نحو ما نعرف عن السجع الذى شاع وساد فى أوساط الكُتَّاب منذ القرن الرابع الهجرى ، وبه كتب الحريرى مقاماته التى ظلت - حتى أوائل هذا القرن - مَهْوَى الأفئدة. وأكبر الظن أننى لا أغلو إذا قلت : إن من الصعب أن تُسيغ الأجيال العربية المعاصرة منظومات الشعر الحر التى تخلو من كل أثر للقافية خلواً تامًّا ، لما نشأت عليه من المتاع بإرنانات القوافى الموحدة والمنوَّعة فى الشعر والسجع جميعاً .

وحرى بى أن أُشير إلى أن بعض النابهين من أصحاب الشعر الحر أخذوا يحسون بذلك إحساساً عميقاً، ممَّا جعلهم يحاولون التحام إيقاعهم الجديد بإيقاع الشعر الموروث في قوافيه المتنوعة المعروفة فى الشعر الدورى و المسمَّطات والموشحات، وبذلك أخذ نغم السطر فى منظوماتهم ينتهى بقرار القافية المنَّوعة متقابلة ومتعانقة . وأرى أنه ينبغى أن يستتموا هذا الالتحام – بين إيقاعهم والإيقاع الموروث بالتقاءِ عدد التفاعيل فى السطر من منظوماتهم بعددها القديم فى الشطر والبيت، بحيث يصبح لإيقاعهم نظامٌ محكم من عدد التفاعيل ونسبها فى السطور، فلا يتألف سطر فى منظومة من تسع تفعيلات وسطر تال من تفعيلة واحدة، بل إذا بدأ صاحب المنظومة مثلاً بتفعيلتين لم يزد فى السطور التالية عن ست تفعيلات على الأكثر . وهو ماأطمح إلى تعميقه فى منظومات الشعر الحر بحيث تتواصل تشكيلاتها مع التشكيلات الموسيقية فى تراثنا الشعرى، ولكن لا بحيث تصبح صورة موسيقية منها طبق الأصل، بل بحيث يصبح للإيقاع الجديد فيها نسق موسيقى سوىّ.

ولم أعرض – حتى الآن – لما تفقده صياغة الشعر الحر – فى كثير من منظوماته – من الخصائص و القيم الجمالية لشعرنا الحر الموروث، وكأنى بكثيرين ممن يتجهون بها هذه الوجهة يظنون أن من يتذوقّون هذه القيم و الخصائص آخذون فى الاختفاء أو

الانقراض بين جماهيرنا العربية المعاصرة لانشغال تلك الجماهير عنها بالاختلاف إلى السينما أو دور الخيالة و الاستماع إلى الإذاعات ورؤية التليفزيون وقراءَة الاخبار اليومية المحلية والعالمية فى الصحافة ، وكأنهم – من أجل ذلك –لايأبهون لروعة الصياغة الشعرية .وليس ذلك الظن بصحيح ، فإن قرّاء منظوماتهم سيظلون – مثل أسلافهم – يتذوقون تلك الروعة ويشغفون بها ، و ستظل تمتعهم متاعاً باقياً.

وكثيرون من أصحاب الشعر الحر الذين نفتقد فى منظوماتهم تلك الروعة الجمالية فى الصياغة يدافعون عن موقفهم بأن التمسك بها يئول بالشعر الحر إلى تكرارصيغ محفوظة فيه يردِّدها الشاعر كالببَّغاء ، فلا يكون ناطقاً عن حاضرة ، إنما يكون ناطقاً عن أسلافه . وليس بيننا مَنْ يرتضى من شاعر أن يكون شعره صيغاً محفوظة أو معادة من أشعار الأسلاف يجترُّها – للتعبير عن حاضرة وواقعه المعاصر ولا أدرى من أين جاءَهم هذا الفرض أو ذلك الظن ، وهو لم يحدث يوماً فى نفس تراثنا الشعرى عند أعلامه ، بل إن كلاً منهم تميَّز بصياغة خاصة به انفرد بها بين معاصريه وسالفيه وخالفيه ، وهل من شك أن صياغة زهير لا تماثل صياغة امرئ القيس فى العصر الجاهلى ، بل لكل منهما صياغته المستقلة وبالمثل صياغة الفرزدق بالقياس إلى صياغة جرير فى

العصر الأموى ، وصياغة أبى تمام بالقياس إلى صياغة البحترى فى العصر العباسى . وهذا نفسُه يلاحظ فى عصر الدول والإمارات فليست صياغة المتنبى تماثل صياغة الشريف الرضى فى العراق ، وبالمثل صياغة ابن سناءَ الملك بالقياس إلى صياغة البهاءَ زهير فى مصر ، وصياغة ابن زيدون بالقياس إلى صياغة ابن خفاجة فى الأندلس و يلاحظ ذلك أيضا فى العصر الحديث ، فليست صياغة شوقى تماثل صياغة حافظ إبراهيم فى مصر ، وبالمثل صياغة جميل صدقى الزهاوى بالقياس إلى صياغة الرصافى فى العراق . فلكل شاعر عربى نابه قديم أو حديث من شعراءِ الإيقاع الموروث صياغته المتميزة المتفردة المستقلة فى كل العصور وفى كل الأقطار .

فدعوى أن التمسك بالخصائص و القيم الجمالية لتراثنا الشعرى من شأنها أن تعطل عند ناظم الشعر الحر - إذا تعلَّق بها - تعبيره عن حاضره وواقعه لانشغاله بصيغ محفوظة مكررة دعوى غير صحيحة ، لأن الصيغ المكررة المحفوظة شئ والقيم والخصائص الجمالية شئ آخر ، وقد تمسَّك بها شعراء العربية على مر الزمن ،
ولم يحدث أن جارت عندهم على حاضرهم ولا على واقعهم ولا على ١
مشاعرهم الذاتية أو الوجدانية ولا على تأملاتهم فى الكون و الحياة الإنسانية وأيضاً لم يحدث أن حالت أشعارهم أو جوانب منها إلى

صيغ متداولة بين الشعراء يستظهرونها ويحفظونها و يستعيدونها دون أى تحوير ، شئ من ذلك كله لم يحدث ، إنما الذى حدث فعلا هو بقاء الخصائص و القيم الجمالية متألقة فى تراثنا الشعرى على اختلاف أمصاره و تفاوت أعصاره ، حتى أصبحت جوهراً ثابتاً فى كيانه و كيان تذوق العرب للشعر والإحساس الدقيق بروعته ، مما جعل شعراءهم يكبُّون عليها فى إصرار ، محاولين - بكل ماوسعهم - أن يستوعبوا مقوماتها وأسرارها ويتمثلوها تمثلا دقيقا، حتى يبثوا منها فى صياغاتهم الشعرية ما يكفل لها حينا الجزالة والرصانة والنصاعة ، و حينا الرقة و السلاسة والعذوبة.

ولعلى لا أعدو الحق إذا قلت إن مسألة الصيغ و المعانى المحفوظة المكررة المعادة إنما يشوِّش-بذكرها و التلويح بها - مَنْ تقصر قدراتهم من أصحاب الشعر الحر عن تمثيل الخصائص و القيم الجمالية لتراثنا الشعرى التى ظل شررها يتوهج فيه - طوال العصور الماضية - من جيل إلى جيل ومن شاعر مبدع إلى شاعر مبدع . على أنه يلاحظ - من جهة أخرى - أن هذا التكرار للصيغ والمعانى الذى أكثر من الحديث عنه بعض أصحاب الشعر الحر مشفقين على منظوماته أن يتسرب إليها منه شئ أخذت تشيع أسراب منه فى تلك المنظومات ، بل إن ذلك ليأخذ- وخاصة عند الشباب من أصحابها - شكل سيلٍ جارف ، وهو سيل منشؤه

التقليد لرواد الشعر الحر فيما صوروه من الضنك والبؤس والحرمان والطغيان والتسلط المطلق والظلم والاستبداد واختلال الموازين وفقد الحريات مع ما يشيع فى ذلك من الحسرات واللوعات ، وكأنما نضب المعين الذى يستمدون منه منظوماتهم فعادوا يتداولون ما سبقهم إليه الرواد من المعنى والصيغ، ومضوا يبدئون فيها ويعيدون و يرددون ويكررون إلى درجة مملة.

وفى رأيى أن هذا التقليد عند أصحاب الشعر الحر وما يسرى فيه من التكرار الممل يقوم عائقاً كبيراً فى مسيرته ، وليس هو العائق الوحيد الذى يعترضها ، فبجانبه عوائق متعددة جلبتها الرغبة الشديدة فى الحداثة ، منها أنهم تقيدوا فى منظوماتهم بالأوزان الشعرية ذات التفعيلة الواحدة فضيّقوا على أنفسهم الأبواب الموسيقية التى يسلكونها إلى نظم شعرهم الحر ، مما يضفى على موسيقاهم رتابه تدفع إلى الملل ، ومعروف أن للعروض العربى بجانب هذه الأوزان التى تقيدوا بها أوزاناً ذات تفعيلتين ، ومن هنا كان الشاعر المتمسك بالتقاليد التراثية أكثر حرية من أصحاب الشعر الحر فى استخدامه لأنماط عروضية متنوعة . وقد أحسَّ بعض أصحاب الشعر الحر بعمق هذه الرتابة المملة فى استخدام تفعيلة واحدة تطرد فى المنظومة جميعها ، فرأوا أن يضيفوا إليها تفعيلة أو أكثر من أوزان أخرى دون رجوع - بدقة - إلى الأوزان

العروضية ذات التفعيلتين ، فاضطربت الموسيقى فى منظوماتهم ، وسادتها الفوضى ، و كأننا أصبحنا بإزاء ضوضاء موسيقية لانسق لها ولا نظام ضوضاء تؤذى الآذان المرهفة.

وعائق ثالث نصبته الحداثة فى مسيرة الشعر الحر هو عائق الغموض الشديد ، بحيث نقرأ بعض منظوماته فلا نكاد نفهم شيئاً لما ينتشر عليها من ضباب صفيق ، بل أحيانا من ظلام مطبق ، يغشى جميع سطورها بحيث يكاد قارؤها ييأس يأساً تاما من انكشاف المعانى المختبئة فيها وراء حجب وأستار كثيفة ، إذ التفَّت فى رموز متراكمة يتعاقب بعضها فى السطور وراءَ بعض ، بحيث يصعب نفوذُ القارىء منها إلى أى مدلول خَبِىء إلا أن يضرب فى تيه من التخمينات والظنون . ونحس فى أحوال كثيرة كأن صاحب المنظومة المغلَّفة بتلك الرموزشَعر يخيبه أمل لا حدود لها فى أن يفصح عما فى نفسه فغاب عنه حسه وشرد لبّه ، واقتطع من ذلك منظومته ، فبدت وكأنها أشبه بطلاسم لقلب موجع محزون ، وهى طلاسم من شأنها أن تصرف الناس عن قراءَة الشعرالحر فضلا عن منظوماته المبهمة المطلسمة .

وعائق رابع هو أخطر العوائق التى تعترض مسيرة الشعر الحر ، بل هو أكثر من عائق ومعرقل لهذه المسيرة ، بل هو حاجز

مانع لها أشد المنع من أى خطوة تريد أن تخطوها ، إذ يحاول - جاهداً - أن يقفها عن الحركة نهائياً بخنقه لموسيقى الشعر الحر خنقاً ، بحيث لا تبقى فيه أى بقية من إيقاع الشعر و نغمه ، ونقصد ما سماه بعض أصحاب الشعر الحر الموغلين فى الحداثة باسم القصيدة النثرية ، وهى قصيدة تفقد جميع الوشائج التى تصل بينها و بين الشعر الحر ، إذ سقطت فيها التفعيلة عماده ، بل انتزعت منها انتزاعاً ، وهوت إلى غير مآب .. وهو تماد فى الحداثة إلى أقصى حد ، و كأنى بهم يقصدون إلى ذلك قصداً ، حتى يستقرٌ فى الأذهان أن ما يسمى بعروض الشعر العربى وبتفاعيله إنما هو لغو و هراء ما بعده هراء . و نعجب أن يسمّى هذا الصنيع قصيدة نثرية وهو ليس فيه أى سمة من سمات القصيدة العربية ، إنما هو لون من ألوان النثر الخالص وإن دل على شىء فإنما يدل على تخبط أصحابه فيما يبتغون من حداثة.

وواضح مما قدمت أنه - لكى تطرد الحركة فى مسيرة الشعر الحر - يتحتم أن يُنَحَّى عن طريقها ما سُمِّىَ بالقصيدة النثرية - ، وينبغى رفع العوائق التى تعترضها من التكرار المسرف لمعانى المنظومات عند الرواد و صيغها ، ومن التقيد بأوزان عروضية دون أوزان ، ومن الغموض المفرط فى المنظومات . ولابد - فى رأيى - من الالتحام الوثيق والتفاعل الحميم بين إيقاع الشعر الحر وإيقاع

تراثنا الشعرى ، بحيث يعمم ناظموه فى نهايات سطوره القافية المنوعة ، مع العناية بنسب مقدَّرة فى تفاعيل السطور ، ومع جمال الصياغة وروعة الأداء .

اشتقاق الأفعال من أسماء الأعيان
العربية والمعرّبة

معروف أن اللغة العربية لغة اشتقاقية تنمو مادتها وتتضاعف عن طريق الاشتقاق ، ومكّنتها هذه الظاهرة قديماً من استيعاب مصطلحات العقيدة الإسلامية وشريعتها فى القرآن الكريم والحديث النبوى ، وأخذت تتسع بها بحيث استوعبت مصطلحات العلوم الإسلامية فقها وغير فقه وعلوم اللغة العربية نحواً وغير نحو ، ولم تلبث أن استوعبت علوم الأوائل طباً وغير طب ، بحيث أصبحت العربية تقود العالم علمياً وحضارياً ستة قرون أو تزيد .

وتوضح هذه السعة فى اشتقاقاتها موادها اللغوية فى المعاجم الكبرى إذ نجد المادة تفتح فى معجم مثل لسان العرب وتتوالى بها اشتقاقات الأفعال والأسماء فى صحف متعاقبة ، فمادة مثل " علا " تتوالى اشتقاقاتها فى سبع صفحات كبيرة وبكل صفحة ثلاثة أعمدة ، بحيث لو طبعت فى كتاب من قطع ٧٠٪ تشغل منه نحو عشرين صفحة ، وتشغل اشتقاقات مادة " رأى " فى اللسان ثمانى صفحات ، أما مادة عَرَضَ واشتقاقاتها فتشغل فيه ثلاث عشرة صفحة بل تزيد ، أى أنها لو طبعت مستقلة لشغلت كتّيباً صغيراً فى نحو خمسين صفحة .

وتنبه ابن جنى إلى جمع مواد معجمية فى معنى واحد عن طريق ما سماه الاشتقاق الأكبر " وهو أن تأخذ أصلا من الأصول الثلاثية فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا تجتمع التراكيب الستة عليه وما يتصرف من كل واحد منها عليه وإن تباعد شيء من ذلك عنه رُدَّ بلطف الصنعة والتأويل إليه كما يفعل الاشتقاقيون ذلك فى التركيب الواحد". ويطبِّق ذلك على مادة "كلم" وتقاليبها : كمل ، ومكل ، وملك ، ولكم ، لمك ويقول إن تقاليبها الستة تدل على معنى واحد هو القوة والشدة ، ويطبق ذلك على مادة " قول " وتقاليبها : قَلو ، ووقَل ، وولَق ، ولقْو ، ولوقَ وأن هذه التقاليب الستة ويقول إنها تدل على معنى واحد هو الإسراع والخفة . وطبق ابن جنى ذلك على كلمات أخرى دالاً بها على سعة الاشتقاق فى العربية ، إذ لا تقف عند الاشتقاق الأصغر المألوف لنا فى كتب النحو ، وهو أخذ كلمة من كلمة مع تناسب فى المعنى واللفظ وترتيب الحروف . وعَرَض لصور كثيرة تدل على سعة هذا الاشتقاق بدوره إذ تشتقه العربية فى الأفعال من الحروف مثل لولا ولا وسوف ، فيقال سألتك حاجة فلوليتَ لى أى قلت لى لولا متعللا، وسألتك حاجة فلاليتَ لى أى قلت لى لا ، وقالوا سوَّفتَ الرجل أى أخَّرته ومطلته من سوف التى تخصص المضارع للاستقبال.

ويذكر ابن جنى من ذلك أيضًا حرف الجواب " نعم " إذ اشتقوا منه " نَعَّمْتُ الرجل أى قلت له نعم " . ويردُّ كلمات النِّعْمة والنَّعْمة

والنعيم والتنعيم ونعمت به بالا وتنعَّم القوم والنُّعْمى والنَّعماء وأنعمتَ به ، كل ذلك يردُّه إلى معنى نعم وأنها تسر النفس . وكتب الأسلاف كتباً كثيرة عن الاشتقاق ذكرها المرحوم الأستاذ عبد الله أمين في كتابه الرائع عن الاشتقاق ، وقد خص الاشتقاق فيه من أسماء الأعيان بنحو مائة صفحة انتفعت بها في هذه الكلمة القصيرة .

وكلنا نعرف أن العربية ثرية ثراء واسعاً في الأفعال ومشتقاتها وأن الجذر في الماضي الثلاثي وهو صيغة فعل تشتق منه ثلاثة أفعال بزيادة حرف ، هي : أفعل - فعَّل - فاعل ، وخمسة أفعال بزيادة حرفين هي : افتعل - تفعَّل - تفاعل - انْفَعل - افعلَّ ، وثلاثة أفعال بزيادة ثلاثة أحرف هي : استفعل - افْعَوعَلَ - افعالَّ وللماضي الرباعي جذر هو فَعْلَل ، ويشتق منه فعل بزيادة حرف هو: تَفَعْلَل ، وفعلان بزيادة حرفين هما : افعللَّ - افَعْنَلل . ويستقصي النحاة في كل صيغة من هذه الصيغ معانيها
واستعمالاتها .

ويشتق من صيغ الفعل اسم الفاعل وله صيغتان قياسيتان ، وأسماء المبالغة ولها ثلاث صيغ قياسية واسم المفعول وله صيغتان، والصفة المشبهة وأكثر صيغها سماعية ، واسم التفضيل وله صيغة واحدة هي أفعل ، وفعل التعجب وله صيغتان : ما أفعله - أَفْعِلْ به ، واسم الآلة وله خمس صيغ قياسية ، هي - مِفْعل - مِفْعلة - مِفعال -

فاعلة – فعَّالة . وهذه الصيغ بدورها هى ومعانيها واستعمالاتها مفصلة فى كتب النحو واللغة.

وكل ذلك كتبته مقدمة للنظر فى اشتقاق الأفعال من أسماء الأعيان أو بعبارة أخرى من الأسماء الجامدة العربية والمعرَّبة ، ورجعت إلى قرار للمجمع فى اشتقاق الأفعال من الاسم الجامد المعرب فوجدته على الصورة التالية .

فى الاسم الجامد المعرب :

يُشْتَقُّ الفعل من الاسم الجامد المعرب الثلاثى على وزن " فعَّل " بالتشديد متعديا ولازمه " تفعَّل "

ويشتق الفعل من الاسم الجامد المعرب غير الثلاثى على وزن "فعْلل" ولازمه " تَفَعْلَلَ " .

وفى جميع المشتقات يقتصر على الحاجة العلمية ، ويعرض ما يوضع منه على مجلس المجمع للنظر فيه . وبذلك تكون الأفعال التى أجاز المجمع اشتقاقها من الأسماء الجامدة المعربة أربعة ، هى: فَعَّل – تَفَعَّل – فَعْلَل – تَفَعْلَل . ورأيت أن أعرض صيغة الماضى الثلاثى على طائفة من أسماء الأعيان العربية والمعربة قديماً ، وبدأت برأس الإنسان ووجهه ، فاتضح لى اشتقاق الماضى الثلاثى منهما على هذا النمط :

الـــــرأس : منه رَأَسَه : أصاب رأسه – ورَأَس القوم يرأسهم رئاسة .
الشَّــعَــر: منه : شَعِرَ : طال شعره – شَعَر الشيء : بطَّنه بالشعر.
الـوجـــــه : منه : جَاهَ فلانا يجوهه : استقبله – تَجَه إليه : اتجه – وَجُه : صار ذا قدر .
الجـبـهـة : منها : جَبَهه : رده عن حاجته – جبهه : واجهه .
الـــعـــين : منها : عَيِنَ : اتسعت عينه – عانه : حسده .
الأنـــــف : منه : أَنِفَ : وجعه أنفه – وأنف الشيء : تنزه عنه .
الـــفـــم : منه : فاه بالقول : نطق به – فَوِهَ : اتسع فمه ومنه الأفوه : الفصيح .
الـــســـن : منه : سَنَنْته : عضضته .
الخيشوم : منه : خَشِم : مرض خيشومه ويسمى المرض خُشاما والمريض أخشم.
الأذن : منه : أَذَنه : آلم أذنه – أذنَ الأذان : نادى به .

وبقية أعضاء الانسان على هذا النحو تشتق منها أفعال ماضية ثلاثية . وأتركها الى اشتقاق الماضى الثلاثى من أسماء الحيوانات الوحشيه والمستأنسة والطير والحشرات المجنحة :

الأســــــــد :اشتق العرب منه أَسِدَ : تجرأً مثل الأسد .
الـــذئـــب :اشتقوا منه ذَئِبَ الرجل وذؤب : صار كالذئب خَبِثًا.
الـنـمـــــر :اشتقوا منه : نَمِرَ الرجل : ساء خلقه كالنمر .

الإبـــــــل : منهـا : أَبَلَت الابل بالمكان : أقـامت – أَبِلَ الرجل : أحسن رعاية إبله وكثرت .

الـثـــــــور: منه : ثار ثوراً وثوراناً : هاج .

الـفـــــــرس : منه : فَرُس فراسة وفروسة وفروسية : حذق ركوب الخيل – الفارس : الماهر فى ركوبها .

الـــغـــنـــم : منـه : غَنِمَ الشئ حـرباً أو سلمـاً : فـاز بـه . والمغنم والغنيمه : مايؤخذ فى الحرب قهراً .

الـــكـــلـــب : منـه : كَلِبَ : ضَرِىَ – كَلِبَ : أصابه داء الكلب – كلب شخصاً : عضه .

الـنـســـــر : منـه : نَسَر اللحم : قطعه – النُّسيِرة : القطعة من اللحم – المِنْسر : منقاره.

الـــقـــطـــا (شبـه اليمـام) منه : قطا : صوّت – وقطا : ثقل مشيه ، اقطوطت القطاة : صاحت .

الـبـــــــازى : (من الصقور) منه : بزا يبزو : غلب وقهر وبطش.

الـــنـــحـــل : (عسل النحل) منـه : نَحَله مـالا : أعطاه – نحله شعرا : أضافة إليه . ومنه النحل والنحلة : الهبة .

وأسماء أعيان كثيره رباعية وخماسية وسداسية ردها العرب إلى ثلاثة أحرف واشتقوا منها الماضى الثلاثى ، نذكر منها :

الـعـــــقـــــاب : (من الجوارح) : عَقَبَ صيده : تتبعه .

الـطـحـــــــال : منه : طَحَلَ : عظم طحاله أو مرض به .

الحصان :منه : حَصَنَ المكان فهو حصُين ، ويقال خيل العرب حصونها .

الجراد :منه : جَرَدت الجراد النبات أكلته .

الهراوة :منها : هَراه بالعصا يهريه : ضربه ضرباً مؤلماً .

الناصية :منها : نَصاه : قبض على ناصيته .

الحصباء :منها : حَصبه بالحصباء رماه بالحصا .

الدقعاء (التراب) :ومنه : دَقَع الرجل لصق به – دقع : افتقر.

النافقاء (جُحر اليربوع) : يقال نَفَق اليربوع : دخل فى نافقائه أى جحره .

وبجانب اشتقاق الأفعال الماضية الثلاثية من أسماء أعيان ثلاثية وغير ثلاثية نذكر اشتقاقها من أسماء أعيان أعجمية وبعبارة أخرى من أسماء جامدة معرَّبة ونكتفى بما يلى :

إبْزيم : وهو " عروة معدنية " بأحد طرفيها لسان يشد به حزام ، ومنه بَزَم على الأمر : عض عليه بأسنانه .

أقحوان :زهر أبيض أو أصفرْ ورقه مسنن .

منه قَحا الدواء جعل فيه الأقحوان فهو مقحوٌّ بحذف الهمزة والألف والنون .

البرج :الحصن وواحد من بروج الفلك ، ومنه بَرَج الشيءُ أو البناء : ارتفع .

البلاط :ومنه بَلَط الأرضَ : فرشها بالبلاط .

الديباج :قماش حريرى . ومنه دَبَج المطر النبات لوَّنه ألواناً

- دبّج الشيءَ : نقشه وزينه بحذف الياء والألف .

البريد : فرسخان وتسمى به الرسل على الدواب . ومنه بَرَد بريداً أى أرسل رسولاً .

الزَّبور : كتاب داود والمكتوب مطلقاً ، ومنه زبَر الكتاب : كتبه - وزبره : قرأه .

الصَّنْج : آلة موسيقية ، ومنه صَنَج ضرب بالصنج .

القِسِّيس : ومنه قَسَّ : صار قَسًّا بحذف الياء والسين .

لجام الفرس : منه لَجَمه : وضع اللجام فى فمه .

المنجنيق : من آلات الحرب القديمة كانت تقذف بحجارته الأسوار ، ومنه جَنَق : رمى بحجارة المنجنيق الثقيلة بحذف الميم والنون الأولى والياء .

الناقوس : مضراب النصارى للصلاة ، ومنه نَقَس الناقوسُ : صَوَّت - نقس شخص الناقوس : قرعه .

وواضح مما ذكرت أن الماضى الثلاثى كان يشتق بكثرة لازماً ومتعدياً من أسماء الأعيان أو الأسماء الجامدة العربية والمعربة . وفى رأيى أن صيغة الماضى أفعل بزيادة الهمزة فى أولها لا تقل عن صيغة فعل صلاحية لاشتقاقها من أسماء الأعيان أو الأسماء الجامدة العربية لدلالتها كثيراً على الصيرورة، وأذكر من ذلك الاشتقاقات التالية :

الزهر: أزْهَر النبات صار مزهرا أو ذازهر .

الثمر: أثمرت الشجرة صارت ذات ثمر أو مثمرة .

العُشْب : أعشبت الارض صارت معشبة .

ثلاثة : أثلث صاحبيه صار ثالثهم .

الذئب : أذأبت الأرض : صارت ذات ذئاب .

القمر : أقمر الهلال : صار قمراً

الورق : أورق الشجر : صار مورقا .

أبرق السحاب : صار ذا برق .

أرعد السحاب : صار ذا رعد .

أصبح الرجل : صار فى الصباح .

أمسى الرجل : صار فى المساء .

أضحى الرجل : صار فى وقت الضحى .

أسحر الرجل : صار فى وقت السحر .

الدلو : أدلى الدلو : صيرها متدلية فى البئر .

السنبله : أسبل القمح : صار ذا سَبلٍ أو مسبلاً .

الرطب : أرطبت النخلة : صار بلحها رطباً .

الظلمة : أظلم الليل : صار مظلماً .

أتهم : صار فى تهامة على ساحل البحر الاحمر .

أنجد : صار فى نجد داخل الجزيرة العربية .

الأفعوان : أفْعَى الرجل صار ذا شر مثل الأفعوان ، وُردَّت الكلمة إلى أربعة أحرف.

مثل ذلك فى صيغة أفعل كثير . ونراها تشتق أيضاً من الاسم

المعرَّب مثل :

الأقحوان : يقال أقحت الارض مثل قحا السالفة : اذا أنبتت الأقحوان .

البريدُ : يقال أبرد رسالة أى أرسلها مثل برد .

البلاط : يقال أبْلَطَ الارض بالبلاط مثل بلطها .

القُفْل : يقال أقفل الباب إذا صار مقفلا .

اللجام : يقال ألجم الفرسَ أى صيرها ملجمة مثل لجمها .

ولعل فى ذلك ما يكفى لاشتراك صيغة أفعل مع الصيغ المجمعية فى الاشتقاق من الأسماء الجامدة المعربة . ومما يأتى على شاكلتها من الأفعال متضمنا الصيرورة صيغة استفعل ، ومن أمثلتها :

الأسد : ومنه : استأسد مثل الأسد فى الجرأه .

العرب : ومنه :استعرب : دخل فى العرب وعد نفسه منهم .

الغلة : ومنها : استغل عمل الشخص : صير غلته وكده لنفسه.

الهدف : ومنه : استهدف الشىء : جعله هدفاً له .

الفيل : ومنه : استفيل الجمل : صار مثل الفيل فى الضخامة .

الناقة : ومنها : استنوق الجمل : صار مثل الناقة فى الهوان .

الأنس : منه : استأنس : صار أنيسا .

البحر : منه : استبحر فى العلم : صار بحرا فيه .

البصيرة : منها : استبصر فى الأمر : صار ذا بصيرة فيه .

الجِدّة :منها : استجد الشىء : صار جديداً .

الجمـــــــــع : منه : استجمع الماء من كل صوب : صار مجتمعاً .

الـــــــــروض : منه : استروضت الأرض : صارت روضاً .

الســـــــــر : منه : استسر الأمر : صار سرا خافياً .

الكـــــــــبر : منه : استكبر : صار متكبراً .

العصـــــيان : منه : استعصى : صار عاصياً .

العظـــــــمة : منها : استعظم : صار متعاظماً .

العلـــــــــو : منه : استعلى : صار عالياً .

الغلـــــــــظ : منه : استغلظ النبات : صار غليظاً .

الكـــــــــلأ : منه : استكلأت الأرض : صارت كلأ وعشياً .

المجـــــــــد : منه : استمجد : صار ماجداً .

ووراء هذه الأمثلة فى المعاجم أمثلة كثيرة لاشتقاق صيغة استفعل التى بمعنى الصيرورة من الأسماء الجامدة فى العربية مما يؤذن باستخدامها مثل الماضى الثلاثى والمزيد بهمزة فى الاشتقاق من الأسماء الجامدة والمعربة . واستخدام هذه الأفعال الثلاثة فى الاشتقاق من تلك الأسماء يتيح شيئاً من السعة فى تعريب المصطلحات الأجنبية ، وهى سعة يتطلبها – فى رأيى – تكاثر تلك المصطلحات العلمية المجمعية المعربة فى السنوات الأخيرة ، والمأمول أن تستكمل تعريبها بما يهيأ لها من الرسوخ فى الأفعال والأسماء المشتقة المتفرعة عنها فى العربية . »

بين
الفصحى والعامية المصرية

نشأت عندنا منذ أواسط القرن الماضى فصحى عصرية تخلو من الألفاظ الحوشية الغريبة ومن الألفاظ المبتذلة ، فصحى وسطى بين لغة الخاصة الذين يستخدمون السجع ويفسحون لبعض الألفاظ العربية فى كلامهم ، ولغة العامة التى تمتلىءُ بالمبتذل من الألفاظ والركيك من الأساليب ، فصحى تقترب من لغة الحياة اليومية ، بحيث لا تعلو عن أفهام الناس ، وتحتفظ بشىء من جمال الفصحى بحيث يسيغها الناس لسلاستها . وكان للصحف التى نشأت فى القرن الماضى أثر عميق فى شيوع هذه الفصحى العصرية التى أخذت نشيعها وتعرضها يوميا على الجماهير المصرية وأخذ الاتساع فى التعليم الذى اقترنت به يساعدها فى تمكينها من الانتشار والذيوع لا فيه فحسب ، بل أيضًا فيما أخذ يترجمه وينقله إلى العربية أفذاذ المترجمين ، وأيضًا ما يكتبه أفذاذ الكتاب والشعراء .

وكلما أمضينا شطراً فى القرن العشرين أخذت هذه الفصحى تزداد تمكنًا واستقرارا فى الألسنة عن طريق كتابات أمثال :

المنفلوطي وخطابة الخطباءِ السياسيين البارعين أمثال : *سعد زغلول* وأقرانه . وأخذ النثر المصرى ينهض نهضة رائعة ثبت أركانها أربعة من كبار كتابنا الصحفيين السياسيين : المازنى ومحمد حسين هيكل والعقاد وطه حسين ، بما كتبوا من مقالات أدبية وسياسية واجتماعية وما ترجموا من عيون الأدب الغربى قصصه ومسرحياته ، وما أنتجوا هم أنفسهم من أعمال قصصية وغير قصصية ، وكل ذلك كتبوه بالفصحى العصرية المبسطة وحاكاهم فى الكتابة بها جيل الأدباءِ الذى عاصرهم وما خلفه من أجيال . ولم تلبث الجامعة الحكومية أن تأسست وخرّجت صفوة من شباب الأدباءِ والعلماء أخذت تسهم فى استخدام هذه الفصحى العصرية المبسطة ، وسرعان ما نشأت الإذاعة المصرية وأخذت بدورها فى الاتساع بنطق الفصحى العصرية .

ومع كل ما حققته الفصحى العصرية من نهضة كبيرة فى المقالة على اختلاف ألوانها سياسية واجتماعية وأدبية. وفى القصص والأقاصيص والمسرحيات سوى ما حققته فى الشعر عند حافظ وشوقى وجيلهما، والأجيال التالية ، مع ذلك كله لا تزال العامية لغتنا اليومية فى البيت وفى السوق وفى المصنع، ومن يتابعها منذ أوائل هذا القرن العشرين إلى اليوم ـ يجدها اقترضت كثيراً من ألفاظ الفصحى العصرية فى السياسة وفى الاجتماع وفى كثير

من شئون حياتنا ، فهى تلوذ دائماً بالفصحى وتحاول اللحاق بها . وليس بصحيح أن هناك قطيعة بينهما ، بل إن العامية لتلتحم بالفصحى فى مئات ، بل فى آلاف من الألفاظ ، وممن تنبه إلى ذلك الأستاذ المرحوم إبراهيم عبد القادر المازنى فاستخدم فى مقالاته وقصصه كثيراً من الألفاظ الشائعة على ألسنة العامة والتى تمت إلى الفصحى بنسب صحيح . ومنذ أوائل هذا القرن يتجرد نفر لدراسة ألفاظ عاميتنا لتبين الفصيح منها والنص عليه . على نحو ما صنع محمد على الدسوقى فى كتابه : " تهذيب الألفاظ " وأحمد تيمور فى كتابه : " معجم تيمور الكبير"وأحمد عيسى فى كتابه :" المحكم فى أصول اللغة العامية"ومحمود تيمور فى كتابه: " العامية الفصحى " وعبد المنعم سيد عبد العال فى "معجم الألفاظ العامية ذات الحقيقة والأصول العربية"ومحمد داود التنير فى كتابه :" ألفاظ عامية فصيحة".

وقد عرضوا جميعاً مئات من الألفاظ التى يظن أنها عامية ، وهى تمت إلى الفصحى بنسب صحيح وعرضوا بجانبها . ألفاظاً فصيحة الأصل أصابتها العامية ببعض التحريف فى الحركات أو فى الحروف . ومن زمن بعيد ألّف المجمع لجنة للنظر فى اللفظ والأسلوب اللذين تجرى بهما أقلام الكتاب ممّا يظن أنهما غير فصيحين بينما هما فصيحان ، إذ أثرا فى المسموع الوثيق من

العربية ، أو أنهما بشهادة الأعلام من اللغويين يدخلان فى دوائر الفصحى بما قرر لها من القواعد والأحكام ، والمجمع يأخذ فى ذلك بما تقتضيه سنن التطور اللغوى من النمو والتجدد، وأيضًا بما تقتضيه حاجات الاستعمال الحديث عند الأدباءذوى الحس اللغوى الدقيق ، واستطاعت اللجنة أن تصدر مجلدين تصحح فيهما مئات من الألفاظ والأساليب مدللة على أنها فصيحة أو تجرى على سنن الفصحى وأقيستها الدقيقة ، وكانت كلما انتهت من بحث أسلوب أو لفظة عرضتهما على مجلس المجمع ، فإذا أقرهما عرضتهما على مؤتمر المجمع لإصدار قراره .

وليس من ريب فى أن هذا الصنيع المجمعي من شأنه أن يزيل جانبًا من الحواجز بين بعض ألفاظ العامية والفصحى ، وهو ما جعلنى أفكر فى أن يعنى علماؤنا اللغويون بدراسة عاميات بلداننا العربية وحصر صور التحريف فيها والنص على ذلك بصورة استقصائية حتى ينمحى كل ما دخل على الألفاظ الفصيحة من تحريف وخلل محواً تاما .ونحن بذلك نسرع فى رفع السدود القائمة بين الفصحى وعاميات البلدان العربية ونمحوها محواً ، وفى رأيى أنه لا بد أن تتضافر الجهود حتى تنقرض العامية وتزول من الألسنة إلى غير رجعة ، وقد أكببت على عاميتنا أحاول أن أحصر ما حدث فى الألفاظ الفصيحة من فروق ومغايرات لأصولها

الصحيحة . وبدأت بحصر ما يجرى من تحريف لا يرجع إليها من حيث هى إنما يرجع إلى القبائل التى نزلت مصر مع الفتح العربى أو توافدت عليها ، وكانت لهجاتها تختلف من بعض الوجوه مع الفصحى لغة قريش والقرآن الكريم التى تربط بين شعوبنا العربية من الخليج إلى المحيط . ثم ذكرتُ ما نشأ فى العامية المصرية من تحريف نشأة مستقلة . وأضفت إلى ذلك التغيرات فى الحركات والإبدالات فى الحروف والتبديلات فى الهيئة ، ليوضع ذلك كله تحت أبصار من يحاولون تخليص العامية من تحريفاتها حتى تتحد بالفصحى وحتى تنعدم هذه الازدواجية أو الثنائية اللغوية فى ألسنتنا ، فلا تظل لنا لغة للصحف والكتابة الأدبية والعلمية ولغة للسوق والبيت والمصنع والحياة اليومية.

فقد الإعراب فى العامية

وقبل أن نخوض فى بيان تحريفات العامية ينبغى أن نذكر فقد الإعراب فيها جملة ، وهو من أهم الخصائص فى الفصحى إذ يقف المتحدثون باللغة اليومية على آخر الكلمات بالسكون ، ولم يعرف ذلك عن أى قبيلة من قبائل العرب فى الجاهلية ، وكل ما قيل فى هذا الموضوع أن ربيعة كانت تقف بالسكون على المفعول به المنون فى مثل : رأيت زيداً ، فتسكن فى هذه العبارة زيداً غير أنها كانت تعرب بقية الكلام فى الجمل مثل بقية العرب . والحق

أن فقد الإعراب فى العامية لا يخصّ العامية المصرية وحدها ، بل يشمل جميع العاميات العربية التى أخذت تظهر فى البلاد المفتوحة التى لم تكن تعرب الكلام فى لغاتها الأصلية ، فلما اتخذت العربية مكانها أخذت تهمل منها الإعراب ، وتم ذلك خلال قرون متفاوته بتفاوت الشعوب التى دخلت الإسلام واتخذت العربية لسانًا لها .

ومن المؤكد أن عاميتنا ـ مثل بقية العاميات ـ أخذت تهمل الإعراب تدريجاً حتى أهملته كلية ، ومن يرجع إلى موشحات ابن سناء الملك فى القرن السادس الهجرى فى كتابه : " دار الطراز " : يجده يهمل الإعراب فى غير موضع من موشحاته من ذلك قوله فى الموشح السادس :" فرجعت خايب .. حين مر هارب " ، وقوله فى الموشح الثامن عشر : " غزالاً فاتر الأجفان فاتن " ، وفى الموشح رقم ٢١ : " قولاً صحيح " ، وفى الموشح رقم ٢٣ : " كنت غادر .. طرفا فاتر .. سيفا باتر . قلبا مقتول " ، وفى الموشح رقم ٢٤ : " ما أرانى راضى " . ، وفى الموشح رقم ٣٥ : " لم أكن ذاهل .. لم أكن قائل " ، ولعل فى ذلك ما يدل على أن فقد الإعراب فى العامية المصرية كان قد أخذ يعم فى الألسنة على الأقل منذ عصر ابن سناء الملك .

وأنا أعرض طائفة من تحريفات العامية المصرية ، بادئًا منها بما يرجع إلى لهجات القبائل النازلة بمصر . أو إلى مجيئه فى بعض الصيغ القبلية مما ينحرف عن الفصحى لغة قريش والقرآن الكريم .

تحريفات فى العامية مرجعها الى لهجات القبائل

أولا : فى الأفعال

١ـ كسر أحرف المضارعة

اشتهرت قبيلة بَهْراء القضاعية التى كانت تنزل شمالى ينبع إلى العقبة بأنها تكسر أحرف المضارعة ويسمى اللغويون هذه الظاهرة باسم تلتلة بهراء ، وفى كتاب الصاحبى لابن فارس وهو يتحدث عن فصاحة قريش أنها لم تكن تنطق بالكسر فى مثل نعلم وتعلمون ، وفى كتاب سيبويه ٢٥٦/٢ والمخصص لابن سيده ٥١٢/١٤ أن جميع العرب ما عدا الحجازيين (ومنهم قريش) يكسرون أحرف المضارعة ما عدا الياءَ فى الفعل السالم . والعامية المصرية تعمم الكسر فى أحرف المضارعة ما عدا الهمزة . استثقلت كسرها لأن مخرجها من الحلق وينبغى أن تبرأ من الكسر وتتبع قانون الفصحى الذى يوجب فتح أول المضارع فيما عدا الرباعى فإنه يضم فى مثل يكرم ويسلّم .

٢- إلحاق علامة الجمع بالفعل مع الفاعل المجموع

تلحق العامية علامة الجمع بالفعل مع الفاعل الظاهر فتقول : "حضروا الطلاب " متابعة فى ذلك لهجة أزد شنوءة وطيىء ، والعامية المصرية تستخدم هذه اللغة من قديم ، ففى كتاب المكافأة لابن الداية المصرى المتوفى سنة ٣٤٠ للهجرة هذه العبارة : " اشتهوا علىَّ صبيانى حلوى فى العيد " والفصيح "اشتهى على صبيانى " بدون سبق الفاعل الظاهر بضميره ، وينبغى أن تتخلص العامية من هذه اللغة .

٣- قلب كسرة صيغة فَعل المنقوص فتحة ويائه ألفًا

تفتح عاميتنا عين فعل المنقوص وتقلب ياءه ألفا فنقول فى مثل بقى ، بقا ، تماماً مثل طيىء وهى قديمة فى عاميتنا إذ نجد ابن سناء الملك فى القرن السادس الهجرى يقول فى موشح له : " فمن زمن نَساك " . وحرى أن تعدل العامية عن هذه الصيغة لحاقًا بصيغة الفصحى فى هذا الفعل .

٤- إضافة ياء إلى الحرف الأخير فى الفعل المضعف

تضيف العامية ياءً إلى الحرف الأخير فى الفعل المضعف فتقول : ظنِّيت ، وجريِّت الحبل ، والعربية تعمد إلى ذلك فى مثل : قَصَّيت أظفارى بدلاً من قَصَّصْت ، والأولى الأخذ بالكثير الشائع فى الفصحى دون قلب الحرف الأخير فى الفعل المضعف ياء أو زيادة ياء عليه .

٥- حذف نون المضارع المجموع والمخاطب به الأنثى

تحذف العامية حذفًا مطلقًا نون المضارع المجموع في مثل : " يقرءُون - يكتبون " وكذلك تحذف نون المضارع المخاطب به الأنثى مثل : " تقرئين - تكتبين " . ويذكر السيوطي أن حذف نون المضارع المجموع والمخاطب به الأنثى ورد في النثر والنظم ، ويذكر في الحذف مع المضارع المجموع حديثا نبويًا ومع المضارع المخاطب به الأنثى مثالاً حذفت فيه النون ، وفي كتاب المكافأة لابن الداية عبارة " ما تسمعيه " بدلاً من " ما تسمعينه "وكأن ذلك قديم في عاميتنا ، وينبغي أن تبرأ منه .

٦- إسكان التاء في صيغتي تفعل - تفاعل مع إدخال همزة وصل عليهما

تسكن العامية التاء في صيغتي تفعل - تفاعل مع إدخال همزة وصل عليهما ، فتقول : " اتأجل - اتعلم " في تأجّل - تعلّم ، كما تقول: " اتبادل - اتعاتب " في تبادل - تعاتب . وينبغي العدول في الصيغتين عن ذلك اتباعًا للفصحى إلاّ إذا أُدغمت التاءُ فيما بعدها فيمكن حينئذ استخدام الصيغتين في مثل : " اسّمع - اصّدع " في تسمع - تصدع ، وفي مثل : " اسّاهل - اصّالح " في تساهل - تصالح .

٧ـ كسر فاءِ فعل مع عينه

تنطق العالمية فى الأفعال الثلاثية أكثر الأفعال من صيغتى فَعِل يفعَل وفعِل يفعِل بكسر فاءِ الفعل فتقول فى : " حزن ـ علم ـ غضب " هكذا : حِزِن ـ عِلِم ـ غضب . وكما تقول : " يِئِس ـ وِرِث "فى يَئِس ـ ورث ويقول أحمد بن فارس فى كتابه الصاحبى : إن قيسًا تكسر أول الكلام وينبغى أن تتخلص العامية من ذلك لحاقًا بالفصحى :

٨ـ زيادة ياء مع تاء المخاطبة المتصلة بالفعل الماضى

تزيد العامية ياء على تاء المخاطبة الموصولة بالماضى ، فتقول : وجدتيه مثلا ، ويقول اللغويون : إن هذه اللغة لغة ربيعة . ونجدها فى كتاب المكافأة لابن الداية على لسان تاجر يكافىء سيدة على جميل قائلاً: " هذا جزاءُ ما قدمتيه " ، وهى بذلك قديمة فى العامية المصرية . وينبغى أن تتخلص منها تماما .

٩ـ تسهيل الهمزة فى كثير من الأفعال

تكثر العامية من تسهيل الهمزة فى الأفعال فتقول : "جايجى" متابعة فى ذلك لغة الحجازيين . ويلقانا من ذلك أمثلة مختلفة فى موشحات ابن سناءِ الملك مثل : " هَنّونى ـ يدفّينى " بدلاً من هنئونى ـ يدفئنى " ، وينبغى أن يلتزم بهمز الأفعال المهموزة فى الفصحى .

ثانيا : فى الأسماء

١ـ صيغة مديون بدلا من مَدِين :

تحذف الفصحى الواو من اسم المفعول المشتق من الثلاثى المعتل العين اليائى ، فتقول : " مدين " من دان يدين ، و " معيب " من عاب ، بينما تقول العامية مديون ـ معيوب ـ مبقية الواو متَّبعة فى ذلك لغة تميم ، وينبغى أن تعدل عنها تمسكا بالفصحى .

٢ـ اطراد جمع المذكر السالم بالياء والنون فى جميع الأحوال :

تلتزم العامية المصرية فى جمع المذكر السالم نطقه بالياء والنون فى جميع الأحوال .

والمبرد قال : إن ذلك مذهب للعرب اختص بالشِّعر والإعراب فيه على النون وقبل النون الياء ، وينبغى أن تتخلص العامية من ذلك حتى يلغى هذا الحاجز الصفيق بينها وبين الفصحى .

٣ـ لحاق نون الوقاية باسم الفاعل

تلحق العامية نون الوقايةٌ باسم الفاعل أُسوة بالفعل ، فكما يقال : فى الفصحى : " خاصمنى ـ سامحنى " تقول العامية : " مسامحنى ـ مخاصمنى " . ويذكر اللغويون بعض أمثلة شاذة لذلك ، وينبغى أن تبرأ منه العامية .

٤ـ استعمال أم الحميرية أداة للتعريف :

تنسب إلى حمير " أم " أداة للتعريف بدلاً من " ال " وقد نزلت منها فى مصر عشائر كثيرة ، وعنها شاعت فى العامية كلمة "امبارح " بدلا من " البارحة " وينبغى استخدام الكلمة الفصيحة .

٥ ـ كسر الحرف الأول فى الصفتين المشبهتين :

" فَعيل . فَعِل " :يكثر أن تكسر العامية الحرف الأول فى الصفتين المشبهتين : " فعيل ـ فعل فتقول : " كِبير ـ بِعيد ـ شريف " بكسر الأول ، كما تقول : " إنِفْ ـ عِكِر " بكسر الأول ، ومر بنا أن ابن فارس يقول إن بعض قبائل قيس تكسر أوائل الكلمات ، وكأنما أخذت ذلك عنها عاميتنا فى هاتين الصيغتين ، وينبغى أن تتمسك فيهما بقانون الفصحى .

٦ـ القصر

تكثر عاميتنا من القصر فى الأسماء الممدودة ، ويبدو أنه قديم فيها إذ نجد ابن سناءِ الملك يكثر منه فى موشحاته ، فيقول ـ كما تقول عاميتنا المعاصرة ـ : السما فى السماءِ والشتا فى الشتاءِ ، والدوا فى الدواءِ ، والوفا فى الوفاءِ ، وينبغى أن تتابع عاميتنا الفصحى فيما تمده وتقصره .

٧ـ تسهيل الهمزة فى الأسماء

تكثر عاميتنا من تسهيل الهمزة فى الأسماءِ ، ومن ذلك المطرد مثل صيغة الفاعل من الفعل الأجوف ، فتقول:" بايع ـ زايد ـ ضايع". ومن ذلك قلب الهمزة الساكنة إلى جنس حركة ما قبلها مثل : بيرفى بئر ، وراس فى رأس ، ولُوم فى لؤُم ، وهى تتابع فى ذلك قبيلة تميم ، ويرى التسهيل عندها فى كلمات كثيرة مثل : "مراته " فى امرأته و" ميتين " فى مائتين و " فاس " فى فأس . وينبغى أن تلتزم بمتابعة الفصحى فيما تسهله ونكتفى به .

ثالثا :تشديد بعض الضمائر :

تشديد الضمير فى : " هو و " هى : تشدد العامية ضمير المذكر الغائب :" هوّ " وبالمثل تشدد ضمير المؤنثة الغائبة " هىّ " ، ويقول اللغويون : إن هذه اللغة لغة همدان التى نزلت فى الجيزة ، وكأنها هى التى أشاعتها فى مصر ، وتشدد العامية الضمير : " هم " وينبغى أن تتخلص من ذلك كله أُسوة بالفصحى .

رابعاً :استخدام اللى اسما موصولا عاما

تستخدم العامية لفظ " اللى " اسماً موصولاً عاما للمفرد والمثنى والجمع وللمذكر والمؤنث ، وهو بذلك يقوم مقام جميع

أسماءِ الموصولات ، ولذلك أصل فى العربية فقد ذكر النحاة " ال " بين الأسماءِ ـ الموصولة وقالوا : إنها تستخدم مكان لفظ الذى وفروعه ومثلوا لها داخلة على جملة فعلية وأُخرى اسمية وظرف ، وقال ابن مالك إنها تستخدم فى النثر مثل الشعر ، والعامية زادت عليها لاماً وياءً ، وينبغى أن تتخلص منها وتعود إلى الأسماء الموصولة : الذى وفروعها .

خامسا : فى حروف الجر

١ـ كسر لام الجر مع الضمائرمثل :

تكسر العامية لام الجر مع الضمائر مثل : " لِنا ـ لِك ـ لِها ـ لِهم " ، والفصحى كما هو معروف تفتحها وتتابع العامية فى ذلك لغة خزاعة ، وينبغى أن تتخلص منها .

٢ـ حذف نون من الجارة

تحذف العامية نون من الجارة إذا وليها ساكن مثل : " خرجوا مِ المدرسة ـ رجعوا مِ الجامعة " وهى بذلك تتابع لغة خثعم وزَبيد من القبائل اليمنية التى نزلت بها ، وينبغى أن تتخلص من ذلك لحاقاً بالفصحى .

٣ـ حذف اللام والألف من " على " الجارة

تحذف العامية اللام والألف من " على " الجارة إذا وليها ساكن فتقول: " جلست عَ الكرسى ـ ركبت ع الفرس " ، وهى لغة قبيلة بنى الحارث بن كعب اليمنية ، وينبغى أن تتخلص منها العامية .

٤- الوقوف على : " لا النافية " بالهمزة

تنطق العامية لا فى الجواب على المتكلم : لا بإلحاقها همزة : لأ، ويبدو أن العامية المصرية نقلت ذلك عن بعض من نزل بها من طيىء وشاع بين سكانها .

تحريفات فى العامية لكلمات فصيحه ليس لها أصل فى اللهجات القبلية

أولا : فى الأفعال

١- دخول الباء على المضارع

تدخل العامية المصرية الباءَ على الفعل المضارع للدلالة على حدوث الفعل فى الزمن الحالى وتظل مكسورة فيما عدا المضارع للمتكم فإنها تفتح فيه ، فيقال : بافهم - بِتفهم - بِيفهم ، وليست هذه الباء هى الباء الجارة ، لأنْ حروف الجر لا تدخل على الأفعال ، ولم يسمع ذلك عن العرب فى أى لهجة من لهجاتهم ، وربما كانت هى الباءُ الزائدة ، وقد ذكر ابن هشام فى المغنى أنها تزاد أحياناً مع المبتدأ والخبر ، والفاعل والمفعولْ ، وقد تكون العامية المصرية زادتها مع المضارع للتأكيد أو ربما كانت مقتطعة من كلمة مثل بِودِّى . وهى لحن ينبغى أن تبرأ منه العامية برءاً تاما .

٢ـ العامية لا تثنى الأفعال

لا تحلق العامية الأفعال ألف التثنية ، فتقول فى : " كتبا ـ يكتبان ـ كتبوا ـ يكتبوا " ، وينبغى تخلُّص العامية من هذه الظاهرة التى تتعارض مع الفصحى تعارضًا شديداً .

٣ـ إدخال الحاء على المضارع للدلالة على وقوعه قريباً

نستخدم العربية مع المضارع حرف السين للدلالة على قرب وقوعه فى مثل : سأكتب وتستخدم العامية المصرية مكانه الحاء ، فتقول : " حاكتب " وربما كانت هذه الحاءُ مقتطعة من كلمة "رايح" وهو لحن ينبغى أن تتخلص منه .

٤ـ إدخال ما على المضارع للتأكيد

تدخل العامية على المضارع ما لغرض التأكيد مثل : " ما تأكل ـ ما تشرب " وهى اختزال من أما الدالة على العرض والطلب . وينبغى أن تعود العامية إلى استخدام أما كاملة دون اختزال .

ثانيا : فى الأسماء

١ـ التسوية فى المثنى وجمع المذكر السالم بين حالة الرفع وحالتي النصب والجر :

تسوى العامية المثنى فى حالة الرفع بحالتى النصب والجر، فنقول : " معى كتابين ـ أخذت كتابين ـ نظرت فى كتابين " ، فالمثنى تلزمه دائمًا الياءَ والنون مع كسر ما قبلهما ، وينبغى

العودة به إلى أحواله فى الفصحى ، فيقال : " معى كتابان - أخذت كتابين - نظرت فى كتابين " مع فتح الياء فى حالتى النصب والجر ، وبالمثل تسوى العامية جمع المذكر السالم بحالتيه فى النصب والجر ، فتقول : " المتفوقين حضروا - عرفت المتفوقين - تحدثت إلى المتفوقين " والمثالان الأخيران صحيحان بخلاف الأول ، فهو فى الفُصحى : " المتفوقون لأنه مبتدأ ، وينبغى أن تعود العامية إلى استخدامه الصحيح فى حالة الرفع مثل الفصحى فتلحق به الواو والنون .

٢ـ كسر الميم فى اسم الفاعل واسم المفعول من الفعل الرباعى ومابعده :

تكسر العامية الميم فى اسم الفاعل واسم المفعول من الفعل الرباعى والخماسى ، والسداسى فتقول : " مِعلم - مِسامح " بكسر الميم فى اسم الفاعل وهى مضمومة فى الفصحى دائما .

كما تقول : " مِفتَّح - مغمَّض " بكسر الميم فى اسم المفعول وهى مضمومة فى الفصحى دائمًا ، وينبغى أن تنطق بالميم فى الصيغتين مضمومة مثل الفصحى .

١ـ نقل ضمة هاءِ الضمير إلى ما قبلها مع حذفها

يطرد نقل هاءِ الضمير وحذفها مع الأفعال فى مثل كتبه ، تقول العامية : كتبو ، ومع الأسماءِ فى مثل : كتابه ، نقول العامية: كتابو ، ومع الحروف فى مثل له - ، عنه تقول العامية : لو - عنو،

وينبغى أن تتخلص العامية من ذلك وتبقى ضمير الهاء مع رفعه ، كما تقضى بذلك قواعد الفصحى .

٢-استعمال الواو وهم مع جماعة الإناث الحقيقيين وغير الحقيقيين

تستخدم العربية الواو وهم مع جماعة الذكور ، بينما تستخدم مع جماعة الإناث نون الإناث وهن فتقول : " الطالبات حضرن - رأيتهن " والعامية تسوى بين الإناث والذكور فتقول : " الطالبات حضروا - رأيتهم " ، كما تقول : الإبل ساروا ، والكتب قرأتهم بينما تقول الفصحى : الإبل سارت - الكتب قرأتها . وكل ذلك ينبغى أن تتخلص منه العامية .

٣- تشديد ياء المتكلم مع اللام الجارة :

تقول الفصحى : " لى " بالفتح أو السكون بينما تشدد العامة الياءَ ، وهو لحن ينبغى أن تبرأ منه ، ويبدو أنه فيها من قديم إذ نجده فى موشحه لعلى بن وفا فى القرن الثامن الهجرى إذ يقول فيه : "رُدَّها ليًّا " وينبغى أن تعدل عنه .

٤- نقل حركة كاف المخاطب والمخاطبة إلى الحرف السابق لها

تقول العربية : هذا كتابك بفتح الكاف للمخاطب المذكر وكسرها "

للمخاصبة المؤنثة ، بينما العامية تقول : " هذا كتابك " للمذكر بنقل حركة الكاف إلى ما قبلها ، و " هذا كتابك " للمؤنثة بنقل حركة الكاف إلى ما قبلها ، وينبغى أن تلتزم بالنطق الصحيح الفصيح .

رابعا : الحروف :

ياللتخيير : تستخدم الفصحى للتخيير إما ، فتقول مثلاً : ادرس إما الشّعر ، وإما النثر ، بينما تقول العامية : ادرس يا الشعر يا النثر . وينبغى أن تلتزم العامية بالفصحى فى حالة التخيير بإما وتترك " يا " نهائيا .

***

ابدال فى الحروف

١ـ إبدال الهمزة

(أ) عينا : (ويسمى ذلك عنعنة تميم تقول فى أنك عنك ، وفى أذن عذن) ، ومن أمثلة ذلك فى العامية

جعَّر فى جأر ـ فقَع عينه فى فقأ

(ب) واواً : وهى تبدل منها كثيراً فى العربية مثل : بوس فى بؤس . وواخيت فى آخيت ، وأوادم فى آدم . ومن أمثلة ذلك فى العامية :

وجَّت النار فى أجَّت . ودَّاه فى أدَّاه . إدَّن فى أذَّن بتسهيل الهمزة . وقلب الذال دالاً ـ ورَّاه فى أراه . وزَّه في أزَّه . واساه فى آساه . وُقَّة فى أُقة . وليفه فى أليفه . ويَّاك فى وإياك بتسهيل الهمزة ـ ويَّانا فى وإيَّانا (ج) هاء : ولها أمثلة مختلفة فى العربية مثل : هيا فى أيا للنداء . هرقت الماءَ فى أرقت . ومن أمثلة ذلك فى العامية :

لهف الشى فى لأفه . هيه هيه فى إيهِ إيه (للاستزادة فى الكلام) .

٢ـ إبدال الباء

(أ) ميمًا : تبدل الباء ميمًا فى أمثلة ذكرها اللغويون . من ذلك كمح الدابة فى كبحها ـ والنكمة فى النكبة ـ وبنات مَخر فى بنات بخر ، أى السحاب والبخر مشتق من البخار ، وحكى أبو عمرو الشيبانى قولهم :ما زال راتماً على كذا فى راتبا ، أى مقيمًا. وفى اللسان شرب نُغَمًا فى نغبًا، أى جرعات من الماء . ومن أمثلة ذلك فى العامية :اتمخترى يا عروسة فى تبخترى .

(ب) فاء : تبدل الباء فاء لقرب مخرجهما فى الشفتين ، ومن أمثلة ذلك فى العامية :

التهفت النار فى التهبت ـ لهفه بالعصا فى ألهبه

٣ـ إبدال التاء طاءً

(أ) تبدل التاءُ طاءً فى صيغة افتعل إذا كانت فاءُ الفعل صاداً أو ضاداً أو طاءً أو ظاءً مثل : اصطبر ـ اضطرب ـ اضطهد ـ اطرد .

(ب) وتبدل التاءُ طاءً بعد الصاد ، وأخواتها السالفة فى مثل : فحصت ـ نهضت ـ خبطت ـ حفظت ـ ، فالتاءُ فيها جميعها تنطق طاءً . ومٌماجاءَ من نطق التاء طاءً فى العامية طربة (قبر) فى تربة .

٤- إبدال الثاء دائمًا

(أ) تاء : يكثر ذلك فى العامية المصرية ومن أمثلته :

تار فى ثأر بتسهيل الهمزة - اتّاوب فى تثاءَب بقلب الهمزة واوًا - تخين في ثخين - تِعبان فى ثُعْبان - تعلب فى ثعلب تقل فى ثقل - تلج فى ثلج - اتنين فى اثنين - تفل فى ثفل - تلاته وتلاتين فى ثلاثه وثلاثين - تلت فى ثلث - توب فى ثوب - توم فى ثوم - عتمان في عثمان - كرات في كراث - كمترى فى كمثرى .

(ب) دالاً : من ذلك ألدغ فى ألثغ .

(ج) سينا : من ذلك سقب فى ثقب - سرىّ فى ثرى - سروة فى ثروة - سم فى ثم - سواب فى ثواب .

(د) شينا : من ذلك : شر الماء فى ثر - شلة فى ثلة .

(هـ) طاءً : من ذلك شبط فى شبث وتشبث .

٥- إبدال الجيم

(أ) همزة: من ذلك - المئشة فى المجشة :

(ب) شينا : من ذلك : اشترّ الحيوان فى اجْترّ - وشّ فى وجه .

(ج) هاء : من ذلك بالوظه : فى فالوذج بإبدال الفاء باء والذال ظاء والجيم هاء :

٦ـ إبدال الحاء عينا: من ذلك تعتعه فى تحتحه وحركه .

٧ـ إبدال الخاء غينًا : من ذلك غفر الزرع فى خفره ، ومنها : غفير فى خفير ـ نَغَزُو فى نخزه .

٨ـ إبدال الدال

(أ) تاءً : من ذلك زغرتتْ فى زغردتْ

(ب) زايًا :١٩١: من ذلك زغزغه فى دغدغه .

٩ـ إبدال الذال دائمًا

(أ) دالاً ويكثر ذلك فى العامية ، ومن أمثلته

إلاّ دا أو ده فى إلاّ ذا أو ذه ـ داب فى ذاب ـ داق فى ذاق ـ دبحه فى ذبحه ـ ديل فى ذيل ـ دبان فى ذبان ـ دراع فى ذراع ـ دقن فى ذقن ـ دهب فى ذهب ـ ديب فى ذئب ـ بادنجان فى باذنجان ـ حدفه فى حذفه ـ لدّ عليه فى لذ له ـ ندل فى نذل ـ ندر فى نذر .

(ب) زايًا : وهو كثير مثل : زاته فى ذاته - زخيرة فى ذخيرة - الزرية فى الذرية - الزكاء فى الذكاء - الزّم فى الذم - الزمّة فى الذمة - الزل فى الذل - الزهن فى الذهن - زعاف فى ذعاف - تبزير في تبذير - رزيل فى رذيل - المزياع فى المذياع - عزاب فى عذاب .

(ج) ظاءً : وذلك مثل بالوظة فى فالوذج .

١٠- إبدال الراء لاماً : من ذلك الحول فى الحور .

١١- إبدال الزاى سينًا : من ذلك كسبرة فى كزبرة .

١٢- إبدال السين

(أ) زايًا : من ذلك فزدق فى فستق .

(ب) صادًا : يكثر ذلك فى العامية ،

ومن أمثلته :

الخصّ فى الخس - صخّه فى سخه - إخْص فى اخسأ - أخرص فى أخرس - الجعيص فى الجعيس - لَغْوص فى لَغْوس .

(ج) ظاءً : من ذلك ألماظ فى الماس .

١٢- إبدال الشين سينًا : من ذلك سجيع فى شجيع .

١٤- إبدال الصاد : من ذلك الصيص فى الشيص .

(أ) زايًا : من ذلك قزدير فى قصدير

(ب) سينًا : من ذلك سرخ فى صرخ - سايغ فى صايغ - سكّ الباب فى صكّ - سَحن فى صَحْن - سدغ فى صدغ - سمغ فى صَمْغ - مستكى فى مصطكى بقلب الطاء تاء .

١٥- إبدال الضاد دالاً : من ذلك دحك فى ضحك - مدغ الطعام فى مضغ .

١٦- إبدال الطاء تاءً : من ذلك مستكى المارة - حانوتى فى حانوطى - تنبل فى طنبل .

١٧- إبدال الظاء

(أ) دالاً : من ذلك مندرة فى منظرة .

(ب) ضاداً : من ذلك : الضِلْ فى الظل - الضُهْر فى الظهر - الحِفْض فى الحفظ - الحنضل فى الحنظل - فلان على اللضا أى فى اللظأ أى النار - اللماضة (الفصاحة) فى اللماظة - نضف فى نظف - الضفر فى الظفر

١٨- إبدال العين

(أ) همزة : من ذلك دألج الكرة فى دعلج .

(ب) حاء : فى مثل بحتر فى بعثر ، (بقلب الثاء تاء) - انكشح فى انقشع - الكحك فى الكعك .

(ج) هاء : دهس رجلى فى دعسها - دعوره (قذفه فى هوة) فى دهوره .

١٩- إبدال الغين عينًا : من ذلك لدعه العقرب فى لدغه .

٢٠- إبدال الفاء

(أ) باء : من ذلك بالوظة فى فالوظة - بولاد فى فولاذ .

(ب) طاء : من ذلك طرقع فى فرقع .

(ج) واوًا : من ذلك يا لهوتى فى يا لهفتى .

٢١- إبدا ل القاف همزة إبدالا عاما

أبدلت القاهرة القاف فى كلمات العربية همزة مَيْلا منها إلى التخفيف ، وتبعتها فى ذلك الدلتا ، أما الصعيد فيبدلها غالبًا جيمًا . ومن أمثلة قلبها : همزة : آل فى قال - قاول - مقاولة : آول مؤاولة - أبّح عليه فى قبّح - أرى فى قرأ - الأرابة فى القرابة - إدر فى قدر - آرِب فى قارب - إرد فى قرد - أرّوه فى قرروه - اريش فى قزيش - أرّأ عليه فى قرّق - الأرف فى القرف - إشطة فى قشطة - أطم لأمة - قطم لقمة - الأطايف فى القطايف - الأطيفة فى القطيفة - الأفش فى القفش - الأفة فى القفة - أرْن فى قرن -

أراع فى قُراع ـ أعد فى قعد ـ زوّأ فى زوّق ـ لأف فى لقف ـ النّأل فى النقل ـ النأرشة فى النقرشة ـ النُّؤْطة فى النقطة . أمَّص الفرس فى قَمص ـ أوام فى قوام ـ أهره فى قهره ـ أمْع فى قمع ـ ألْب فى قَلب . إلى غير ذلك ممًا يخرج عن حد الاستقصاء .

٢٢ـ إبدال اللام

(أ) راء : من ذلك : رغى رغيًا فى لغى ـ درفيل فى دلفين مع إبدال النون لامًا .

(ب) نونًا : من ذلك : البنور فى البلور ـ حب هان فى حب هال ـ فنجان فى فنجال .

٢٣ـ إبدال الميم

(أ) باء : اشتهرت قبيلة مازن الشيبانية بأنها تبدل الميم باء ، ولذلك حين استقبل الرشيد المازنى إمام النحو المشهور قال له : باسمك ؟ تظرفًا معه ، يريد : ما اسمك ؟ لأنه من قبيلة مازن ومن ذلك : السيدة الباتعة فى الماتعة أى الغاية فى خصال الخير ـ بتاع فلان فى متاعه أى ما يخصه من أى شىءٍ ـ بقدونس فى مقدونس .

(ب) نونًا : من ذلك زنهر (احمرّ) فى زمهر .

٢٤ـ إبدال النون :

هاء : من ذلك : هشَ الذباب فى نشّ .

٢٥ـ إبدال الهاء :

حاء : من ذلك الحلوف فى الهِلّوف .

وبعد : فهذه كلمة موجزة عن إبدالات العامية فى الأفعال والأسماء والحروف ووراءَها تغيرات كثيرة فى الحركات وهى كثيرة كثرة مفرطة ، سوى ما أحدثت العامية من حذف الهمزة فى أفعال كثيرة مثل : حبه فى أحبه ـ فطر فى أفطر ـ قفل الباب فى أقفله ، وأيضًا ، ما أحدثت من القلب فى الأفعال والأسماء مثل : اتلم فى التم ـ اتكسى فى اكتسى ـ أهبل فى أبله ـ جلاليب فى جلابيب ، وسوى ما أحدثته من نحت وهو فيها كثير مثل : أكمنه زعلان فى كما أنه ـ انهو فى أين هو ـ باينك فى باين أنك .

وفى رأيى أنه ينبغى أن تحصر كل هذه الفروق بين الفصحى والعامية المصرية ، وبينها وبين العاميات فى بلداننا العربية ولا بأس أن تكتب فيها كتب تعليمية للناشئة حتى نسرع الخطى فى رفع الحواجز بين عامياتنا وبين الفصحى ، وحتى تمحى هذه الازدواجية أو الثنائية بين لغة لنا عامية نتداولها فى حياتنا اليومية ولغة فصيحة نتداولها فى حياتنا الأدبية والعلمية .

* * *

منهج طه حسين
في الدراسات الأدبية

يعد طه حسين الرائد الفذ للدراسات الأدبية العربية في القرن العشرين ، وعوامل مختلفة تضافرت في إحلاله هذه المنزلة الرفيعة ، ولكي تتضح لنا ينبغي العودة إلى تكوينه الأدبي في نشأته الأولى حين كان طالباً بالأزهر منذ السادسة عشرة من عمره وكان يختلف إلى دروس الشيخ سيد المرصفي ، وفيها كان يدرس لطلابه نصوصاً في ديوان الحماسة لأبي تمام وكتابي الكامل للمبرد والأمالي لأبي علي القالي ، وكان يملي عليهم شروحاً لما يقرأ ونظرات لغوية ونقدية ، من شأنها أن تكوِّن في الطلاب ملكةَ الكتابة وتذوقَ الأدب والفقة باللغة وجودة اللفظ ورصانة الأسلوب .

وافتُتحت الجامعة المصرية الأهلية سنة ١٩٠٨ فانتسب إليها ، وكانت قد دعت إليها طائفة من المستشرقين في إيطاليا وفرنسا وألمانيا ليحاضروا بها في قسم الآداب ، وكان بينهم جويدي الذي عني بعرض الأدب الجغرافي والتاريخي ، ونالينو الذي عني

بعرض تاريخ علم الفلك عند العرب ثم بدراسة تاريخ الأدب العربى فى العصرين الجاهلى والأموى ، وسانت للانا الذى عنى بدراسة الفلسفة الإسلامية ، واليونانية، وليتمان أستاذ اللغات السامية ، وعنى بدراسة تاريخ الفلسفة . وظل طه حسين يستمع إلى محاضرات أستاذه المرصفى فى الصباح ، كما ظل يذهب فى المساء لاستماع هؤلاء المستشرقين .

واستقر فى نفس طه حسين مبكراً أنه ينبغى فى دراسة الأدب العربى الانتفاعُ بطريقة شيخه المرصفى التى تعين على تكوين الملكة الأدبية عند الطلاب وتصقل أذواقهم بما تعرض من النقد اللغوى وبيان الدقائق والأسرار البلاغية ، والانتفاعُ مع ذلك بطرق المستشرقين فى دراسة تاريخ هذا الأدب فى الدين والسياسة والاجتماع والاقتصاد والعلم والفكر . لا بد إذن فى دراسة الأدب من الأخذِ بطريقة المرصفى التى تساعد على فهم النصوص الأدبية وتذوقها تذوقًا حسنًا والأخذِ بطرق المستشرقين لاستنباط التاريخ الأدبى لهذه النصوص ومَنْ أنتجها من الشعراء والكتاب .

وما توافى سنة ١٩١٤ حتى يضع طه حسين رسالة يحصل بها على درجة العالمية من الجامعة المصرية الأهلية ، اتخذ موضوعها دراسة أبى العلاءِ المعرى مفيداً فيها من طريقة شيخه المرصفى

فى فهم الشعروتذوقه ومن طرق المستشرقين فى دراسة تاريخ الأدب دراسة تعين على فهم المؤثرات السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والعقلية فى العصر كله ، ويوضح تأثره العميق بطرق المستشرقين فى دراسته لحكيم المعرة ودرتها الفريدة قولُه فى فواتحها :

" ليس الغرض فى هذا الكتاب أن نصف حياة أبى العلاءِ وحده ، وإنما نريد أن ندرس حياة النفس الإسلامية فى عصره ، فلم يكن لحكيم المعرَّة أن ينفرد وحده بإظهار آثاره المادية والمعنوية وإنما الرجل وما له من آثار وأطوار نتيجة لازمة وثمرة ناضجة لطائفة من العلل اشتركت فى تأليف مزاجه ، وتصوير نفسه من غير أن يكون له عليها سيطرة أو سلطان ، من هذه العلل المادى والمعنوى . وإذا صح هذا كله فأبو العلاءِ ثمرة من ثمرات عصره ، قد عمل فى إنضاجها الزمان والمكان والحال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية " .

وما يلبث أن يعلن فى التمهيد أن مؤرخ الأدب الذى لا يؤمن بالمذاهب الحديثة ولا يصطنع فى البحث طرائفة الطريقة . ولا يطمئن إلى أن الحركة التاريخية جبرية جبرية ليس للاختيار فيها مكان لا يستطيع أن يوفِّى دراسة أبى العلاءِ حقها فى رأيه . والمهم إعلانُه جبرية التاريخ الأدبى وأنه ثمرة علل ينبغى تبينُها فى

دراسته ، وحار بعض الباحثين في استشعار طه حسين لهذه الجبرية وتساءَ لوا هل اطلع على آراءتين الناقد الفرنسي وما ذهب إليه من جبرية التاريخ الأدبى وجبرية علله المؤثرة فى سماته وخصائصه . ولا موضع لهذا التساؤل ، فقد أعفانا هو نفسه من تعليل ذلك بما ذكر من أنه يتبع فيه فلاسفة أوربا والمسلمين، أما فلاسفة أوربا فَمَنْ ذكره منهم أساتذتُه المستشرقون ولا نعرف هل كان بينهم من درس له تين أو لم يكن، وأما فلاسفة المسلمين فلعله يقصد ابن خلدون وما ذهب إليه من الجبرية التاريخية في فلسفته الاجتماعية بمقدمته المشهورة .

وبذلك يرسم طه حسين منهجه فى دراسة تاريخ الأدب العربى، فهو ليس سرداً لأخبار من هنا وهناك عن العصر وأدبائه ، بل هو دراسة جادة للأدب وأدبائه وللعوامل والمؤثرات الحتمية التى تتحكم فيه وفى منتجيه وما ينتجون من آثار أدبيه ، حتى ليقول: " إن الحادثة التاريخية والقصيدة الشعرية والخطبة يجيدها الخطيب والرسالة ينمّقها الكاتب الأديب ، كل أولئك نسيج من العلل الاجتماعية والكونية ، يخضع للبحث والتحليل خضوع المادة لمعمل الكيمياء " . وقد يكون طه حسين مسرفًا فى تصور هذه الجبرية التى تشمل جميع الأدباءِ فى العصر دون أى تفريق بين أديب وأديب دون أى مراعاة لفردية الأديب ومواهبه الذاتية ،

غير أنه كان من الضرورى وهو يضع - لأول مرة - قواعد التاريخ للأدب العربى وأدبائه أن يقرع أسماع من يحاولون التصدى لدراسة هذا التاريخ بأن واجبهم أن يعكفوا على دراسة المؤثرات البيئية والسياسية والاجتماعية والعقلية والحضارية فى العصر وفى أدبائه وما أنتجوا من شعر ونثر ، ويوضحوها توضيحاً تاما ، ومن الخير أن لا يعطوها صفة الحتم والجبر والإلزام ، ولكن لا بد من استقصائها حتى تستبين سمات الأدب فى العصر والعوامل التى تفاعل معهااستبانة كاملة .

وجعل طه حسين الرسالة فى تمهيد وخمس مقالات ، وتحدث فى التمهيد عن مصادر الدراسة العربية القديمة والحديثة ومصادرها الإنجليزية والفرنسية ، وفى المقالة الأولى عرض زمان أبى العلاء ومكانه وشعبه ، وموضع عصره من العصور العباسية ، ملاحظًا أن ربط مؤرخى الأدب العربى بين السياسة والأدب يجر إلى حيف شديد ، لأن الدولة قد تضعف ويظل الأدب مزدهراً ولا يزال هناك من يردد هذا الرأى ، غير أنه من الصعب وضع بديل سوى السياسة للعصور الأدبية ، وهى فى واقعها رمز ، لأن العصور الأدبية لا تنشأ فجأة ولا هى تنشأ بمراسيم سياسية ، إنما تنشأ تدريجًا وتتخذ حادثةُ سياسية كبيرة رمزاً لنشأتها على نحو ما صنعنا باتخاذ سنة ١٣٢ للهجرة بدءاً للعصر العباسى ، وكانت

مقدماته بدأت قبل هذا التاريخ بسنوات غير قليلة ويعرض . طه حسين فى المقالة الأولى أيضًا الحياة الاقتصادية والدينية والاجتماعية والعقلية والفلسفية والأدب فى العصر والعلوم الأدبية واللغوية .

وفى المقالة الثانية يتحدث عن حياة أبى العلاء فيعرض قبيلته وأسرته ومولده واسمه ولقبه وكنيته وتربيته وتعليمه ، ومراحل حياته وأحداثها مفصَّلةً غاية التفصيل . ويتناول فى المقالة الثالثة أدبه وشعره فى سقط الزند واللزوميات والدرعيات ونَثْرَه وأطواره وخصائصه . وفى المقالة الرابعة يعرض علمه وكتبه . ويتحدث فى المقالة الخامسة عن فلسفته الطبيعية والإلهية والعملية وخصائصه الفلسفية .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن هذه الرسالة تعد بدءَ التاريخ الدقيقِ لوضع الأسس القويمة لتاريخ الأدب العربى ، بحيث يدرس دراسة علمية سديدة كما تدرس أعلامه دراسة تحليلية تتبين فيها روح العصر بكل مشخصاته الزمانية والبيئية ، وبعبارة أخرى بكل مؤثراته - أو كما يقول بكل علله البيئية والسياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والعقلية ، وقد جلىً شخصية أبى العلاء جلاءً تامًا وصور منزلته الأدبية والعلمية والفلسفية

تصويراً بالغ الدقة ، ومهما اختلفنا معه ـ أو اختلف بعض المعاصرين ـ إزاء بعض أحكامه عليه وخاصة على فلسفته وآرائه العقلية فإن هذه الرسالة تؤرخ ـ كما أسلفت ـ البدء الحقيقى لدراسات الأدب العربى وتاريخه فى القرن العشرين إذ وُضعت على منهج سديد يستضىء بما اتخذه الغربيون فى دراسات الأدب وتاريخه من مناهج محكمة قويمة مع الانتقاع فيها بمنهج شيخه المرصفى وعنايته فيه باللغة والنقد وصقل الذوق الأدبى . ولما أظهر فى رسالته من الاستعداد العلمى فى دراسة الأدب وتاريخه قررت الجامعة الأهلية إرساله فى بعثة إلى فرنسا سنة ١٩١٤ ورأى نهضة الفكر الأوروبى تعتمد على الأصول الكلاسيكية اليونانية واللاتينية ، فأقبل على التزود من تلك الأصول بتعلم الإغريقية واللاتينية ، وأخذ يختلف إلى محاضرات دور كايم فى علم الاجتماع ، وأعجبته دراساته الاجتماعية وأعد بإشرافه رسالته للحصول على الدكتوراه فى فلسفة ابن خلدون الاجتماعية كما توضحها مقدمته المعروفة . وكان يختلف إلى محاضرات دييل عن الحضارة البيزنطية وليفى برول عن فلسفة ديكارت ولانسون عن تاريخ الأدب الفرنسى ، وكان يرفع من شأن الذوق وما يثيره فى الناقد الأدب من انطباعاته وإحساسات وتأثرات بحيث يستهوى قارئه ويجذبُه إلى ما يقوله ، وأعجبه منهجه التأثرى الذاتى فى دراسة الأدب ، واختلف إلى محاضرات كازانوفا فى تفسير القرآن

الكريم وهو فى أثناءِ ذلك كله ظل يعنى بتاريخ اليونان والرومان عناية أتاحت له الحصول على دبلوم الدراسة العليا فى القانون المدنى الرومانى .

وعاد إلى مصر فى أكتوبر سنة ١٩١٩ فعين بالجامعة المصرية أستاذًا للتاريخ القديم اليونانى والرومانى ، ويظل فى هذا المنصب حتى سنة ١٩٢٥ وينشر خلال هذه السنوات طائفة من الكتب والمقالات تأليفًا وترجمة حول التراث اليونانى ، وبصدر حزب الأحرار الدستوريين صحيفة السياسة فى أواخر سنة ١٩٢٢ لتكون اللسان المعبِّر عن الحزب ومبادئه وأهدافه ، ويصبح طه حسين كاتبها الأدبى ، وينشر فيها يوم الأحد قصة ملخصة عن الأدب الفرنسى وكل يوم أربعاء ينشر فصولاً عن الشعر والشعراء فى أواخر العصر الأموى والعصر العباسى الأول ، بدأها فى ديسمبر سنة ١٩٢٢ واستمر حتى فبراير سنة ١٩٢٤ وفيها عرض أبانواس وشعراء الخمر واللهو من الوليد بن يزيد إلى مروان بن أبى حفصة مارا بمطيع بن إياس وحماد عجرد وبشار ووالية وغيرهم من المجان ، وثار عليه كثيرون وعدوه مشوهًا لتاريخ العرب فى حقبة باهرة من حقب تاريخهم زَمَنَ المنصور والمهدى والرشيد ، وردَّ بأن العلم ينكر تقديس السلف ولا يعرف الهوى ولا العواطف واستشهد بعصور فى تاريخ اليونان القديم وتاريخ

فرنسا الحديث كانت من أزهى العصور ومن أكثرها لهواً ومجوناً . وأضاف إلى هذه الفصول فصولاً عن شعراء الغزل فى العصر الأموى ، وجميع هذه الفصول منشورة فى الجزء الثانى من حديث الأربعاء ، وفى تضاعيفها نظرات وآراء فى الشعر العربى وتاريخه ممَّا أفاده فى دراسة الأدب من أساتذته الفرنسيين ونراه فى المقالة السابعة من الجزء يتحدث عن الغاية من نقد الشاعر ويرجعها إلى محاولة فهم شخصيته ، وعصره وبيئته ، وما يحدثه شعره فى نفس الناقد من لذة فنية ، ويعرض فى إجمال منهج سانت بيف Sainte Beuve فى نقد الشعراء وتحليل لشخصياتهم ومنهج تين Taine فى عدم عنايته بشخصياتهم وإنما بعصورهم وبيئاتهم والأمم التى ينتمون إليها ومنهج جول ليمتر Jules Lemaitre فى عنايته بتأثير الشعراء فى النفوس وما يبعثون فيها من العواطف ، ويرى الانتفاع بكل هذه المناهج فى دراسة الشعراء ، وانتفع أيضاً بمنهج أستاذه لانسون فى نقد الشعراء وأنه ينبغى أن يصور ما خلفوه من انطباعات فى نفوس النقاد عن طريق التذوق الشخصى لآثارهم . وسيعود طه حسين إلى ذكر مناهج النقاد الفرنسيين فى دراسة الأدب عمَّا قليل بصورة أكثر سعة وتفصيلاً .

وتتحول الجامعة المصرية الأهلية إلى جامعة حكومية منذ سنة ١٩٢٤ يصبح طه حسين أستاذاً فيها للأدب العربى وتاريخه ،

وأخذ فى محاضراته طوال هذا العام يعنى بدراسة العصر الجاهلى أقدم عصور الأدب العربى ، وما أن استدار العام حتى نشر كتابه : " فى الشعر الجاهلى " مستعينًا فيه بمناهج الغربيين فى دراسة الشعر اليونانى القديم ، وأحدث الكتاب ضجة هائلة فى الأوساط الدينية والعلمية والسياسية والرأى العام بشكّه الواسع فى الشعر الجاهلى وتعرضه فيه لبعض مسائل تمس الدين ، فصودر الكتاب. وفى السنة التالية أعاد نشر الكتاب فى صورة معدلة وبعنوان جديد هو : " فى الأدب الجاهلى " وفيه رسم منهجه فى دراسة تاريخه ، وكانت بعض أُسس هذا المنهج قد نشرها مفرقة فى رسالته عن أبى العلاء وفى المقالات التى نشرها فى السياسة والتى تحدثنا عنها آنفًا فضم شوارد تلك الأُسس وألف منها نسقًا واضح المعالم لمنهجه .

ويتحدث فى فواتح الكتاب عن دراسة الأدب العربى وتاريخه بمصر فى معاهده المختلفة ويقول إنها عقيمة أشد العقم مجدبة أشد الإجداب إذ لا تنشىء ملكة أدبية ، ولا قدرة على النقد والتحليل ولا تصوراً سليماً لتاريخ الأدب ودراسة شخصيات الأدباء وما ينتجون من شعر ونثر ، ويقول إن مؤرخ الأدب العربى لا بد له من أن يكون واسع الثقافة باللغة وعلومها والعلوم الدينية والتاريخ وتقويم البلدان والفلسفة والآداب الأجنبية القديمة

والحديثة ، ويعرف الأدب بأنه مأثور الكلام شعراً ونثراً، ويقسمه إلى أدب إنشائى وهو ما ينتجه الأديب من آثار فنية شعرية ونثرية وأدب وصفى وهو الذى يدرس الأدب الإنشائى مفسراً أو مؤرخًا ومحللاً وناقداً ، ويقول : إن الأدب الوصفى هو ما سماه المحدثون باسم تاريخ الأدب .

ويأخذ طه حسين فى بيان مقاييس التاريخ الأدبى ، ويبدؤها بالمقياس السياسى وما يترتب عليه من تقسيم الأدب العربى إلى عصور ، ويرفضه كما رفضه فى مقدمات رسالته عن أبى العلاء لما يجر إليه من الربط بين قوة الأدب وضعفه وقوة الدولة من الناحية السياسية وضعفها ، فهو راق خصب إذا ارتقت الحياة السياسية ، وهو جدب منحط إذا انحطت الحياة السياسية ومعروف أن الحياة السياسية العربية انحطت فى القرن الرابع الهجرى وارتقى الأدب وازدهر ، فالسياسة لا تصلح مطلقاً ـ كما يقول ـ أن تكون مقياسًا دقيقًا للحياة الأدبية .

ويعرض المقياس الثانى لدراسة تاريخ الأدب ويسميه المقياس العلمى ، وهو مقياس اشترك فى وضع مناهجه ثلاثة من مؤرخى الأدب الفرنسى فى القرن التاسع عشر أرادوا ـ بتأثير النهضة العظيمة للعلوم الطبيعية فى عصرهم وسيطرة مناهجها

وقواعدها فى دراسة الفلسفة وظهور ما سمى فيها بالفلسفة الوضعية ـ أن يخضعوا الأدب وتاديخه لقوانين ثابتة كقوانين العلوم الطبيعية المطردة الثابتة ، ونهض بذلك ثلاثة من أفذاذ مؤرخى الأدب الفرنسيين هم : سانت بيف Sainte Beuve وتين Taine وبرونتيير Brunetière أما الأول فرأى أن يرجع هذه القوانين إلى دراسة شخصيات الشعراء والكتاب دراسة نفسية عضوية تشمل عصورهم وأوطانهم وأُسرهم وتربيتهم وتعلمهم ، وثقافتهم وتكويناتهم الجسمية والعقلية النفسية وصلاتهم الاجتماعية وجوانب ضعفهم وكل ما اضطربوا فيه من آراءٍ ومن نجاح وإخفاق حتى إذا اتضحت فى شخصية الأديب كل هذه الجوانب استطاع مؤرخ الأدب أن يعرف ما يميز شخصيته، وما يشترك فيه مع شخصيات أُخرى بحيث يكوِّن معها فصيلة أدبية فى الأمة ، على نحو ما يصنع علماء النبات فى تبين الفصائل النباتية المختلفة إذ يُسْتَخْلَصُ للفصيلة الأدبية قانونها العلمى الأدبى كما يَستَخْلِصُ هؤلاء العلماء لفصائل النبات قوانينهم العلمية الصرفة .

ومضى تين إلى نهج أبعد ، إذ لم يعتد فيه بشخصية الأديب الفردية، إنما اعتد بقوانين حتمية جبرية تطبق على جميع أفراد الأمة، دون أى استثناء ، كقوانين الطبيعة التى تخضع فيها

جميع الجزئيات لكل قانون خضوعًا مطلقًا دون أى شذوذ ، ورد هذه القوانين إلى ثلاثة ، وهى الجنس والبيئة أو المكان ، والعصر أو الزمان ـ أما الجنس فيتمثّل فى الفطرة الموروثة لكل أمة تنتمى إلى أصل واحد ، وأما البيئة فيقصد بها الوسط المكانى الذى ينشأويضطرب فيه جميع الأفراد فى الأمة بحيث يشتركون فى صورة واحدة من الروح الاجتماعية ومن الأخلاق والعادات وأما العصر فيقصد به الظروف السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والفنية ، فالشاعر والكاتب إنما هو أثرٌ من آثار الجنس والبيئة والعصر ، والغرض القويم من دراسة تاريخ الأدب إنما هو بيان هذه المؤثرات أو بعبارة أدق القوانين التى أحدثت الكاتب أو الشاعر وأرغمته على أن ينتج ما أنتج من نثر أو شعر .

وأما برونتيير فقاده الأخذ بمناهج العلوم الطبيعية وقوانينها الجبرية فى دراسة الأدب إلى تطبيق ما ذهب إليه داروين فى علم الأحياء من نظرية التطور أو نظرية النشوء والارتقاء فوضع فى ذلك كتابه : " تطور الأنواع الأدبية " محاولاً تقسيمها فى الشعر والنثر إلى فصائل كفصائل الكائنات الحيوانية فهى مثلُها يتولد بعضها من بعض ، وقد تتلاشى كما تلاشت بعض فصائل الحيوان ، وأخذ يطبِّق ذلك على المسرح

والنقد الأدبى والشعر الغنائى ، واتخذ من ازدهار النوع الأخير بفرنسا فى القرن التاسع عشر دليلاً على أن نوعًا أدبيًا تلاشى فى نوع آخر ، إذ ذهب إلى أن هذا النوع أو الشعر لم يتطور عن أصل من نوعه ، إنما تطور عن الوعظ الدينى الذى ازدهر بفرنسا فى القرن السابع عشر ثم ضعف وعاد يحيى من جديد فى هذا الشعر الغنائى للقرن الماضى .

ويعقب طه حسين على هذا المقياس العلمى عند مؤرخى الأدب الفرنسيين الثلاثة بأنهم كانوا غير موفقين فيما حاولوا من وضع قوانين علمية للأدب وتاريخه كقوانين العلوم الطبيعية لأن تاريخ الأدب لا يمكن أن يكون علمًا خالصًا ، إذ لا يمكن لمؤرخ الأدب أن يبرأ من شخصيته وذوقه على نحو ما يبرأ عالم الطبيعة فى وضع قوانينها العلمية . وهداه التفكير إلى مقياس ثالث لتاريخ الأدب سماه المقياس الأدبى ، وهو فيه يفسح مجالاً واسعًا للتذوق وتعبير مؤرخ الأدب عن انطباعاته إزاء الأثر الأدبى وصاحبه ، حتى يمتع عقولَ قرائه وقلوبَهم بتأثراته الذاتية ، وطه حسين فى ذلك يستضىءُ بآراءِ أستاذه لانسون ، مؤرخ الأدب الفرنسى وما ذهب إليه من الحملة على أصحاب المنهج العلمى السالف لما يؤدى إليه من مسخ تاريخ الأدب فى رأيه ، إذ يخليه من شخصية المؤرخ الأدبى وتذوقه الشخصى ، ويجعله جافًا مجدبًا لا يحبِّب الأدب إلى القراء .

ولم يجر مع أستاذه إلى نهاية الشوط ، فقد رأى أن يفيد مؤرخ الأدب من المناهج العلمية السالفة وأن يضم إليها تأثره وتذوقه للآثار الأدبية ، بحيث لا يطغى التذوق والتأثر أو بعبارة أخرى لا تطغى شخصية المؤرخ الأدبى على تاريخ الأدب وتتحكم فيه ، وإلاَّ أصبح فنًا ولم يعد تاريخًا أدبيًا وكما أنه ينبغى أن لا يصبح علمًا خالصًا كذلك ينبغى أن لا يصبح عملاً فنيًا خالصًا ، ومنهجُه الذى ارتضاه بذلك لدراسة تاريخ الأدب أن يتَّخذ فيه سبيلٌ وسط بين المناهج العلمية الصارمة السالفة وبين منهج لانسون التأثرى الذاتى ، وتأثر بلانسون أيضًا فيما ذكره من أن مؤرخ لأدب ينبغى أن يستعين بمعارف متنوعة من التاريخ الحضارى للأمة وتراجم الأدباء وتواريخ العلوم والفلسفة والعلوم اللغوية ، ممَّا جعله يذهب إلى أن دراسة الأدب ينبغى أن تمر بمرحلتين : مرحلة إعداد يتقن فيها مؤرخ الأدب علومَ النحو وفقه اللغة ، والصرف والبيان والتاريخ ومعرفةَ مناهج البحث الأدبى ، حتى يستكشف النص الأدبى ويحققه ، ومرحلة ثانية تلى مرحلة الإعداد ، وفيها يتبين مواضع الجمال فى الأثر الأدبى معتمدًا فى ذلك على الذوق الشخصى وبيان انطباعاته إزاءَه مع ما ينبغى له من الحرية الفكرية فى البحث والنقد والتحليل .

ويدرس طه حسين بعد بيان منهجه وتفصيله الأدب الجاهلى محتكمًا فى دراسته إلى مذهب الشك الذى أوجب استخدامه الفيلسوف الفرنسى ديكارت فى البحث ، وهو يتلخص فى أن الباحث ينبغى أن يدرس موضوعه خالى الذهن ممًا قيل فيه دون استشعار أى شىء من عواطفه الدينية والقومية . وقد مضى على هدى هذا المنهج لا يقبل حكمًا ولا رأيًا ممًا قاله القدماءُ إلاَّ بعد تمحيص دقيق له ، ولا يلبث أن يعلن أنه درس الأدب الجاهلى دراسة علمية انتهت به إلى نظرية عامة هى أن الكثرة المطلقة ممًّا نسميه أدبًا جاهليا ليست من الجاهلية فى شىءٍ وإنما هى منتحلة بعد ظهورالإسلام فهى إسلامية تمثل حياة المسلمين أكثر ممًّا تمثل حياة الجاهليين ، ولا ينبغى الاعتماد عليها فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة للعصر الجاهلى ، وتحدث عن أسباب الوضع والانتحال فى الشعر الجاهلى وردها إلى السياسة والدين والقصص والشعوبية والرواة، ثم درس الشعراءَ الجاهليين دراسة تطبيقية ، وبدأ بشعراءِ اليمن وربيعة وشك فى حقيقة امرىء القيس ، وانتهى إلى رفض شعره وأشعار اليمنيين ، ورفض - أو كاد يرفض - أشعار شعراءِ ربيعة ، إذ جمهورها - فى رأيه منتحل مصنوع ، وذهب إلى أنه لم يسلم من أشعار مضر من الانتحال إلاَّ القليل ، ومن هذا القليل مدرسة زهير وعنى بدراسة شعرها وخصائصه . وأنكر النثر الجاهلى جملة ، وقال إننا لا نستطيع أن

نخلِّص الأمثال الجاهلية من الأمثال الإسلامية ، فقد اختلط النوعان من الأمثال اختلاطًا واسعًا . وكُتبت عشرات المقالات فى الصحف وألفت طائفة من الكتب تعارض نظرية الكتاب فى أن الكثرة من الشِّعر الجاهلى منحولة موضوعة ، غير أن النظرية أدت دورًا مهمًا فى دراسة هذا الشِّعر إذ أصبح شعراؤه لا يُدْرَسون إلاَّ بعد مراجعة دقيقة لروايات أشعارهم ونفى الزائف فيها والاعتماد على الوثيق منها الذى لا تداخله الشبهة والارتياب .

ونمضى مع طه حسين إلى سنة ١٩٣٣ وفيها ينشر كتابًا عن حافظ وشوقى وهو فى مجموعه نقد للشاعرين الكبيرين . وينشر طائفة من المقالات فى بعض الصحف اليومية عن شعراءٍ جاهليين ومخضرمين ، اختار فيها لكل منهم قصيدة مصورًا فيها انطباعات له بديعة ممتعة ، وجمعها فى الجزء الثانى من حديث الأربعاء . وألقى مجموعة من المحاضرات تحدث فيها عن منزلة الأدب العربى من الآداب القديمة الكبرى: اليونانية واللاتينية والفارسية ، ورأى أنه يتقدم الأدبين اللاتينى والفارسى . وأخذ فى عرض النشر أثناءَ القرنين الثانى والثالث للهجرة وأعلامه النابهين : سالم مولى هشام بن عبد الملك كاتب الإنشاء فى دواوينه وخليفته فى الدواوين الأموية : عبدِالحميد الكاتب وذهب إلى أنه كان يتأثر فى صياغة كتابته باليونانية لكثرة استخدامه

للحال ، وهى لازمة تلاحظ عند أستاذه سالم من قبله وتحدث عن ابن المقفع وشبَّهه بالمستشرقين الذين لا يحسنون العربية ويعيبهم أحيانًا الأداءُ السديد غير آبه بثناءِ القدماءِ عليه وعدِّهم له أحَد الأدباءِ الأفذاذ الذين يتقدمون أدباءَ العصر العباسي وكُتَّابه . ونوَّه بالجاحظ وبرسالته البديعة " التربيع والتدوير " . وأضاف إلى هذه المحاضرات محاضرات عن كبار الشعراءِ فى القرن الثالث الهجرى : أبى تمام ، والبحترى وابن الرومى وابن المعتز . ونشر هذه المحاضرات جميعاً فى كتابه : " من حديث الشِّعر والنثر " وهو يجلو جوانب من الأدب العربى نثراً وشعراً فى القرنين الثانى والثالث للهجرة وفى سنة ١٩٣٧ أصدر كتابه مع المتنبى وهو فيه يدرسه دراسة تاريخية فنية تتبّعه فيها منذ مولده ومنبته فى أسرة متواضعة ، ورأى أن شعوره بهذا الضعف من ناحية أسرته وأهله الأدنين كان العنصر الأول المؤثر فى شخصيته وبغضه للناس وما أخذ حياته من الشذوذ ، ويرافقه فى تعلمه وارتحاله إلى البادية وبدءِ نظمه للشعر وتعرفه على مبادىء القرامطة ومفارقته للكوفة فى السابعة عشرة من عمره وإلمامِه ببغداد لمدة قصيرة وتحوله إلى الشام وثورته فيها وسجنه ومديحه للأمراءِ هناك وإقامته فترة فى بلاط سيف الدولة ، وتحوله إلى كافور بمصر وفراره منها إلى العراق وارتحاله إلى إيران لمديح ابن العميد وعضد الدولة ، ويعود من لدنهما ويفتك

به القرامطة فى طريقه إلى بغداد . ويدرس طه حسين المتنبى فى كل ذلك محللاً نفسيته وشخصيته وشعره ويحمل عليه مراراً ويقول إنه كان متهالكًا على المنافع العاجلة وطلب المال من ممدوحيه الكثيرين ، وصب عنايته فى الكتاب على شخصية المتنبى لا على شعره ، وعلى جوانبه التاريخية لا على جوانب فنه

وينشر الجزء الثالث من حديث الاربعاء وهو يضم مقالات متنوعة بعضها نشرة فى صحف يومية منذ سنة ١٩٢٣ وبعضه نشره بها فى السنوات الأخيرة ، ويدخل فى القسم الأول ما كتبه من مقالات عن القديم ، والجديد والرافعى وعن أعمال بعض المفكرين والباحثين والأدباء ويدخل فى القسم الثانى ما كتبه من مقالات نقد فيها الإبداع الشعرى عند على محمود طه وإبراهيم ناجى ومحمود أبى الوفا وإيليا أبى ماضى وفوزى المعلوف ويعود إلى أبى العلاء ، فيعرض طائفة من شعره وفكره وفلسفته فى كتابه: " مع أبى العلاء فى سجنه " ثم يعود إليه ثانية فى كتابه صوت أبى العلاء " ناثراً طرائف من شعره . وطه حسين ـ بكل ما قدمت ـ يعد الرائد الموجه الفذ لدراسات الأدب العربى وتاريخه ودراسات شعرائه المبدعين فى القديم والحديث .

استكمال عبد الرحمن الأوسط

لأسس الحضارة الأندلسية

تختلف الأمم القديمة فى الدور الذى أدته للحضارة الإنسانية فمنها أمم لها دور ممتاز مثل الأمتين اليونانية والرومانية اللتين أثرتا آثاراً واسعة فى الحضارة الأوروبية الحديثة ، ومنها أمم تجدد لها هذا الدور مع ما اختلف عليها أو صادفها من أحداث وخطوب مثل الأمة المصرية أم الحضارات القديمة ، ومنها أمم كان دورها محدوداً مثل الأمتين البابلية، والآشورية اللتين انتهى دورهما مع انتهاء تاريخهما القديم .

ولم يكن للأمة الإيبيرية دور حضارى فى الأزمنة القديمة إذ ظلت حقباً متصلة أمة عادية تستقبل الحضارات المختلفة دون أن تصطنع لنفسها حضارة متميزة ، وكانت أول حضارة استقبلتها الحضارة الفينيقية على أيدى الفينيقيين الذين غزوها فى القرن العاشر قبل الميلاد . واتخذوا فيها مستعمرات لهم فى مالقة وقادش واستقبلت بعدهم بنحو خمسة قرون الحضارة اليونانية على أيدى اليونانيين الذين غزوها وأسسوا فيها مدينة برشلونة

وهم الذين سموها إيبيريا ، ونشبت بينهم وبين الفينيقيين حروب استعان فيها الأخيرون بأبناء عمومتهم القرطاجنيين فنصروهم ، واستقبلت إيبيريا حضارتهم ، وأسسوا بها مدينة قرطاجنة على البحر المتوسط باسم مدينتهم فى إفريقيا واشتعلت الحرب بينهم بقيادة هانيبال وبين الرومان ، وانتصر الأخيرون فى مطالع القرن الثانى قبل الميلاد ، وتنبه الرومان حينئذ إلى ما فى إيبيريا من ثروة عظيمة . فنزلوها بجيوشهم وضموها إلى ممتلكاتهم ونشروا فيها - بواسطة جنودهم ، ومن رحل إليها حين سمع بخيراتها من بلدهم - لغتهم اللاتينية . وحين اعتنقوا المسيحية نشروها بها وهم الذين سموها باسم إسبانيا الذى لا يزال باقياً إلى اليوم . وشاركت إسبانيا بعض المشاركة فى حياة روما السياسية والأدبية عن طريق من نشأوا فيها - أو ولدوا بها - لأسر إيطالية ثم رحلوا عنها إلى روما الأم كى ينالوا بها شيئاً من المجد أو الشهرة ، ومعروف ما بلغته الخطابة السياسية والقضائية فى روما من ازدهار ، وتشاركها إسبانيا فى هذا النشاط الخطابى باثنين من أبنائها القرطبيين هما سنيكا الأب الذى نشأ فى قرطبة وانتقل إلى روما وعلم فيها الخطابة وسنيكا الابن الذى ولد بقرطبة فى العام الرابع قبل الميلاد ، وجىء به إلى روما وتعلم بها الخطابة على أبيه والفلسفة على بعض من كان بها من معلميها ، وأصبح فليسوفاً رواقياً ومعلماً

كبيراً للخطابة وعلمها القيصر نيرون . وقد أفنى الابن والأب جميعاً شخصيتهما فى الأدب اللاتينى الرومانى بحيث لا نجد عندهما ولا عند من بارح إسبانيا إلى روما مثلهما مشاركاً فى أدبها شيئاً يتميزون به كأدباء إسبانيين فما أنتجوه من الأدب ، وهم لم ينتجوه فى إسبانيا إنما أنتجوه فى روما وهو بذلك أدب لا تينى رومانى خالص ، وإسبانيا بذلك لا يزال شأنها فى العصر الرومانى مثل شأنها فى العصور السابقة لا تضيف إلى الحضارة العالمية شيئاً إسبانياً له ميزات أو طوابع خاصة . وبمجرد أن نصل إلى القرن الخامس الميلادى تغزوها القبائل الجرمانية المتبربرة التى قضت على الدولة الرومانية الغربية ، ويحكمها منهم القوط إلى أن استولى عليها منهم العرب ولم يكن للقوط حضارة ولا ثقافة وقد قضوا على ما كان بها من حضارة وثقافة رومانيتين ، وأخذت إسبانيا تعيش طوال حكمهم حياة شظف قاسية يرهقهم فيها ظلم لا حد له ، وضرائب فادحة .

وواضح أنه حين فتح العرب إسبانيا لم يكن بها تراث حضارى لا مادى ولا معنوى وكان أول من التقوا بهم فى إسبانيا قبائل الوانداك الجرمانية الذين كانوا ينزلون فى قسمها الجنوبى وكان يسمى نسبة لهم " ڤاندالوسيا " فسماه العرب الأندلس ، وأطلقوا هذا الاسم على إيبيريا جميعها ومضوا يفتحون البقية من شماليها

وهم يدوون بالقرآن الكريم دوىّ النحل ودخلت كثرة من أهل إسبانيا فى الإسلام ، لما وجدوا فيه من التعاليم السمحة الإنسانية المثالية ، وسرعان ما تعالت فى أركان إسبانيا وما أسس فيها من المساجد كلمة " الله أكبر " وكان ذلك أول أساس رسخ فى تلك البلاد النائية للحضارة العربية الأندلسية بكل ما يحمل من قيم روحية واجتماعية وعقلية وإنسانية ، قيم تسمو بالمسلم روحيا وسلوكيا وعقليا مسوية بين أفراد المسلمين من العرب والإسبان فى جميع الحقوق والواجبات دون أى نزعة عنصرية مع الاعتراف إلى أقصى حد بكرامة الإسبانى المسلم وحريته .

واقترن بهذا الأساس فى الحضارة الأندلسية منذ أول الأمر أساس تعلم العربية لإقامة شعائر الدين واستيعاب تعاليمه وتمثلها كما جاءت فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف ، وأخذت كثرة من الفاتحين تقوم على تعليمها وتحفيظ القرآن فى المساجد والكتاتيب بحيث لا نغلو إذا قلنا : إنه لم تبق بلد فتحها العرب فى القرن الأول الهجرى إلا فتحتها معهم لغتهم ، إذ تحل فى ألسنة البلاد المفتوحة محل لغاتها الأصلية سواء فى ذلك من أسلموا من أهلها ومن ظلوا على دينهم . أما الأولون فلكى يفقهوا الدين الحنيف فقهاً حسناً . وأما الثانون فلما راعهم من بيانها وأدائها البارع للمعانى . مما جعلهم مثل من أسلموا منهم

يفرضونها علي أنفسهم ويحاولون إتقان النطق بها وتعلمها حتى يستطيعوا أن يؤدوا بها عواطفهم وأفكارهم أداء لا يخلو من بعض الروعة.

•

وأخذت ترسخ مع أساس العربية والإسلام التقاليد العربية وخاصة مع حكم عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية فى سنة ١٣٨ للهجرة إذ حاول أن يصوغ بقرطبة دولة كدولة آبائه الأمويين بدمشق ، ويبنى لنفسه قصراً كقصر أبيه هشام المسمى بالرصافة فى صحراء تدمر ويسميه بنفس اسمه ، بناه خارج قرطبة . ويعنى بالفقهاء واللغويين والأدباء . ويسير سيرته ابنه هشام وحفيده الحكم ، فيتمسكان بالتقاليد العربية ، وكما حقق عبد الرحمن الداخل للأندلس وحدتها السياسية حقق لها هشام والحكم وحدتها المذهبية فى الفقه الإسلامى إذ عملا على أن يكون المرجع فيه إلى مذهب مالك فقيه الحجاز المشهور . وتوثقت هذه الوحدة المذهبية فى عهد عبد الرحمن الأوسط بن الحكم منذ تولى الإمارة سنة ٢٠٦ إلى نهاية حكمه سنة ٢٣٨ إذ كان لا يتولى القضاء فى أيامه إلا فقهاء المذهب المالكى ممن يختارهم مستشاره يحيى الليثى إمام المذهب فى قرطبة ، والناس سراع إلى ما يحقق مآربهم ويبلغون به أغراضهم فانتشر المذهب فى جميع أرجاء الأندلس وبلدانها ، وظل مزدهراً بها طوال عصورها إلى عصر

الموحدين فى القرن السادس الهجرى . وبمجرد انتهائه عاد إلى المذهب هناك نشاطه وازدهاره . ويجمع المؤرخون على أن عبد الرحمن الأوسط الذى امتد حكمه إلى أكثر من ثلاثين عاماً أول من فخم السلطنة بالأندلس وكساها أبهة الجلالة بما شيد من القصور الباذخة وأكمل من أسس الحضارة الأندلسية المادية والمعنوية ، وقد استحالت قصوره قصوراً بغدادية بما ملأها به من الطنافس والتحف وأدوات الزينة والرياش المشرقية ، وكان قد تسامع به التجار فى أنحاء البلاد العربية وبالأخص فى بغداد فجلبوا إليه ذخائر منها بديعة ، واتفق أن ولى عقب انتهاب النفائس التى كانت بقصور الرشيد عند خلع ابنه الأمين فجاءه التجار منها بكثير من التحف والطرف ، من ذلك عقد شهير من الجواهر الكريمة للسيدة زبيدة زوج الرشيد وقد أهداه لزوجه المحبوبة طروب ، وجاراه وزراؤه وأعيان قرطبة فى اتخاذ نفيس الرياش والأثاث والتحف البديعة مما دفعه إلى إقامة مصانع فى عاصمته لإنتاج الأقمشة والمنسوجات الفاخرة المشبهة لما كان يصنع ببغداد مما جعلها أختاً غربية لها وطبعها بطوابعها العربية ، أو بعبارة أدق بطوابع حضارتها المادية ، وسنرى هذه الطوابع تزداد اكتمالاً عما قليل .

وكان من حسن طالع عبد الرحمن الأوسط أن وفد عليه في أول حكمه مغن مبدع من تلاميذ إسحق الموصلي أشهر المغنين ببغداد هو زرياب علي بن نافع المولود سنة ١٧٢ للهجرة واحتفل به احتفالاً عظيماً ، وأغدق عليه مالاً كثيراً وأقطعه ضيعة وافرة الغلة ومنحه داراً واسعة ، ووفر له كل ما يمكن من معيشة كريمة طوال حكمه . وكان زرياب شخصاً حضارياً على شاكلة عبد الرحمن الأوسط ، وتميز عنه بأنه جاء إلى قرطبة لا يحمل إليها تلاحين الغناء ببغداد فحسب ، بل أيضاً يحمل إليها حضارتها المادية ، وسرعان ما أخذ يفرض هذه الحضارة على المجتمع القرطبي في المسكن والملبس والمأكل ، أما في المسكن فأخذ القرطبيين بالتأنق في رياش منازلهم وأثاثها وأرائكها ووسائدها وطنافسها وكل ما يزينها من الطرف البديعة حتى غدا كثير من المنازل والقصور بقرطبة لا يقل عن قصور بغداد ومنازلها فخامة وأناقة ، وأما من حيث الملبس فعلم القرطبيين أن فصل الشتاء فصل الثياب الصوفية والفِراء ، وأن الصيف والربيع جميعاً موسم الثياب الحريرية والقطنية والكتانية ، ولا بأس من ارتداء الملابس المبطنة الملونة في الخريف ، وأخذهم بتقصير الثياب وتضييق الأكمام وتقصير الرجال لشعرهم في جانبي الرأس وكيفية إرساله وراء آذانهم وفرقه لهم فرقتين بحيث لا تتهدل خصلاته فوق جباههم ، واستن للنساء بالمثل آداباً في زيهن

وثيابهن وعلّمهن كيف يصففن شعرهن وكيف يرسلنه على جباههن وبجوار أذانهن ، وتفنن للنساء والرجال فى العطور فنفرهم من العطور الثقيلة كالعنبر والمسك والطيب وحببهم جميعاً فى عطور الأزهار الخفيفة ، وأما فى الأكل فعلم القرطبيين أن يتناولوه على الموائد وأن يستخدموا فيه الملاعق والسكاكين ، وعلمهم أن يبدأوا فيه بالحساء ، ثم تقدم اللحوم وألوان الطعام بشىء من الترتيب ، ويختمونه بالحلوى، وما قد يكون من الأشربة ، وحبّب إليهم أن يستخدموا فى الطعام كئوس الزجاج وأكوابه بدلاً من الأكواب والكئوس الذهبية والفضية كما حبب إليهم أن تكون مفارش المائدة من الجلد الرقيق بدلاً من المفارش الكتانية . وقد حبب إليهم أطعمة بغداد من الخضر بأنواعها بدلاً من الأطعمة البدائية مثل الثريد كما علمهم الطهى البغدادى من كل نوع وكل لون وما يضاف إلى الأطعمة من الأفاوية ومن التوابل المختلفة .

وكل هذه الجوانب من حضارة بغداد والمشرق المادية رسخت فى قرطبة وحاكتها فيه المدن والبلدان هناك بحيث أصبحت سنناً أندلسية عامة . ولا ريب فى أن عبد الرحمن الأوسط كان له الفضل الأول فى رسوخها بتشجيعه لزرياب وحرصه على أن يبلغ بها الغاية. ودفع الناس من حوله – من حاشيته وغيرهم – ليتمثلوا كل

ما نصحهم به فى رياشهم وملابسهم وهيآتهم ومطاعمهم ومشاربهم وبذلك تغير المجتمع الأندلسى تغيراً حضاريا مشرقيا واسعاً ، وكان زرياب مغنياً موهوباً ، وقد تمثل كل ما ارتقى إليه الغناء العربى فى بغداد على يد أستاذه إسحق الموصلى ، كما مر بنا من إيقاعات وتلاحين بديعة ، وأخذ يضيف إليها تلاحين وإيقاعات جديدة ، واشتهر بإضافته إلى العود وتراً خامساً ، وأنه اخترع للعود مِضْراباً من قوادم النسر ، وليس ذلك كل ما نفذ إليه . فقد جعل للغناء بالأندلس تقاليد تميز بها إذ يبدأ المغنى بالنشيد بأى نقر ويخرج منه إلى البسيط ويختم بالمحركات ، والأهازيج . وأخذ عبد الرحمن الأوسط يشجعه بكل ما استطاع من صور التشجيع وأنشأ له معهداً موسيقيا لتعليم فتيان قرطبة وفتياتها وجواريها الغناء والموسيقى ؛ وعلّم زرياب فيه أولاده من البنين والبنات وبعض جوارى الأمير والجوارى القرطبيات .

ويقول التيفاشى فى كتاب له لا يزال مخطوطاً :" أخبرنى أبو الحسن على بن سعيد (الغرناطى صاحب كتاب المغرب المشهور) أن أهل الأندلس فى القديم كان غناؤهم إما بطريقة النصارى وإما بطريقة حداة العرب ، ولم يكن عندهم قانون يعتمدون عليه إلى أن تأثلت الدولة الأموية فى مدة عبد الرحمن الأوسط فوفد عليه الإمام المقدم فى هذا الشأن على بن نافع الملقب بزرياب غلام إسحق

الموصلى فجاء بما لم تعهده الأسماع " وابن سعيد بقوله : إنه لم يكن معروفاً فى الأندلس قبل زرياب سوى الحداء العربى البسيط وغناء النصارى يقصد ترانيمهم الكنسية ، ويقول: إنه لم يكن لها قانون عندهم فقد كانت - مثل الحداء العربى - ترانيم أولية ، أما زرياب فقد كان لغنائه وموسيقاه قانون مضبوط بنسب زمنية مقدرة ، وبعبارة أوضح برُقُمٍ (نوت) موسيقية ، على نحو ما نقرأ فى مجلدات الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى من رقم الغناء العربى وموسيقاه وهى رقم تعد بالآلاف فى تلك المجلدات الخمسة والعشرين إذ يُذكر مع كل أغنية رقيمها الموسيقى . وظلت الأندلس بعد زرياب تحظى بنهضة غنائية واسعة كان لها تأثير بعيد فى إسبانيا وما وراء إسبانيا من الأمم الأوربية إذ لم يكونوا يعرفون جميعاً سوى ترانيم الكنائس . إلى أن تلقنت إسبانيا المسيحية الموسيقى وألحانها ورقمها (نوتها) الموسيقية عن طريق الأندلس وموسيقاه ، فهو الذى أعدَّها لتنفذ إلى موسيقاها الحديثة كما تنفذ من ورائها أوربا إلى نظرياتها الموسيقية ، ولا يزال كثير من الآلات الموسيقية عند الإسبان إلى اليوم يحمل أسماءه العربية مثل العود ، والقيثارة والرباب ، ولا يزال تأثير زرياب والموسيقى الأندلسية واضحاً فى الموسيقى المغربية وما يتصل بها من الغناء إلى اليوم .

وكان الأمير عبد الرحمن أديباً شاعراً ، ورعى الأدباء والشعراء فى زمنه وأصبح ذلك تقليداً لكل من ولى الأندلس من أسرته ، وأخذ الشعراء منذ زمنه يكثرون فى الأندلس ، ومن شعرائه الذين كانوا يكثرون من مديحه ويكثر هو من نوالهم وعطائهم مؤمن بن سعيد وعبد الله بن الشمّر وسعيد بن الفرج المعروف بالرشاش ويحيى بن الحكم الملقب بالغزال ، وأرسله فى سفارتين إلى امبراطور بيزنطة ، وملك الدانمرك أداهما على خير وجه . ومدحته الشاعرة حسانة بنت عاصم بن زيد وأجزل لها فى العطاء ، وصنيعه معها يعد رمزاً لإعزازه للمرأة ، وكان واسع الأفق ، فرفع من شأن المرأة فى عصره ، وأتاح لزوجه طروب ، وغيرها من زوجاته منزلة رفيعة فى أوساط المجتمع القرطبى ، مما جعل الشعراء يتنافسون فى وصف جمالهن وثقافتهن وتقواهن وصلاحهن ، وكان يأخذ بناته - كما كان يأخذ أبناءه بالتثقف والتعليم ، وأخذ أهل قرطبة يحاكونه فى تعليم بناتهن مما جعل الأندلس تمتاز على مر العصور بكثيرات من العالمات بالحديث النبوى والقراءات وبفنون العلوم من طب وغير طب ، وتكثر الشاعرات حتى ليترجم المقَّرى فى كتابه " نفح الطيب " لأكثر من عشرين شاعرة .

وكان عبد الرحمن الأوسط قد وسع الجامع الكبير بمقدار سبعة صفوف من الأعمدة ، وما زال أبناؤه يعنون به وبأعمدته وزخارفه

حتى غدا إحدى عجائب المعمار الأندلسى إلى اليوم وبنى عبد الرحمن جامع أشبيلية الكبير واندفعت زوجاته يبنين مساجد فى أحياء قرطبة ، واشتهرت ابنته البهاء بتقواها وبنائها مسجداً بحى الرصافة ، وكانت تكتب المصاحف بيدها وتحبسها على مسجدها وغيره من المساجد القرطبية .

ومما يؤكد سعة أفق عبد الرحمن وعقليته ما حكاه ابن حيان فى المقتبس عنه من أنه كان قد اعتاد الركوب مع كريماته وبعض نسائه للنزهة ، واستمر هذا التقليد من خروج المرأة مع الأمراء فى مواكب بعده ، إذ يروى ابن حزم فى رسالة نشرتُها تسمى نقط العروس أن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠ هـ) أركب فى أحد مواكبه امرأة مهيبة تسمى رسيس سافرة وعلى رأسها قلنسوة وقد تقلدت سيفاً ، جعلها على بغل خلفه بينه وبين أولاده وشق بموكبه قرطبة من باب العطارين والربض الغربى كله إلى مدينته التى بناها فى الشمال الغربى من قرطبة عند أقدام جبل العروس والتى سماها باسم الزهراء . ولعل فى هذا كله ما يدل بوضوح على المكانة التى أنزل فيها عبد الرحمن الأوسط المرأة الأندلسية مما جعلها تتمتع فى الأجيال التالية بغير قليل من الحرية والكرامة ومحاولة التثقف ثقافة واسعة حتى لتصبح منهن فيما بعد سيدات صواحب ندوات أدبية يختلف إليها غير أديب نابه على

نحـو مـا هـو مـعـروف عن ولادة ابنة الخليفة المستكفى ، وكـانت شاعرة مطبوعة ، وكذلك عن السيدة حواء زوجة سير بن أبى بكر حاكم إشبيلية للمرابطين وكانت أديبة شاعرة سريعة البديهة مع جلالة ووقار ، وكان يختلف إلى ندوتها شعراء إشبيلية وفلاسفتها ومفكروها فتستمع إلى أحاديثهم وتحاورهم حواراً بديعاً . والمرأة الأندلسية تسبق فى ذلك المرأة الباريسية وصالوناتها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر بغير قليل من القرون وكل ذلك يُعَدّ من بعض الوجوه من أعمال عبد الرحمن الأوسط وما أتاح للمرأة الأندلسية فى عصره من منزلة كريمة .

وعلى نحو مارعَى الأمير عبد الرحمن الأوسط المرأة الأندلسية ورعا الشعراء كان يرعى العلماء من كل صنف وعلى كل لون ، وكان يفرد لهم أياماً للقائه ويداخل كل صاحب علم فى علمه ، ولم تقف رعايته للعلوم عند العلوم الدينية واللغوية فقد أخذ يطمح لأن تتقن قرطبة والأندلس علوم الأوائل ، وهى علوم الكيمياء والفيزيقا والرياضة والهندسة والطب والمنطق والفلسفة ، وكانت بغداد قد سبقت إلى ترجمتها عن اليونان والفرس والهند فرأى أن يرسل عباس بن ناصح أحد قضاته إلى بغداد لالتماس كتب هذه العلوم وأكبر الظن أنه أرسله على رأس بعثة لجلب هذه الكتب أو بعبارة أدق لجلب ما يمكن منها فأتاه بكتاب السند هند وغيره من كتب

تلك العلوم ، ومعروف أن كتاب السندهند مترجم عن الهندية وأنه في علم الحساب والهيئة . وكان جَلْبَ هذه الكتب إلى قرطبة فاتحة عصر علمى جديد ، عصر يعنى كل العناية بعلوم الأوائل من طب وغير طب ، وبمجرد أن وصلت هذه الكتب إلى الأندلس أكبَّ عليها الأندلسيون وأخذوا يتمثلونها ، وظهر بينهم فى عهد عبد الرحمن الأوسط نفسه من استوعبوا هذا العلم أو ذاك من مثل عباس بن فرناس ، الذى حذق علمى التنجيم والكيمياء سريعاً ، ووصف بأنه حكيم الأندلس ، واشتهر بكثرة ابتكاراته وكان موسيقياً يحسن الضرب على العود وصنع الألحان ، ويقول ابن سعيد إنه أول من اكتشف فى معمله بالأندلس صناعة الزجاج والبلور من الحجارة . ومن أهم مبتكراته العجيبة ما اشتهر عنه من محاولته الطيران فى السماء واحتال لذلك حيلة غريبة إذ صنع لنفسه كساء من ريش اتخذه من شقق حرير أبيض ، وجعل له جناحين كبيرين وضع فيهما ذراعيه وقذف بنفسه فى الهواء من قمة تل عال واستطاع الطيران والسباحة فى الهواء ووقع على مسافة غير قليلة. ومع أن المحاولة أخفقت فإنها تعد أول إرهاص مبشر للإنسان بتحقيق فكرة الطيران والتحليق فى الهواء . وإنما ذكرت عباس بن فرناس لأتخذ منه رمزاً لإكباب الأندلسيين على علوم الأوائل وما بثت فى نفوسهم من رغبة قوية فى الابتكار وقد اشتهر بأنه فيلسوف الأندلس لما حاز لنفسه من دراسة الفلسفة واشتهر بكثرة تجاربه

فى الكيمياء واستطاع النفوذ إلى طريقة صناعة الزجاج – كما ذكرت – من الحجارة ، وهى طريقة لم يسبقه إليها أحد . وأيضاً فإنه ابتكر آلة عرفت باسم المنقانة تعتمد على الظل فى معرفة الوقت .

ومما يصور بوضوح ما كان لإدخال عبد الرحمن الأوسط علوم الأوائل فى الأندلس من أثر بعيد حتى أصبح العلم بها مثل العلم بالعلوم الدينية واللغوية من الأسس الأساسية للحضارة الأندلسية أنه لا يمر على الأندلس نحو قرن حتى ينشأ فيها الصيدلى ابن جلجل ويؤلف كتاباً فى " طبقات الأطباء والحكماء " ، من قديم الأزمنة حتى زمنه ، وقد عرض لليونان فيهم خمس طبقات ولأطباء المشرق العربى طبقتين ترجم فيهما لستة عشر طبيباً ولأطباء المغرب طبقة ترجم فيها لثلاثة منهم . وجعل للأندلس الطبقة التاسعة وترجم فيها لاثنين وعشرين طبيباً ويقول – " لم يكن للأندلسيين بصرٌ بصناعة الطب فى أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم " وكأنما حدثت سريعاً نهضة كبيرة للطب هيأت لظهور العدد الوافر المذكور من الأطباء ولم تلبث تلك النهضة أن تُوِّجتْ بالزهراوى فى القرن الرابع الهجرى الذى يعد أبا للطب العالمى الحديث . وبالمثل الفلسفة لم يكن للأندلسيين – كمايقول ابن جلجل بصر بها فى أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط وقد مضوا

يعكفون على كتبها حتى ظهر منهم عالميون مثل ابن رشد الذى ظلت الجامعات الأوربية تدرس كتبه وفكره طويلاً مع اعترافهم بتأثيره العميق فى الفكر الأوربى الحديث . ويكبُّ الأندلسيون على كل علوم الأوائل منذ وصلهم بها الأمير عبد الرحمن الأوسط ونبغ هناك على مر الزمن - علماء عالميون أثْرو العلم العالمى ثراء عظيماً مثل الزرقالى الرياضى والبِطْرَوجى الفلكى وابن البيطار الصيدلى . وكل ذلك بفضل عبد الرحمن الأوسط وعمله على إدخاله علوم الأوائل فى الأندلس إذ دَفَع الناس هناك لا ستيعابها وقد مضوا لا يكتفون باستيعابها بل ظلوا يضيفون إليها إضافات باهرة .

ومن أروع ما أرساه عبد الرحمن الأوسط فى الحضارة الأندلسية تنظيمه لأداة الحكم تنظيماً حضاريا مبتكراً لا فى الأندلس وحدها بل أيضاً فى العالم الغربىَ جميعه إذ أنشأ هناك مجلس وزراء على نحو ما نعرف الآن من مجالس الوزراء الحديثة فى مصر وغيرها من الأمم العربية والغربية وسمى رئيس الوزراء باسم الحاجب ، واتخذ لهذا المجلس فى قصره بيتاً ، رتب اختلاف الوزراء إليه فى كل يوم كما رتَّب لكل وزير اختصاصات بشأن من شئون الحكم ، فهذا وزير للأمن أو كما نقول الآن وزير للداخلية ، وذاك وزير للحرب ويسمى الوزير القائد ، ووزير للمال ويسمى

الخازن ، وهكذا ، ولكل وزير مسئولياته وديوانه وكتابه . والوزراء يجتمعون يوميا فى بيت الوزارة ، ويجلسون فيه على أرائك أو مقاعد وثيرة ويعرض عليهم الحاجب الشئون المهمة ، ويظلون يتشاورون فى كل شأن أو مسألة من مسائل الحكم ، وحين يجتمع رأيهم فى أمر يعرضه الحاجب على عبد الرحمن الأوسط وإن لم يقره أعاده الحاجب إلى مجلس الوزراء للنظر فيه مرة ثانية . وكان عبد الرحمن الأوسط يستدعيهم أحياناً جماعة للمشاورة فى بعض المسائل ، فيرأس الجلسة أو المجلس ويتفاوضون فيه ويتخذ المجلس القرار ، وأحياناً كان الأمير يستدعى الوزراء فرادى - للمراجعة فى بعض الأمور أو ليعرض على الوزير شكوى فى اختصاصه من بعض أفراد الرعية . وكان ما تتفق عليه الوزارة ويقره الأمير يرسل إلى ديوانه ليصاغ الصياغة الديوانية الملائمة ويختم بخاتم الأمير أو خاتم الدولة ويصبح نافذاً من حين صدوره . ويذكر ابن حيان فى المقتبس أن عدد الوزراء فى عهد عبد الرحمن الأوسط بلغ ستة عشر وزيراً ، وهم حاشيته ورجاله الأقربون ، وكان رئيسهم وهو الحاجب يُعَدّ الشخص الثانى فى الدولة بعد الأمير ، وينوّه ابن حيان بوزراء عبد الرحمن فيقول : " اجتمع له من سَراة الوزراء أولى الحلوم والنهى والمعرفة والذكاء عصابة لم يجتمع مثلها عند أحد من حكام بنى أمية فى الأندلس قبله ولا بعده ، وفى ذلك ما يدل بوضوح على

مقدرة عبد الرحمن الأوسط فى اصطفاء الرجال الذين يعاونونه فى شئون الدولة والحكم ، واستمر بعده هذا النظام الوزارى الذى أحكمه فى الأندلس .

ولم يكتف عبد الرحمن الأوسط فى ضبط الحكم وإدارته بهذا النظام الوزارى وحده فقد وزع المصالح العامة على هيآت سميت خططاً وأسند كل خطة لموظف كبير كانت تلى وظيفته وظيفة الوزير ، وأحياناً كانت تسند الخطة إلى بعض الوزراء ومن أهم الخطط خطة الخيل ويعنى صاحبها بخيل الحرب وما يلزمها من تنمية لها وأعلاف ، وبجانبها خطة الأعدة ويعنى صاحبها بإعداد كل ما يلزم الجيش من أدوات الحرب ، ومن الخطط المهمة أيضا خطة المظالم وينظر صاحبها فى الشكاوى المقدمة ضد امراء البيت الأموى ورجال الدولة ، كما ينظر فى تطبيق الأحكام على طبقات الأمة دون أى تفرقة بين طبقة وطبقة ، وبجانب ذلك خطة البحر وينظر صاحبها فى كل ما يتصل بشئون الأسطول فى البحر المتوسط ، وخطة القيادة ويشرف صاحبها على قيادة الجيوش وكثيراً ما يكون عبد الرحمن الأوسط هو نفسه القائد ، وكانت قيادة الجيوش من أهم ما يناط بالحاجب إذ كانت تتوفر فيه غالباً خصال كثيرة منها إن يكون عسكريا بارعاً وسياسيا محنكاً . وكانت للشرطة خطة مهمة إذ يقوم صاحبها على أمن قرطبة ،

وكانت بجانبها خطة الحسبة إذ يشرف صاحبها على الأسواق فيراقب الأسعار ويفصل في الخصومات التي تنشأ بين التجار والناس من مشترين وغيرهم . ومن الخطط المهمة خطة الكتابة وهي تقابل ديوان الإنشاء في المشرق وقد يرقى صاحبها إلى مرتبة الوزراء .

ومن أهم الخطط الكبرى خطة القضاء ، وقد اختار لها عبد الرحمن الأوسط هيئة استشارية من كبار الشيوخ كان يرجع إليها قضاة قرطبة والعواصم بالأندلس كلما انبهم عليهم الحكم في قضية كما كان يرجع إليها الأمير عبد الرحمن في شئون الدولة وكان يرأسها في أوائل أيامه عيسى بن دينار الذي فقه المذهب المالكي على عبد الرحمن بن القاسم بالفسطاط في مصر ، ويقول ابن حيان " كان لا يعد في الأندلس أفقه منه في نظرائه " ويقول ابن وضاح "هو الذي علم أهل الأندلس الفقه " توفي سنة ٢١٢ فخلفه على رياسة الهيئة الاستشارية يحيى الليثي إلى أن توفي سنة ٢٣٤ وكان يقوم من القضاة والأمير عبد الرحمن الأوسط مقام وزير العدل الحالي وعلت منزلته عنده ، وصار يلتزم من إعظامه - كما يقول ابن حيان وتكريمه وتنفيذه ما يراه - ما يلتزمه الولد لأبيه فلا يستقضي قاضياً ولا يعقد عقداً ولا يمضي أمراً في الحكم إلا عن رأيه وبعد مشورته ، وبه انتشر مذهب مالك في الأندلس ، كما ذكرنا في صدر هذا الحديث .

وواضح من كل ما عرضت عن عهد عبد الرحمن الأوسط أنه كان عهد استكمال رائع لأسس الحضارة الأندلسية المادية والمعنوية بطوابعها العربية المشرقية مع إرسائه فيها أسس نهضة عظيمة في الغناء والموسيقى وعلوم الأوائل من فلسفة وغير فلسفة ، وهى نهضة أفاد منها الغرب - فيما بعد - أيما فائدة ، وقد رأينا كيف نظم عبد الرحمن الأوسط أداة الحكم فى الأندلس تنظيماً حضارياً مثل التنظيمات الحديثة، فاتخذ مجلس وزراء يصرف شئون الدولة العامة ، كما اتخذ خططاً تدبِّر مصالح الرعية . وكان يرجع فى أمور حكمه إلى هيئة استشارية من علماء الدين وشيوخه ، وبذلك كله جعل عبد الرحمن الأوسط الحكم الأموى فى الأندلس - منذ عصره - حكماً شوريا إلى حد كبير .

إيحاءات بديع الزمان

لابن شهيد فى التوابع والزوابع

بديع الزمان هو أحمد بن الحسين.أصله من همذان بإيران وإليها ينسب توفى سنة ٣٩٨ ولم ينل كاتب فى عصره ما نال من التمجيد والشهرة ، وفيه يقول الثعالبى فى اليتيمة : " هو معجزة همذان ونادرة الفلك وبكر عُطارد وفرد الدهر وغرة العصر ، لم يُرَ ولم يُرْوَ أن أحدا بلغ مبلغه من لبٍّ الأدب وسره ، وجاء بمثل إعجازه وسحره " وكان أهم ما راع معاصريه من أدبه مقاماته المشهورة . وقبيل وفاته بنحو ستة عشر عاما ولد بقرطبة فى الأندلس ابن شهيد أحمد بن عبد الملك فى بيت ثراء وعز ومجد ، وتوفى سنة ٤٢٦ وكان شاعراً وناثراً بارعاً وفيه يقول ابن بسام :

" نادرة الفلك الدوار ، وأعجوبة الليل والنهار ، إن هزل فسَجْع الحمام ، أوجدٌ فزئير الأسد الضِّرْغام ، نظمٌ كما اتسق الدرُّ على النحور ونثر كما خُلط المسك بالكافور " .

ومن أروع آثار ابن شهيد الأدبية رسالته " التوابع والزوابع " والتابع الجنى والزوبعة الشيطان ، وهو يذكر فى صدرها أن

صديقا له يسمى أبا بكر بن حزم كان يروعه أدبه روعة لاحدٍّ لها ، مما جعله يقسم أن له تابعة من الجن تنجده فى فرائده البديعة وزوبعة من الشياطين تسعفه وتؤيده . واعترف لصديقه بأن له تابعا من الجن يسمى زهير بن نُمَير من قبيلة أشجع فى الجن تقابل قبيلة ابن شهيد أشجع العربية فى الإنس ، وأن هذا التابع تراءى له يوما على فرس أدهم بباب مجلسه حين أُرْتج عليه القول فى أثناء مرثية ينظمها فأنشده بيتا حلَّ به عُقْدة لسانه فى مرثيته، وتحادثا حينا ، وعلَّمه أبياتا ينشدها إذا أراد استحضاره ، وأوثب فرسه الحائط وغاب عنه ، فكان ابن شهيد بعد هذا اللقاء لتابعه كلما أُرْتج عليه أو ضاق به مسلك فى الشعر ينشد الأبيات فيتراءى له توًا فيدرك بقريحته ما يرغب فيه ويريده . ويقول ابن شهيد لصاحبه أبى بكر بن حزم : إن صحبته لتابعه تأكدت وأنهما ذات يوم تذاكرا أخبار الشعراء والكتاب القدماء ومن كان يألفهم من التوابع والزوابع ، وأنه سأل تابعه هل يمكن أن يلتقى معه بهم ، فقال له : ينبغى أن أستأذن شيخى من الجن فإن أذن لى حققت لك ما تريد ، وطار عنه إلى شيخه الجنى كلمح بالبصر . وعاد مسرعا وقد أذن له ، فأردف ابن شهيد على فرسه ، وسار بهما كالطائر يجتاب الجوَّ فالجو ويقطع الدوَّ فالدَّوَّ إلى أن رأى ابن شهيد أرض الجن : أرضا لا كأرض الإنس مكتظة بالشجر عطرة الزهر ، وقال له تابعه : بمن تريد أن نبدأ ، فأجابه ابن شهيد:

الكُتّاب أولى بالتقديم ولكنى إلى الشعراء أشوق ، فقال له من تريد منهم ؟ قال صاحبَ امرىء القيس ، فأمال تابعه عنان الفرس إلى واد من أودية الجن وصاح : ياعتيبة بن نوفل ، ومثَل لهما فأقسم عليه تابع ابن شهيد بسِقْط اللِّوَى فحَوْمَل ويوم دارة جُلْجُل (وهى مواضع فى المعلقة) إلا ما أنشدتنا من شعرك وسمعتَ من الإنسى صاحبى وعرّفتَنا كيف إجازتك له ، وسأله عتيبة أهذا (يريد ابن شهيد) فتاهم ؟ وما لبث أن أنشدهما قصيدة امرىء القيس :

(سَمَالَكَ شَوْقٌ بَعْدَ مَا كانَ أقْصَرَا)

حتى أتمها . وسأل ابن شهيد أن ينشده بعض شعره فهمَّ بالنكول إجلالا له، ثم تماسك وأنشده قصيدة حماسية ، فأعجب بها عتيبة وأجازه وغاب عنهما . فسأله تابعه زهير بن نمير من تريد لقاءه بعده ؟ فأجابه صاحبَ طرفة ، فأرسل فرسه قاطعا وادى عُتَيْبة إلى غَيْضَة ملتفةِ الأشجار . وفيها صاح زهير : ياعنتر بن العجلان حلَّ بك زهير وصاحبه ، ويستحلفه بِخَوْلةَ صاحبة طرفة وبما أمضى معها من ليلة إلا استقبلهما ، فبدا لهما فارس جميل الوجه متوشح بسيف ، ورحب بهما . وسأله ابن شهيد أن ينشدهما بعض قصائده، فأنشدهما لامية قصيرة لطرفة ، وأنشده ابن شهيد خمرية بديعة ، فصاح عنتر قائلا للّه أنت اذهب فإنك مجاز وغاب عنهما . فسأله زهير من تتوق إلى لقائه ؟ ويلتقيان بأبى الخطّار صاحب قيس

ابن الخَطِيم ويحيِّيهما ويستشد ابن شهيد ، وينشده إحدى قصائده ، ويعجب بها ويجيزه ويعدل إلى صاحب أبى تمام وينشده ابن شهيد بعض قصائده ، ومن بينها قصيدة فى رثاء صديقه حسَّان بن مالك ويعجب بشعره ويجيزه . ويلتقى مع تابعه زهير بصاحب البحترى ويسميِّه أبا الطبع ، وينشدهما قصيدة له إلى نهايتها ويستنشد ابن شهيد ، فيعارضه بقصيدة بديعة ، ويجيزه . ويسأل تابعه زهيرا أن يلقى به صاحب أبى نواس ، ويقول له زهير إنه بدَيْر حَنَّة منذ أشهر قد غلبت عليه الخمر ، ويركض الفرس إليه ، ويشق سمعهما قرعُ النواقيس ، وأخذا يمران بأديار وكنائس وحانات حتى انتهيا إلى دَيْر حَنَّة ، فوقف زهير ببابه ، وقال سلام على أهل دَيْر حنة فأقبلت نحوهما الرهبان وقد وضعوا فى أوساطهم الزنانير وقبضوا على العكاكيز ، ولحاهم ورءوسهم تشتعل شيبا ، وسألوا زهيرا ما بغيتك ؟ قال : حسين الدِّنان صاحب أبى نواس قالوا إنه عاكف على شراب الخمر منذ عشرة أيام، ومضوا بهما إلى بيت اصطفَّتْ دِنانه ، به حسين : شيخ طويل الوجه ، افترش أضْغات زَهْر واتكأ على زقٍّ خمر وبيده كأس كبيرة، فقال له زهير حياك اللّه أبا الإحسان ، فتمتم بكلام لا يعقل لغلبة الخمر عليه . ولم يلبث ابن شهيد أن أنشده خمرية من خمرياته، وكأنما حين سمعها عرفه . فصاح به أأشجعى أنت ؟، فقال له ابن شهيد أنا ذاك ، فاستدعى ماء شرب منه وغسل وجهه فأفاق .

واعتذر إليه ، وتلطف له طالبا منه أن ينشده بعض شعره ، فأنشده قصيدة له مشهورة فى دَيْر حَنَّة ، وكاد ابن شهيد يخرج من جلده طربا . وسأل حسين ابن شهيد أن ينشده بعض أشعاره ، فأنشده من غزله الصريح ومراثيه ومجونه وبلغ من طرب الحسين لبعض ما سمع منه أن قام يرقص به ويردده ، وأفاق ، فقال : هذا واللّه شىء لم نُلْهَمْه نحن ، واستدناه ، فدنا منه ، فقبّله بين عينيه ، وقال له اذهب فإنك مجاز على الرغم من الحاسد الكاره . وقال له تابعه زهير من تشتاق إلى لقائه بعد مَنْ لقيت ؟ فقال له خاتمة القوم صاحب أبى الطيب فقال : اشدد له حيازيمك وعَطِّر له نسيمك ، وأمال عنان فرسه نحو طريق طويل ، وجعل الفرس يركض بهما ، وزهير يتأمل آثار فرس بعيدة ، فقال له فيم تتأمل ؟ قال : إنها آثار فرس حارثة بن المغلِّس صاحب المتنبى وهو شغوف بالقنص والصيد ، وانتهيا إلى فارس على فرس بيضاء كأنه قضيب على كشيب ، وبيده قناة قد أسندها إلى عنقه وعلى رأسه عمامة حمراء قد أرخى لها عَذَبة صفراء ، فحياه زهير ، فأحسن الرد من مقلة شَوْساء ينظر بمُؤْخِرها تكبرا وتيها ، فعرَّفه زهير مقصدى ورغبتى فى إجازته لى ، واستنشد حارثة ، فأنشده قصيدة حماسية من طراز شعره وما به من حكم وشعور بالقوة وحملة على الدهر ورفعه للأراذل الجهلاء . ويعجب بشعره حارثة ، ويقول لزهير : إن امتد به العمر فلا بد أن ينظم الدرّ ، ويجيز ابن

شهيد . وبذلك يضع في ميزانه ضد خصومه إجازات هؤلاء الشعراء الكبار وشهاداتهم له بالتفوق فى الشعر والبراعة فيه .

ويسأل زهير ابن شهيد : من تريد بعد هؤلاء الشعراء ؟ فقال له: مل بى إلى الخطباء يريد الكتاب فقد كفانى ما سمعت من أصحاب الشعراء ، فركضا الفرس فى الصباح ، ولقيا فارسا أسرَّ إلى زهير ببعض الكلام وتركهما ، فقال زهير لابن شهيد : جمعت لك كتّاب الجن بِمَرْج دَهمان ، وانتهيا إلى المرج ، وإذا بناد عظيم وقد تحلّق فرسان الكلام حول شيخ أصلع جاحظ العين اليمنى على رأسه قلنسوة بيضاء طويلة ، فقال ابن شهيد سِرًّا لزهير من هذا الشيخ ؟ فأجابه عُتَيْبة بن أرقم صاحب الجاحظ ، فقال ليس لى رغبة إلا أن ألقاه وألقى صاحب عبد الحميد الكاتب ، فقال له زهير إنه ذلك الشيخ الذى بجانبه، وعرَّف زهير عتبة صاحب الجاحظ ميل ابن شهيد إليه ، فاستدناه وأخذ فى الكلام معه وأعجب به وقال له : إنك حائك للكلام مجيد ، لولا أنك مغرم بالسجع ، فكلامك أشبه بالشعر منه بالنثر ، وقال له ابن شهيد : ليس هذا - أعزك الله - منى جهلا بأمر الكتابة وما فى المماثلة والمقابلة من فضل ، وابن شهيد يريد ما تميز به الجاحظ فى كلامه من الازدواج والمماثلة بين العبارات دون محاولة للسجع وقوافيه . ويستمر ابن شهيد قائلا لصاحب الجاحظ إنه إنما يستخدم السجع تمشياً

مع فرسان الكلام لزمنه الذين يستحبون السجع على الازدواج ، ويصوغ ذلك فى عبارات شبيهة بأسلوب الجاحظ وما يطبعه من الازدواج والمماثلة . ويتدخل صاحب عبد الحميد الكاتب فيقول لصاحب الجاحظ : لا يغرنَّك منه ما تكلف من المماثلة فإن السجع طبعه . ويقول له ابن شهيد لا تعجل ، ويصوغ له عبارات من نمط أسلوبه . ويتلطف صاحبا الجاحظ وعبد الحميد معه ويسألانه أن يقرأ عليهما بعض رسائله ، فيقرأ رسالته فى صفة البرد والنار والحطب ويستحسنانها، ثم يقرأ رسالته فى الحلواء ، ويختار طائفة من ألوانها مثل الفالوذج وهو حلواء هلامية من الدقيق والسمن وعسل النحل ، والخبيص وهو حلواء من التمر والسمن والبيض ، والزلابية وهى حلواء من عجين يُقْلى فى الزيت ويُعْقَد بعسل النَّحل ، إلى غير ذلك من ألوان يطيل فى وصفها ساجعاً سجعاً بديعاً فى لفظ رشيق ، مما جعل صاحبا الجاحظ وعبد الحميد يقولان له : إن لسجعك موضعاً من القلب ومكانا من النفس . ويسألانه عمن يطعنون عليه من أبناء جنسه ، وعمن هم أشد طعنا عليه ؟ فيذكر لهما ثلاثة هم من يسمى أبا محمد وقد دسَّ عليه عند الخليفة المستعين الأموى (٤٠٠ - ٤٠٧ هـ) وشخصيته غير معروفة . ومن يسمى أبا بكر ، وهو إما أبو بكر بن حزم الذى وجه رسالته إليه ، والذى اتهمه بأن له تابعاً يؤيده ، وإما أبو بكر محمد بن القاسم المعروف باسم إشمكياط الذى كان يتهمه بسرقة

بعض نثره البديع من سابقيه ، والثالث اللغوى المشهور فى عصره أبو القاسم الإقليلى ويصيح تابعا الجاحظ وعبد الحميد الكاتب ، يا أنف الناقة بن مَعْمر ، من سكان خَيْبر - وهو صاحب الإفليلى وتابعه - ويقوم إليهما جِنِّى رَبْعة ، اختلط البياض فى شعر رأسه بالسواد مزهوا بنفسه ، يتعارج فى مشيته ، فقالا لابن شهيد : هذا صاحب الإفْليلى ، وسألاه عن ابن شهيد ، فقال : لا أعرف على من قرأ - وكانوا يتنقصون من يأخذون العلم عن الصحف المكتوبة ، ولا يأخذونه عن الشيوخ - وحين سمع منه ابن شهيد كلمته قال لنفسه : إن لم تُعْرِبْ عن ذاتك ، وتظهر بعض أدواتك وأنت بين فرسان الكلام لم يطر لك بعدها طائر ، وكنت غَرَضا لكل حَجر عابر . وقال لتابع خصمه الإفْليلى : وأنا أيضا لا أعرف على من قرأت ، فقال له : طارحْنى كتاب الخليل (يقصد معجم العين) أو فناظرْنى على كتاب سيبويه ، ثم قال له : أنا أبو البيان، فقال له ابن شهيد ساخرا : إنما أنت كمغن وسط لا يرطب ، وهيهات حتى يكون مَساقُك عذباً ، وكلامك رطباً ، وحتى تتناول الوضيع فترفعه والرفيع فتضعه والقبيح فتحسِّنه ، وقال له تابع الإفْليلى : أسمعْنى مثالا ، فقال له ابن شهيد حتى تصف برغوثا فتقول :

" أسودُ زنجىّ ، وأهلىُّ وحشىّ ، ليس بوان ولا زُمَّيْل (جبان) وكأنه جزء لا يتجزأ من ليل ، وشونيزة (الحبَّة السوداء) أو ثبتها

غريزة أو نقطة مداد ، أو سويداء قلب قراد (دُوَيْبَة) شريه عَبٌّ ، ومشيه وَثْب ، يكمن نهاره ويسرى ليله ، يدارك بطعن مؤلم ، ويستحل دم كل مسلم ، مساورٌ للأساورة ، يجر ذيله على الجبابرة ، يهتك ستر كل حجاب ولا يحفل ببواب ... شره مبثوث ، وعهده منكوث ، وكذلك كل برغوث ، وكفى بهذا نقصاً للإنسان ، دالاً على قدرة الرحمن " .

ويعرض على تابع الإفليلى وصفاً بديعاً مماثلاً لثعلب ، ولفته فى هذا النادى الخاص بالكتّاب فتى كان يرميه بِطَرْفه . فلما أنهى وصفه للثعلب قال له : تحيُّلٌ على الكلام لطيف . وسأل ابن شهيد تابعه عنه فقال له : إنه زُبْدة الحِقَب تابع بديع الزمان ، فصاح ابن شهيد يا زبدة الحقب اقترح علىَّ ما تشاء ، فقال له : صف جارية ، فوصف جارية له ، فأعجبه وصفه فقال ابن شهيد : هلا أسمعتنى وصفك للماء ، فقال زبدة الحقب إنه من البيان المعجز ، فأقسم عليه أن يذكره ، فذكره قائلا : " أزرق كعين السِّنَّوْر (القط) صاف كقضيب البِلَّوْر ، انتُخب من الفُرات ، واستعمل بعد البَيات ، فجاء كلسان الشمعة فى صفاء الدمعة " . ولم يلبث ابن شهيد أن عارضه بقطعة فى وصف الماء يقول فى فاتحتها : كأنه عَصيرُ صَباح ، أو ذَوْب قمر ليَاح ، (ناصع) ينصبّ فى إنائه ، انصباب الكوكب من سمائه " . ويغضب زبدة الحقب لروعة بيانه ، ويضرب الأرض

برجله فتنشق تحت قدمه ويتدحرج فيها ، ويغيب شخصه وينقطع أثره . ويضحك تابعا الجاحظ وعبد الحميد الكاتب من فعله ، ويشتد غيظ أنف الناقة ، ويسأل ابن شهيد هل له أوصاف فى شعره لا يستطيعها ؟ فيورد عليه وصفاً لسحاب ممطر فى إحدى قصائده ووصفاً لذئب ، ويصيح فتيان الجن معجبين أشد الإعجاب ، وتعلو أنف الناقة كآبة شديدة ، ويشفق عليه فتى من الجن فيصفه لابن شهيد بأنه زيرُ علم وحرى به أن يعطف عليه ويرفق به، فيقول له ابن شهيد : وهل كان يضيره أن يَصْبر لى على زَلَّة فى شعر أو نثر ولا يعلنها لتلاميذه ، ويجعلها إحدى مفاخره . فيقول له الفتى الجنى إن الشيوخ قد تهفو أحلامهم فى الندرة ويرد ابن شهيد عليه: بل إنها المرة بعد المرة . ويقول له صاحبا الجاحظ وعبد الحميد الكاتب ، وقد بلغ الإعجاب به منهما مبلغاً كبيراً : اذهب فانك شاعر كاتب . وانفض الجمع فى وادى الكتّاب ، والأبصار إليه ناظرة ، والأعناق نحوه مائلة .

ويقول ابن بسام أن ابن شهيد امتد به الكلام واتسع به الإطناب ، فرأى أن يكتفى بهذا القدر من التوابع والزوابع ، غير أنه عاد يقتطف منها فصولا ، واختار فصلا حضر فيه ابن شهيد مع تابعه زهير مجلسا من مجالس الجنّ دار الحديث فيه على ما تعاورته الشعراء من المعانى ومن أخذ المعنى وزاد فيه ومن

قصـّر، وحاوره بعض الجن فى أشعار لشعراء مختلفين . وأنشد بعض أشعار بديعة له توضح مدى إحسانه فى الشعر ونظمه .
ويورد ابن بسام فصلاً طريفاً من فصول التوابع والزوابع مشى فيه ابن شهيد مع تابعه زهير فى أرض الجن فأشرفا على روضة فيها قطيع من حُمُرِ الوحش والبِغال ، ولحقت به الحُمر ، وقالت له: تهيأ للحكم ، فسألها ابن شهيد : ما الخطب ؟ فقالت : شِعْران لحمار وبغل مِن عشاقنا اختلفنا فيهما وقد رضيناك حكَماً ، فقال ابن شهيد : حتى أسمع فتقدمت إليه بغلة شهباء ، عليها جُلُّها (غطاؤها الصائن لها) وبُرْقعها (قناع المرأة) وأنشدته شعراً غزلياً لبغل فى صاحبة له وشعراً غزلياً آخر لحمار فى أتان أحبَّها ووسوس لها نمَّام ما جعلها تتغير عليه والحمار يشكو تباريح حبه . فقال ابن شهيد إن أنف الناقة كان أولى بالحكم منى ، وفهمت البغلة أنه فضَّل شعر البغل على شعر الحمار ، وقالت لابن شهيد : أما تعرفنى ؟ فقال لها: لو كان هناك علامة ، فنحَّت لثامها فإذا هى بغلة أبى عيسى والخالُ على خَدِّها ، فتباكى معها طويلا وأخذا فى ذكر ماضيهما وأيامهما ، وسألته ما فعل الأحبة بعدى ؟ أهم على العهد ؟ فأجابها ابن شهيد : شَبَّ الغلمان ، وشاخ الفتيان ، وتنكر الخِلاَّن ، ومن إخوانك من بلغ الإمارة ، وانتهى إلى الوزارة ، فسألته أن يقرئهم السلام . وكانت فى بركة بقربهما إوزَّة بيضاء فى مثل جثمان النعامة ، لم يُرَ أخف من رأسها حركة ولا أحسن

للماء فى ظهرها صبا ، تثنى رقبتها وتكسر حدقتها فترى الحسن مستعارا منها ، فصاحت بالبغلة : لقد حكمتم بالهوى . فسأل ابن شهيد زهيرا عنها فقال له : هى تابعة شيخ من مشيختكم تسمى العاقلة وتكنى أم خفيف ، وهى ذات حظ من الأدب . فتعرَّض لها قائلا : أيتها الإوزَّة الجميلة العريضة الطويلة أيحسن بجمال حَدَقتيك واعتدال مَنْكبيك واستقامة جناحيك وطول جِيدك مقابلة الضيف بمثل هذا الكلام ؟ وأنا الذى همت بالإوزِّ صبابة . فدخلها العجب من كلامه واعترتها خفة شديدة فى مائها فمرة سابحة ، ومرة طائرة ، تنغمس فى الماء هنا ، وتخرج منه هناك . وهو فعل معروف من الإوزِّ عند الفرح والمرح . ثم سكنت وأقامت عنقها وعرَّضت صدرها وعملت بِمْجدافيها ، واستقبلتهما جاثية كصدر المركب فقالت موجهة الخطاب إلى ابن شهيد أيها المغرور كيف تحكم فى الفروع وأنت لا تحكم الأصول ؟ وسألته : ما الذى تحسن؟ فقال لها ارتجال الشعر والخطب (يريد الرسائل) فقالت له : ليس عن هذا أسألك " . إنما أردت بذلك إحسان النحو وغريب اللغة ، إذ هما أصل الكلام ومادة البيان ، واهتزت من جانبيها ، وجال الماء فى عينيها ، وسألها يا أم خفيف ؛ أيهما أفضل : الأدب أو العقل فقالت : بل العقل ، فقال لها : هل تعرفين فى الخلائق أحمق من إوزَّة فتطلَّبىِ عقل التجربة إذ لاسبيل لك إلى عقل الطبيعة ، فإذا أحرزت منه حظا فحينئذ ناظرى فى الأدب .

ويبدو من حديث ابن شهيد مع الإوزة وأخذها عليه أنه لا يحسن النحو وغريب اللغة أنها تابعة لخصمه ابن الإفْليلى بجانب تابعه أنف الناقة ، وقد رماها بالحمق وقلة العقل ، ودعاها إلى أن تطلب عقل التجربة إذ تفقد عقل الطبيعة . وهو فى كل ذلك يقصد ابن الإفليلى الذى كان يتتبع كلامه ليجد فيه عثرة يذكرها لطلابه . ويؤكد رأينا أن ابن الإفليلى مقصده فى حملته على الإوزّة وأنها تابعته مثل أنف الناقة تابعِه ما قاله ابن بسام من أنه هو الذى عرّض به ابن شهيد فى التوابع والزوابع وأنه كان منها الغرض والهدف .

واختلف الباحثون فى التاريخ الذى كتبت فيه رسالة التوابع والزوابع ، فرأى بعضهم أنها كتبت فى مطالع القرن الخامس الهجرى ظناً منه أن أبا بكر بن حزم الذى أهدى إليه ابن شهيد الرسالة هو أخو ابن حزم العالم الأندلسى المشهور على بن أحمد بن سعيد إذ كان له أخ بنفس الاسم : أبى بكر بن حزم توفى فى أثناء وباء للطاعون بقرطبة سنة ٤٠١ فظن أنه هو الشخص الذى أهدى إليه ابن شهيد الرسالة ، ولم يلاحظ أنه كان حينئذ فى الثامنة عشرة من عمره ، ويبعد أن يكتبها فى هذه السن المبكرة ، وينتفى ذلك يقينا حين نقرأ ترجمة أبى بكر يحيى ابن حزم فى جذوة المقتبس عند الحميدى إذ تمضى على هذا النحو :

يحيى بن حزم أبو بكر شيخ من شيوخ الأدب ، وله فى ذلك ذكر ، وهو الذى خاطبه ابن شهيد برسالة التوابع والزوابع التى سماها : " شجرة الفكاهة " وهو من بيتٍ آخر غير بيت الفقيه أبى محمد على بن أحمد ابن سعيد بن حزم . وإذن فهو — دون ريب ليس أخا لابن حزم المفكر الأندلسى المعروف ولا هو من أسرته ، إذ هو من أسرة أخرى بشهادة الحميدى . وكثرت ظنون الباحثين فى تاريخ الرسالة ، فقيل ألفها ابن شهيد فى سنة ٤٠٤ ، وقيل ألفها فى عهد الخليفة المستعين الأموى (٤٠٠ - ٤٠٧) بقرطبة ، وقيل بل سنة ٤١٤ إذ فى الرسالة قطعة من مرثية لابن شهيد نظمها فى ابن ذكوان المتوفى سنة ٤١٣ للهجرة فلا بد أن تكون الرسالة قد ألفت بعد هذا التاريخ .وقيل إنها ألفت سنة ٤١٥ . وجميعها ظنون مخطئة ، إذ يذكر فيها ابن شهيد رثاء له فى الوزير الأديب حسان ابن مالك بن أبى عبدة ، وفى كتاب الصلة لابن بشكوال أنه توفى فى شوال سنة ٤١٦ للهجرة ، وفى ذلك دليل واضح على أن الرسالة لم تؤلف قبل هذه السنة ، وبذلك تتداعى كل الظنون السابقة .

ولما كانت الرسالة تتناول عالماً وراء عالمنا الواقعى هو عالم الجن والشياطين ، وكانت رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى تتناول أيضا عالماً وراء عالمنا هو العالم الأخروى وكل ما يتصل به من حشر ونعيم وجحيم ، وكانا جميعا متعاصرين ، فقد أخذ

الباحثون يتساءلون هل تأثر أحدهما بصاحبه فى رسالته ، وكان من السابقين إلى إبداء الرأى فى هذا التأثر الدكتور أحمد ضيف فى كتابه " بلاغة العرب فى الأندلس " إذ قال : "لعل ابن شهيد كان يقلد أبا العلاء فى رسالته الغفران ، لأنه أدرك عصره ، ولأن شهرة أبى العلاء كانت ذائعة فى المشرق والمغرب ، وكان أهل الأندلس يقلدون أهل المشرق فى كل شىء " .

ومضى الباحثون بعد الدكتور أحمد ضيف يتساءلون عن تاريخ تأليف الرسالتين ، فلاحظوا أن ابن شهيد ألف رسالته قبل سنة ٤٢٠ للهجرة بينما ألف أبو العلاء رسالته — فيما يظن — سنة ٤٢٤ أو بعدها، فهى متأخرة عن رسالة ابن شهيد . ومن ثم قالوا إن أبا العلاء هو الذى تأثر بابن شهيد ، ومن هؤلاء غَرْسية غوميس فقد زعم - كما نقل عنه بالنثيا فى كتابه تاريخ الفكر الأندلسى ترجمة الدكتور حسين مؤنس - أن ابن شهيد صوَّر فى رسالته رحلة شاعر إلى الجنة سابقا بذلك المعرى وهو خطأ بين إذ ليس فى رسالة ابن شهيد أى ذكر أو إشارة إلى الجنَّة فضلا عن أن تكون رحلة إليها ، إنما هى رحلة إلى عالم الجن والشياطين فلا علاقة لها أى علاقة بعالم الغفران الأخْرَوِىّ وكل من يقرأ الرسالتين يعرف - بوضوح - أن رسالة التوابع والزوابع تستلهم ما شاع عند العرب قديما من فكرة الجن والشياطين التى تلهم الشعراء فى

دنيانا ما ينظمونه من الشعر . بينما رسالة الغفران لأبى العلاء تستلهم عقيدة المعاد الإسلامية وما يتصل بها من الحشر والصراط ونعيم الجنة وعذاب النار واللقاء مع بعض من غِفرّ لهم من الشعراء فى الجنة ورؤية إبليس والزنادقة فى الجحيم ، فلا صلة أى صلة بين الرسالتين وخطأ لا يماثله خطأ افتراض التأثر بينهما أو التأثير .

وواضح كل الوضوح مما قدمت أنَّ رسالة التوابع والزوابع تتصل بما كان يزعمه الجاهليون من أن الجن والشياطين تلهم الشعراء أشعارهم . وبلغ بهم الخيال أن سموا لبعض الشعراء توابعهم ، واشتهر بينهم اسم مِسْحل لتابع الأعشى ؛ ورووا عنه أخباراً وأقاصيص . ولا ريب فى أن فكرة الجاهليين عن أن لكل شاعر شيطانا أو رَئِيا من الجن هى التى أوحت إلى ابن شهيد بصنع رسالتة " التوابع والزوابع ".

ومَنْ يقرأ الرسالة : يلاحظ أن ابن شهيد يلقى فيها شياطين امرىء القيس وطرفة وقيس بن الخطيم ولا يلقى شيطان الأعشى مسحلا مع ما ذُكر عنه من أخبار مختلفة عن لقائه لشيطانه فى كتب الأدب ، ومعروف أن الأعشى يُعَدُّ من فحول الشعراء فى الجاهلية ، وهو أحد أصحاب المعلقات العشر ، وأحد المقدمين على

سائرهم مع امرئ القيس وزهير والنابغة ، وفى رأينا أنه ليست فكرة شياطين الشعراء وما حدَّث الجاهليون من أخبارهم هى التى أوحت إلى ابن شهيد رسالته ، إنما أوحى إليه بها بديع الزمان فى مقامة بين مقاماته تسمى المقامة الإبليسية ، كما أشرت إلى ذلك قديماً فى كتابين لى هما : " المقامة " و " الفن ومذاهبه فى النثر العربى " ورأيت أن أعود إلى بسط الفكرة وتوثيقها بأدلة جديدة .

ومقامة بديع الزمان تدور على أن عيسى بن هشام راوى المقامات أضلَّ إبلا له فخرج فى طلبها ، وما زال يتنقل من واد إلى واد حتى دخل وادياً من أرض الجن وهو لا يدرى ، وادياً أخضر ، به أنهار جارية وأشجار باسقة وثمار يانعة وأزهار ناضرة وبسط مفروشة ، وإذا شيخ جالس فارتاع منه ، فهدأ روعه ، وأمره بالجلوس فامتثل وسأله عن حاله ، فذكر له ضلال إبله فقال له الشيخ : أصبت دليلك . ووجدت ضالتَّك ، فهل تروى من أشعار العرب شيئا ؟ فقال له : نعم وأنشده أشعارا لامرئ القيس وعَبيد ابن الأبرص ولبيد وطَرفة فلم يطرب لشئ من ذلك . وقال لعيسى ابن هشام : أنشدك من شعرى ، وأنشده قصيدة بديعة من قصائد جرير حتى أتمها ، فقال له عيس بن هشام : يا شيخ هذه القصيدة لجرير وقد ذاعت وشاعت بين البدو والحضر وتداولتها الألسنة

منسوبة لجرير، فهو صاحبها وناظمها . فقال له دعك مما ظننت ، وأنشدني شعرا لأبي نواس إن كنت تروى له بعض أشعاره فأنشده إحدى خمرياته ، فطرب لها أشد الطرب . وقال له : امض على وجهك وستلقى رجلا ، ووصف لعيسى بن هشام ما بيد الرجل ملغزا بوصفه لمذبَّة وسراج ثم قال له : ما أحد من الشعراء إلا ومعه معين منا ، وأنا الشيخ أبو مرة (إبليس) . ثم غاب عن عيسى بن هشام ولم يعد يراه ومضى عيسى لوجهه ، فلقى رجلا في بده مذبة ، فعرف أنه صاحبه الذى ذكره له أبو مرة وقال له ما سمعه منه ، فناوله سراجا ، وأشار إلى غار مظلم في جبل ، فقال له : ادخله وفي يدك السراج ، فدخله على هدى السراج ، وما إن خرج من أرض الجن حتى وجد إبله ، فلوى وجوهها وردَّها .

والصلة واضحة بين هذه المقامة الإبليسية عند بديع الزمان ورسالة التوابع لابن شهيد إذ هي التى أوحت إليه باطار رسالته ، وأقصد لقاءه بشياطين الشعراء في أرض الجن . وقد اتسع ابن شهيد بالفكرة وطورها تطويرا بديعا ، وجعل للكتّاب في تلك الأرض توابع كتوابع الشعراء ، وأضاف إلى ذلك ما روى في الأساطير العربية من تمثل الجن في صور بعض الحيوان والطير.

ولكن هل من دليل على أن ابن شهيد عرف مقامات بديع الزمان ، والأدلة على ذلك في داخل الرسالة كثيرة ، ومن أهمها أن

نجد ابن شهيد يلتقى بثلاثة هم - فى رأيه - كبار الكتاب فى العصرين الأموى والعباسى حتى زمنه ، وهم عبد الحميد الكاتب والجاحظ وثالثهم بديع الزمان ، فقد طلب إلى تابعه كما مر بنا - أن يلقى توابع الكتاب والتقى بتابعى الجاحظ وعبد الحميد الكاتب ، والتقى أيضا بتابع بديع الزمان ، وسماهُ زُبدة الحِقَب ، وكأن الأيام ظلت طوال العصور تمخض الكتابة والكتّاب ، حتى استخلصت الزبدة أو الكاتب الألمعى بديع الزمان . وليس كل ما أوحى به البديع إلى ابن شهيد فكرة أرض الجن ، فقد أوحت إليه مقاماته أن يحاكى منها المقامة المضبرية التى يصور فيها بديع الزمان بعض الأطعمة الشهية وما يتولى من يرونها من سيلان اللُّعاب واتقاد الأكباد ، وقد مضى ابن شهيد - على شاكلته - يضع رسالة فى وصف ألوان من الحلواء وما تودع فى قلوب المشاهدين لها من سُعار الوله والشره ، حتى لتتحرك الألسنة على الشفاه ، وحتى لتلمع العيون وتخفق الأفئدة . وقد عرضها ابن شهيد على تابعى عبد الحميد الكاتب والجاحظ فأعجبا بها إعجابا شديدا ، كما أعجبا بتفننه على طريقة البديع فى وصف البرد والنار والوقود ووصف برغوث وثعلب . والتفت ابن شهيد إلى تابع بديع الزمان : زبدة الحقب فقال له : اقترح علىّ ما تريد ، فاقترح عليه وصف جاريه ، فوصفها واستحسن وصفه زبدة الحقب قائلا : أحسنت ما شئت أن تحسن ، وسأله ابن شهيد أن يسمعه وصفه للماء على

لسانه فقال له إنه من المعجز الذى لا يمكن أن يجاريه أحد فيه وذكره له كما مر بنا فى حديثنا عن الرسالة ، ومرت معه معارضة ابن شهيد له بوصف للماء بديع . وهو عمل شابه بغير قليل من الروح المرحة ، مما جعله يسمى الرسالة كما قال الحميدى - باسم شجرة الفكاهة لما فيها من تهكم ودعابة .

وحرى بى أن أشير إلى ما تصور إيحاءات مقامات بديع الزمان لابن شهيد فى رسالته: " التوابع والزوابع " من سرعة انتقال آثار أسلافنا من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب والعكس ، فهذه مقامات بديع الزمان الهمذانى الإيرانى تنقل سريعا إلى أقصى الغرب ، إلى قرطبة ، فتلهم ابن شهيد رسالته التوابع والزوابع ، ونزداد عجبا حين نجد الثعالبى النيسابورى الإيرانى المعاصر لابن شهيد والمتوفى بعده بثلاثة أعوام يترجم له فى كتابة اليتيمة ويذكر ما نوه به فى التوابع والزوابع من رسائله وأوضافه البديعة . وكاد الثعالبى لا يترك لابن شهيد معاصرا له فى الأندلس إلا وترجم له مع من ترجم لهم فى جميع الأوطان العربية إذ كان لديه ولدى أسلافنا شعور عام طوال قرون متعاقبة بأن تلك الأوطان جميعا وطن واحد تعمه وحدة أدبية واحدة ، وهو ما نتمنى أن يتحقق من جديد لأوطاننا العربية وأدبنا العربى الخالد .

الفصحى والعامية والدعوة إليها

اللغة هى المرآه التى تحمل شخصية الأمة وهويتها على مر التاريخ ، إذ تستوعب جميع جوانب حياتها العملية والدينية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية . وهى تتطور مع الزمن صورا مختلفة من التطور على نحو ما تطورت العربية فى الجاهلية ، و تفرعت منها لهجات كانت أسماها لدى العرب لهجة قريش حارسة الكعبة المقدسة ، وتآزرت مع الدين عوامل اقتصادية وسياسية جعلتها تسود فى الجاهلية جميع لهجات العرب القبلية كما تسود ألسنتهم فى الشعروالخطابة .وما هذه اللهجة القرشيه إلا الفصحى التى ننطقها اليوم ، وقد نزل بها القرآن الكريم ، فزادها تمكينا فى ألسنة العرب وأضفى عليها بيانا رائعا ببلاغته المعجزة . وأخذت منذ الفتوح الإسلامية تكتسح لغات البلدان التى افتتحها المسلمون شرقا وغربا ببلاغتها الآخذة بمجامع القلوب واكتسحت الفارسية فى إيران والنبطية والآراميه فى العراق والسريانية واليونانية فى الشام والقبطية واليونانية فى مصر والبربرية واللاتينية فى المغرب واللاتينية وفرعها من الرومانثية

فى الأندلس . كل هذه اللغات قهرتها الفصحى فى جميع تلك الأقطار وحلت مكانها فى ألسنة سكانها فهم يتكلمون بها. ويتخذونها للتعبيربها عن مشاعرهم وعواطفهم وعقولهم وأفكارهم.

وأكبَّ العرب - ومعهم الشعوب الإسلامية المستعربة - على وضع العلوم تلبية لدعوة القرآن والحديث النبوى إلى العلم والتعلم ، وأخذت توضع العلوم الإسلامية من تفسير للقرآن وفقه وغير فقه، وبالمثل العلوم اللغوية من نحو وغير نحو. ونقلوا إلى الفصحى كل مالدى الأمم الأجنبية من علوم الكيمياء والفلك والطبيعة والرياضيات والفلسفة . وتزدهر للفصحى نهضة علمية وفلسفية عظيمة منذ القرن الثانى الهجرى حتى الثامن الهجرى وطوال هذه القرون الستة كانت الفصحى اللغة العالمية الأولى التى تقود العالم فى ميادين العلوم والفلسفة.

ونزلت الفصحى مصر مع جيش عمرو بن العاص ، وأخذ سكانها يتعربون بعاملين : كثرة من اعتنقوا الإسلام من أهلها كما يلاحظ ذلك بتلر فى كتابه : " *فتح العرب لمصر* " وكثرة القبائل العربية التى هاجرت إليها من الجزيرة واتخذتها موطنا لها. وتشارك مصر منذ القرن الثانى الهجرى بأئمة فى علوم الشريعة

والعلوم اللغوية كما تشارك فى علوم الأوائل من فلك وطب وغير فلك وطب بما كان بها من تراث علمى قديم، ويلتحم هذا التراث بما ترجمته بغداد من التراث اليونانى وغيره، وتنشأ فيها نهضه علمية كبيرة فى العصور الفاطمية والأيوبية والمملوكية .

وأصاب نهضة الفصحى فى مصر منذ القرن الثامن الهجرى ركود غير قليل بما جثم على صدرها فى نثرها الأدبى من أثقال السجع وفيه وفى شعرها من أثقال البديع، وتأخذ مصر فى تنحية هذه الأثقال عن نثرها وشعرها فى الفصحى منذ أواسط القرن الماضى.

أما فى النثر فقد أخذت تتمسك فيه بأسلوب مرسل حر يخلو من كل ثِقْلٍ و قَيْد، وبه نقلت العلومَ الغربية، نَقَلها وألف فيها علماء المدارس العليا الذين أتموا دراساتهم فى القرن وخريجو قلم الترجمة بمدرسة الألسن، و تكونت لمصر بذلك فصحى علمية حديثة ظلت مزدهرة بها إلى أن وقف الإنجليز- بخبثهم – تعليمَ العلوم بها فى مصر بأخرة من القرن الماضى ولو أنه استمر ما احتجنا اليوم بعد مائه عام إلى تعريب العلوم فى الجامعات المصرية . ووطَّد هذا الاسلوبَ المرسل فى فصحانا الحديثه ومكن له بقوة اقترانه بنشوء الصحف بمصر فى القرن الماضى، وكان

عملها فى تيسيره وتبسيطه واسعا بحكم أنها تريد مخاطبة كل الطبقات فى الأمة وأن يفهم ما تكتبه عامة القراء. وأخذ ينشأ فيها فنُّ المقالة التى تتحدث عن كل ما يهمُّ الشعب من شئون سياسة ودينية واجتماعية واقتصادية ، ونشطت الصحافة نشاطا عظيما حين تألفت الأحزاب فى العشرينيات من القرن الحاضر، وعنيت من حينئذ بشئون الأدب والثقافة ، وأفردت للآداب مجلات أسبوعية وشهرية ، وعنيت مجلة المقتطف منذ ظهورها بالعلوم الغربية . وقد استطاعت الصحف أن تبسِّط فصحانا الحديثه إلى أقصى حد ، وأن تقترب بها قربا شديدا من لغتنا اليومية.

وازدهرتْ فى الفصحى الحديثة الخطابة السياسية وما تناولته من مبادئ فى الحريات و حقوق الشعب السياسية على لسان زعمائنا وخطباء الأحزاب النابهين . ونشأ فى مصر نظام القضاء الحديث ومعه نظام المحامين والمدعين العامين ، ونشأت معهما للفصحى الحديثه الخطابة القضائية ، واشتهر فيها كثير من الخطباء القانونيين، ونشأت الخطابة الاجتماعية فى النوادى والحفلات العامة .

ولم يكن بمصر فى العصور الوسطى قصص بالفصحى سوى قصص الأنبياء و المقامات ، وهى قصص قصيرة مسجوعة ، فلما

اطلع المصريون – فى العصر الحديث – على ما فى الآداب الغربية من قصص طويله أخذوا ينقلون بعضها إلى الفصحى مع محاولة تمصيره ، وأمضوا فى ذلك فترة ، ثم أخذوا – فى القرن الحاضر – يضعون قصصا طويلة على غرارها .ونشط وضع هذه القصص مع نهضتنا الأدبية ، فتكاثر كتاب القصة الاجتماعية والنفسية والتاريخية . وتكثر بجانبها مجموعات الأقاصيص الفصيحة القصيرة ، ويبرز فيها وفى القصة الطويلة أسماء كثيرين من القصاص النابهين .

وبدأنا– منذ أواسط القرن الماضى – بإقامه مسارح على شاكلة المسارح الأوربية وظللنا طويلا نمثل عليها مسرحيات غربية ممصَّرة ، ثم أخذ كتَّابنا – فى القرن الحاضر– يؤلفون بالفصحى مسرحيات تراعى أصول الفن المسرحى ، وازدهر هذا الفن منذ الثلاثينيات فى القرن– وكثرت الأعمال المسرحية القيمة التى تُعَدُّ بالعشرات و كثر معها الكتَّاب المسرحيون البارعون .

وعلى نحو ما حدث لنثر الفصحى فى العصر الحديث من نهضة أدبية كبرى كذلك حدثت لشعرها نهضة مماثلة كان رائدها محمود سامى البارودى الذى رد للشعر المصرى حيويته وخلصه من أثقال البديع وقيوده ، وخلفه حافظ و شوقى و شعرهما يفيض

بالعواطف الوطنية والدينية والقومية. وتَحْدث فى الشعر المصرى موجة متأثرة بالمنزع الرومانسى الغربى ، وتعقبها موجة ثانية هى موجة شعر التفعيله المتحررة من الإيقاع المتكامل للشعر العربى. والفصحى فى هاتين النهضتين الكبيرتين لشعر مصر ونثرها حققت لها أعمالا أدبية عظيمة.

واقترنت بالفصحى فى البلدان العربية المختلفه عاميات تفرعت منها متخذة طوابعَ خاصة فى كل بلد ، نشأت من التقاء الفصحى بلغات تلك البلدان المحلية وأوضاعها فى نطق الكلام مما أدخل على ألفاظ الفصحى صورا مختلفه من التحريف ، وأيضا فإن تلك العاميات لم تكن تعرف الإعراب الذى تتميز به الفصحى ، فأهملته فيها. وبذلك أصبحت لكل بلد عربى عامية متميزه ، بها بعض ألفاظ استبقتها من لغاتها المحلية الأصلية ، و خاصة أسماء البلدان و بعض المواضع . ولا يُعرف بالضبط التاريخ الذى شاعت فيه عامية كل قطر عربى على لسان أهله وشعبه ومن المؤكد أنها بدأت فى مصر منذ القرن الثالث الهجرى غير أن أول نصوص وصلتنا منها إنما وصلتنا من القرن السادس الهجرى اذ نجد ابن سناء الملك شاعر صلاح الدين يودع كثيرا من نهايات موشحاته أو أقفالها الأخيره بعض ألفاظ عاميه مصرية ، ويكتب أسعد بن مماتى الشاعر الموظف فى دواوين صلاح الدين وخلفائه الأيوبيين كتاب

الفاشوش فى حكم قراقوش محافظ القاهره لعهد صلاح الدين ، وفيه باللغة الدارجة المصرية مجموعة نوادر ساخرة مضحكة من أحكام قراقوش الدالة على حمقه و غفلته المفرطة .

ونلتقى فى مصر - منذ القرن السابع الهجرى - بسير للبطولة العربية ، منها سيره الهلالية ورحيل بنى هلال و بعض القبائل القيسية إلى المغرب فى القرن الخامس ونشوب حروب بينهم وبين المغاربة ، ويستولون على بعض مدنهم ، و يقودهم فى تلك الحروب بطلان عربيان : أبو زيد الهلالى ودياب بن غانم والأحداث فى السيرة غائمه ، وهى مكتوبة باللغة اليومية المصرية شعرا ونثرا ، وتعلق بها الشعب المصرى حَضَره وريفه ، وعادةُ يلقيها منشد على ربابة وتسميه العامة الشاعر. ومما كتبته مصر بالعامية سيرة سيف بن ذى يزن وبطولته فى حروبه مع الأحباش فى أواخر العصر الجاهلى ، وسيرة عنترة وهى ملحمه كبرى للبطولة العربية فيها يحارب عنترة كما يسمًى فى السيرة - بجميع الميادين التى حارب فيها العرب منذ الفتوح الإسلامية وتمتد بطولاته وحروبه الى عصرالحروب الصليبية وميادينها وإلى اسبانيا وبعض المدن الأوربية . وتُكْتَبُ بالعامية سيرة الظاهر بيبرس سلطان مصر المملوكى ساحق التتار والصليبين ، مصورةً بطولاته العظيمة.وكتبت فى عصر المماليك بالعامية المصرية ألف ليلة

ليلة مع إضافة طائفة كبيرة من القصص المصرية إليها مثل قصه علاء الدين وعلى الزيبق والمصباح العجيب وحكاية الصعيدى وزوجته الإفرنجية وهى تصور الصراع بين المسلمين والصليبيين.

وكل من أضافوا القصص المصرية الكثيرة إلى ألف ليلة و ليلة وكذلك كل من كتبوا سير البطولة و القصص الشعبية السالفة لا تعرف أسماؤهم لأنهم من أبناء الشعب المصرى الذين يقدمون أعمالهم للشعب، ولا يهمهم أن تعرف أسماؤهم إذ لايبتغون بها شهرة ولا ما يشبه الشهرة.

وكانت تمثّل بالعامية بعض مسرحيات هزلية على مسرح خيال الظل، وهو مسرح دمى متحركة متحاورة ، ومن أطرفها مسرحية طيف الخيال التى كانت تمثّل فى عصر السلطان الظاهر بيبرس ، وهى مسرحيه شعريه نثرية تعرض مشكلة الخاطبة - حينئذ - وما كان ينشأ عنهنا من أغلاط و مفارقات فى حقائق الزوجين ، وتكتظ بالهزلوالفكاهة والدعابة .

وتكثرالأزجال بمصر منذ القرن الثامن الهجرى ويشتهر فيها غير زجال.ونلتقى فى القرن التاسع الهجرى بإمام واعظ فى أحد المساجد بالقاهره وكتابه نزهه النفوس ومضحك العبوس وهو

يموج بأزجـــال وأقاصيص ونوادر عامية فكهة. ويكتب في العصر العثماني شيخ واعظ كتابا عاميا يسميه هز القحوف يصور فيه ظلم العثمانيين للمصريين في نوادر لاذعه لذعا شديدا . ونمضى إلى العصر الحديث ويُخْرج يعقوب صنوع صحيفته العامية " أبو نضارة" ويصبُّها نارا كاويه مملوءة بالسخرية المرة على الخديوى إسماعيل وسياسته الحمقاء وعلى الخديوى توفيق والامتيازات الأجنبية و الإنجليز .ويخرج عبد الله نديم في عهد توفيق صحيفته " التنكيت والتبكيت "ثم" الأستاذ " ويفرد فيهما صحفا عامية لمحاورات وأزجال تعرض عيوبنا الاجتماعية والسلوكية والانسياق الشديد نحو الحضارة الأوربية بصور ساخرة متهكمة تهكما شديدا .

وتكثر المجلات العامية الهزلية منذ أوائل القرن الحاضر ، وتكتظ بالأزجال والنوادر والنكت والقفش مثل الأرغول والسيف والمسامير وخيال الظل ، ثم الكشكول ومجلة الفكاهة ، وكان يرأس تحريرها حسين شفيق المصرى مبتدع شخصية الشاويش شعلان عبد الموجود وأبتدع أبوابا كثيرة فكهة . ويتكاثر الزجالون من مثل محمود رمزى نظيم وبديع خيرى ، وله تمثيليات عامية فكهة مثّلها نجيب الريحاني ومن أبرع الزجالين – منذ العشرينيات –

فى القرن الحاضر - بيرم التونسى ولا يزال زجالون بارعون يُطْرفوننا-الآن - بأزجالهم .

وفى القرن الحاضر- وخاصة منذ منتصفه - يكثر الكتاب الذين يؤثرون العامية فى كتابة قصصهم وأقاصيصهم وكأنهم يعيدون لنا ذوق أسلافهم فى الحقب الماضية حين اختاروا العامية لكتابة السير والقصص الشعبية. وينشئ يعقوب صنوع- لعهد الخديوى إسماعيل مسرحا بالقاهرة على شاكلة المسارح الأوربية ، وألف له فرقة مثلت عليه بالعامية مازوَّدها به من مسرحيات غربيه ممصرة. ولم تلبث الفرق المسرحيه السوريه واللبنانيه أن وفدت على مصر ومثلت مسرحيات فرنسية ممصرة كثيرة . ويُعْنَى المصريون منذ أوائل القرن الحاضر بتأليف الفرق المسرحية، ويأخذون فى تأليف مسرحيات كثيرة ، ويزد هر التأليف للمسرح منذ منتصف القرن الحاضر ، ويرى كثيرون من المؤلفين له أن تكون العامية أداة التعبير فى مسرحياتهم على ألسنه شخوصها المختلفين.

ومن حين إلى حين منذ أواخر القرن الماضى إلى اليوم يدعو بعض أصحاب العاميه إلى استبدالها بالفصحى فى الكتابة الأدبية محتجين بأنها لغة التخاطب والحديث فى الحياة اليومية وأنها

ألصق بالنفوس وأصدق فى التعبير عن الخواطر ، وفاتهم أن ذلك إنما يشعر به من لا يُتْقن الفصحى ولا يستطيع الإبانة بها عن خوالجه .ومن المؤكد أن العامية على الرغم من طواعيتها لنا فى الحديث كل الطواعية لا تحمل لنا علما ولا فكرا عميقا ولا نظريات سياسية أو اقتصادية ولا تشريعات وقوانين ولا دراسات سيكولوجية أو اجتماعية ولا دينا وأعمالا روحية إنها لهجة قلما تحمل لنا أعمالا وراء مطالب الحياة والفكر اليومى ، وفيم إذن هذه الخصومة التى يثيرها فى الحين بعد الحين ضد الفصحى بعض كتاب العامية ؟ وفيم هذا النضال ؟.

وأنا موقن أن هذه الخصومة لم تحدث فى العصور والحقب السالفة قبل العصر الحديث فلم يحدث أن أحدا ممن كان يكتب الأزجال أو يكتب السير والقصص الشعبية فى العصور الوسطى كتب ضد الفصحى مطالبا بأن تحل العامية فى أدب أسلافنا محلها، وبالمثل لم يَدْعُ أحد من أصحاب الفصحى ضد العامية وأعمالها، بل كانت دائما الطائفتان من الكتاب بالفصحى والكتَّاب بالعامية يتعايشان فى وئام وسلام. وظل أهل الفصحى إلى عصرنا يرتضون من الكتاب بالعامية ما يكتبونه أزجالا أو أشعارا عامية أو قصصا وأقاصيص أو مسرحيات ، فلهم حريتهم كاملة فيما يكتبون ، ولا يتعرضون لهم أى تعرض ، وكان ينبغى أن يُجاريهم

مَنْ يدعون للكتابة بالعامية فلا يثيرون ضد الفصحى أيَّ خصومة لأنها هى الأم وهى الأقوى بكنوزها الأدبية و العلمية ، وهى التى تملك من أفراد الشعب المصرى - ومن أفراد دعاة العامية أنفسهم - فى رأينا- أفئدتهم و عقولهم و قلوبهم ، بدليل نراه تحت أبصارنا ولا يغيب عنا، وهو أن الصحف التى تخاطب الشعب المصرى - منذ أواسط القرن الماضى إلى اليوم -تتخذ الفصحى أداة فى مخاطبته، ويقرؤها يوميا فى مصر صباح مساء أعدادٌ و فيرة تُعَد بالملايين.

ويزعم دعاة العامية أن الفصحى وافدة غريبة على مصر ، وهى لغة المصريين منذ ألف وأربعمائة عام بل تزيد ، وليس فى العالم كله لغة حية اليوم أطول حقبا تاريخية من تاريخ الفصحى فى مصر ، وهم فى ذلك الزعم كأنهم لا يعرفون أن العاميه التى يطالبون بأن تحل محل الفصحى هى بنتها نشأت من التقائها بالشعب المصرى الذى لم يكن يعرف الإعراب فى لغته الديموتيقية الشعبية القديمة ، ودخلتها تحريفات فى قواعدها ونُطْق بعض حروفها بسبب سليقة المصريين الموروثة وبسبب لهجات بعض القبائل النجدية التى استوطنت مصر ، وهى بذلك لهجة عربية أحدث من الفصحى تداولا على ألسنة المصريين.

ويقول أصحاب الدعوة الى العامية إن التمسك بالفصحى يؤول بنا إلى أن تكون لنا دائما ازدواجية أو ثنائية فى اللغة التى نستخدمها ، وينبغى أن نكتفي باللغة اليسيرة السلسة وهى العامية الخالية من الإعراب ومشكلاته و التى لا نحتاج معها إلى تعلم والتى يجيدها أفراد الشعب سليقة وطبعا ، والتى نستطيع أن نصوربها كل ما يجرى فى نفوسنا وخواطرنا دون أى مشقة ، والتى يستعملها أفراد الشعب ويتفاعلون معها مباشرة.

والقول بأن وجود العامية مع الفصحى عندنا يحدث ازدواجية لغوية أو ثنائية قول من لا يعرفون أن اللغات العالمية قديما وحديثا كانت فيها ولا تزال هذه الثنائية فقد يما كان للغة اللاتينية فى إيطاليا التى كتب بها فرجيل وسنيكا و شيشرون لهجة عامية يتخاطب بها أأفراد الشعب فى روما ، وحديثا كان راسين و كورنى وموليير وفيكتور هيجو يكتبون أعمالهم بالفرنسية الأدبية لا باللهجات الفرنسية السوقية ، تماما مثل أدبائنا حين يرتفعون عن العامية ويكتبون بالفصحى .

وأما ما يقولونه من أن العامية لا تحتاج إلى تعلم مثل الفصحى وأنها تعيش فى الأفواه والأسماع دون الفصحى التى نحتاج معها إلى الدرس والتعلم ، فهو قول غير دقيق لأن كل اللغات

الحية يدرسها أبناؤها ويتعلمونها تعلما صحيحا ويتذوقون أدبها ، وأيضا فاتهم أن الفصحى تمرنت طوال أربعة عشر قرنا على أداء الأفكار وأنها لم تستعص يوما على أداء فكرة علمية أو فلسفية ، وقد اتسع تمرينها واتسعت ليونة ألفاظها وأساليبهاعلى أيدى كبار كتابنا وشعرائنا طوال العصر الحديث سوى ما أحدثته الصحف فيها منذ أواسط القرن الماضى حتى جعلتها اليوم تقترب قربا شديدا من لغتنا الدارجة اليومية .

ويقول دعاة العامية إن الفن يقوم على محاكاة الواقع، ومحاكاته فى الأزجال والقصص وحوار المسرحيات إنما يتم -بدقة - عن طريق التعبير بالعامية التى تحاكى الواقع فى المجتمع المصرى محاكاة تامه فى أحاديث أهله . والقول بأن المحاكاة فى الأدب تستلزم أن ينقل الواقع فيه بلغته العامية قول غير صحيح ، لأن المحاكاة فى الأدب والفن لا تقتضى دقة النقل فيهما عن الواقع بحيث يكون العمل الفنى أو الأدبى مطابقا له تمام المطابقة ، بل إن اكتمال الدقة فى المطابقة فيهما قد يفسدهما ، إذ قد يتحولان إلى ما يشبه النقل فى التصوير الفوتوغرافى إذ هذا النقل الآلى لا يعد فنا، فالفن دائما تحوير فى الواقع على نحو ما يعرف فى لوحات الرسامين وألحان الموسيقيين ، لأن الفنان دائما - ومثله الأديب - لاينقل الواقع نقلا أصم وإنما يستوعبه ويتمثل روحه ويضفى عليه

من خياله وذهنه ما نتمثله به ونجد فيه متاعا فنيا أو أدبيا، وكأنما يرفع عنه حجابا كان يغلفه ويستره عن أبصار الناس العاديين، والفنان بذلك - ومثله الأديب - كأنما يصنع الواقع من جديد . ليس عمل الأديب - إذن - نقل الواقع وإنما صناعته صناعة جديدة، تحاكيه بصورة أقوى ، وما قوتها إلا ما يضيفه إليها الأديب من مخيلته وفكره وأدواته الأدبية ، فالزجال - مثلا - حين يحاول نقل واقع شعورى أو حدث اجتماعى يبرزه فى عبارات سائغة موقعة بنغم يؤثر به فى قارئه بحيث يصبح عملا فنيا تاما ، ومثله الوشاح صانع الموشحات ، غير أنه يتفوق عليه من حيث الفن الخالص لأنه ينظم موشحاته بالفصحى التى طالما بثَّ فيها الوشاحون والشعراء على مدى أربعة عشر قرنا من السمات والصفات الجمالية ما يعوز الزجل إلى حد كبير . وما يقال فى الزجل والموشحة يقال مثله فى القصة الفصيحة والعامية ، وقد يُظَنُّ أن العامية تستحب فى القصة بأكثر من الفصحى ، لأنها تتناول جوانب الحياة فى المجتمع ، وهى فى متناول الأفواه والشفاة ولا مشقة فيها ولا عُسْرَ ، ومن يقولون ذلك يتناسون ما فى القصة الفصيحة من البيان العربى القويم الذى تُصْغِى إليه القلوب : قلوب المثقفين والعامة جميعا ، وأيضا فليس الأساس فى روعة القصة قائما على اللغة وحدها ، فأهمُّ منها بناء القصة بناء فنيا محكما بحيث تترابط جزئياته ووحداته ترابطا عضويا بما تعتمد

القصة عليه من أحداث مثيرة وحبكة قصصيه متقنة ، وهى تختلف من قَصَّاص إلى قصاص بما يُضْفِي عليها من وَمَضات شعوره وفكره . وقد يُظَنُّ أن لغة المسرحية تناسبها العامية لا الفصحى لأنها شفوية مثلها ، أما الفصحى فلغة التعبير الكتابى ، والعامية لذلك أكثر مواءمة للمسرحية .غير أن من ينعم النظر فى المسرحية يراها تلتزم قواعد فنية كثيرة ينبغى توفُّرها فيها ، كما ينبغى أن تتوفر فيها الألفاظ الموحية ، والفصحى تتفوق على العامية فيما تحمل من هذه الألفاظ ، وأيضا فإن العامية لا نظام لها فى التعبير يجعلها سهلة الانقياد للممثل بينما الفصحى مذلَّلة لما يحتاجه الممثل من أوضاع مختلفة فى الصياغة.

فقولُ دعاة العامية بأن الحوار المسرحى و القصص ينبغى أن يكتبا بالعامية طلبا لدقة المحاكاة يجانب حقائقهما الأدبية ، وقد نَقَل إلى الفصحى كبارُ المترجمين من المصريين مسرحيات شكسبير وراسين الشعرية وأعمال القُصَّاص الفرنسيين والإنجليز وغيرهم من أدباء الغرب ، وأدوا معانيها وأفكار الشخوص المختلفين فيها بفصحى سديدة أدتها أداء دقيقا ، وبذلك تسقط دَعْوَى دقة المحاكاة فى العامية بالقياس إليها فى الفصحى كما سقطت الدعاوَى السابقة .

ويقول دعاه العامية انها لغة الشعب بينما الفصحى لغة فئة مثقفه محدودة ، والعكس هو الصحيح اذ العامية لا تطرد بصورة واحدة .لا فى الشعب المصرى ولا فى غيره من الشعوب العربية ، وفى مصر عاميتان كبيرتان : عامية صعيدية لاهل الصعيد ، وعامية بحرية لأهل الدلتا ، وللمدن المصرية عامية تختلف كثيرا أو قليلا عن عامية أهل الريف ، وللقاهرة عامية تختلف عن عامية أهل الإسكندرية ، بينما كل أهل العاميات فى مصر تتخذ الفصحى لغة لها لافى التعليم والثقافة فحسب ، بل أيضا فى جميع شئونها الدينية وفيما تقرأ من الصحف اليومية ، فهى اللغة الجديرة بأن تسمى لغة الشعب المصرى لا العامية المحصورة فى فئة محدودة تستخدمها أزجالا أو قصصا وأقاصيص أو تمثيليات مسرحية . ومن المؤكد أن كل ما ينتجه أدباؤنا فى العامية أدب محلى لا يعدو انتشاره أسوار مصر إذ لكل بلد عربى عاميته بحيث لا يفهم الشامى ولا العراقى ولا المغربى فهما واضحا ما يكتب بالعامية المصرية ، بينما كل ما ينتجه أدباؤنا فى الفصحى أدب عربى يخترق هذه الأسوار إلى البلدان العربية منتشرا فيها من الخليج إلى المحيط ببيان واضح تمام الوضوح ولو كان أدباؤنا الكبار اصطنعوا العامية فيما كتبوا من أثار لأعرض الناس فى الشرق الأوسط جميعه عن قراءتهم ، ولما أقبلوا هذا الاقبال العظيم على

اقتناء أعمالهم نثرا وشعرا ، ولما حظيت مصر بزعامتها الأديب بين البلاد العربية ، كما تحظى بها اليوم ، وهى زعامة تتبوؤها طوال العصر الحديث ، ولن تتنحى عنها فى آدابها لأن أدباء العامية لا تعنيهم هذه الزعامة ولا تهمهم فى شئ ، بل ستظل - بكل ما تستطيع - تحافظ عليها بفضل الفصحى وما ينتجه أدباؤنا الأفذاذ فيها من أعمال أدبية قيمة.

وإن فى تمسك أدبائنا الكبار وصحافتنا بالفصحى التى تجمع بيننا وبين البلاد العربية فى لسان عربى واحد لشعورا قويا بأننا جميعا أسرة واحدة وهى أسرة فى حاجة إلى التعاون فى مضمار المصالح والمنافع وما قد يلمُّ بنا من أحداث وخطوب. وإن شعب مصر والشعوب العربية اليوم لفى حاجة قصوى لتوثيق هذه الرابطة اللغوية حتى تحسب الدول الغربية فى عصرنا حسابهم ، وقد أصبح واضحا أن الدول الغربية لا تعيش اليوم منعزلة بعضها عن بعض ، إذ تجمع شملها فى تكتلات على فكر اقتصادى أو سياسى واحد على نحو ما نرى من تكتل الدول الأوربية فى السوق الأوربية المشتركة وفى اتحاد التعاون الأوربى وتكتلها مع أمريكا فى حلف الأطلنطى. ومن المؤكد أن تكتل مصر والدول العربية فى لسان عربى واحد من شأنه أن يجعلهم قوة متحدة كبرى فى مضمار السياسة العالمية . ولنا عبرة بالوحدة اللغوية بين إنجلترا

والولايات المتحدة فإن الرابطة اللسانية بينهما هى التى جعلت الولايات المتحدة فى القرن الحاضر تدخل فى الحربين العالميتين اللتين اشتعلتا فيه ضد ألمانيا لحماية إنجلترا شقيقتها الناطقة بلغتها . وفى ذلك ما يصور بقوة - حاجة مصر وشيقيقاتها العربية إلى التمسك بالفصحى حتى تحميها فى معارك السياسة وتنازع البقاء.

ولاريب فى أن الفصحى أوثق الروابط التى تربط أبناء الأمة العربية مصريين وغير مصريين فى جميع بقاع الأرض شرقا وغربا ، وإنها لتجمعهم فى وحدة روحية إلهية لا تنفصم عراها ، استقرَّت فى ضمائرهم وضمائر أسلافهم على تعاقب العصور ، وحدة لها قداسة تستمدها من القرآن الكريم الذى أكرم الفصحى باتخاذها لغته ، وأضفى عليها من جلاله ما جعلها خالدة بخلوده ، وإنها لعنوان حضارتنا ، ولسان علومنا وآدابنا وستظل الأمة العربية- فى مصر وغير مصر - تضمها - كما ضمتها طوال أربعة عشر قرنا أو تزيد- إلى قلوبها وأفئدتها ، وستظل تعتزُّ بها فى المستقبل كما اعتزت بها فى الماضى ، لأنها جوهر كياننا القومى العربى الإسلامى ، جوهر ثابت إلى أبد الآبدين.

وإن العامية المصرية لترمقها فى تجلة ، وإنها لتطلع - منذ أوائل القرن الحاضر - للحاق بها مستعيرة منها كثرة من ألفاظها ، وهى كثرة ازدادت كلما قطعنا شوطا من السنين ، ومن المؤكد أن عاميتنا - الآن فى جيلنا - أقرب إلى الفصحى مما كانت عليه فى الجيل الماضى وستظل تقترب منها جيلا بعد جيل متخطية إليها الفوارق والفواصل حتى تذوب فيها نهائيا. وإن واجب وزارات الإعلام فى الديار العربية : مصر وغير مصر أن تتسع فى استخدام الفصحى بجميع وسائلها الإعلامية وخاصة فى مسلسلاتها الإذاعية والتليفزيونية وبذلك تستجيب تلك الوزارات لرغبات عميقة فى نفوس الشعب المصرى والشعوب العربية.

العربية
لغة علم راسخة

أحال القرآن الكريم العربية من لغة بدوية بسيطة إلى لغة متحضرة ذات دين سماوى بكل ما يرتبط به من عقيدة بوحدانية الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ومن عبادات يؤديها المسلم من صلاة وصوم وزكاة وحج ، مع التمسك بمكارم الأخلاق فى السلوك ، ومع قيم مثالية عقلية واجتماعية وإنسانية .

وطبيعى أن يُحْدِثَ ذلك فى العربية نهضة لغوية كبرى لا عهد لها بها من قبل ، وهى نهضة صحبها وضع مصطلحات جديدة لمعان دينية لم يكن يعرفها العرب ، والقرآن الكريم فى وضعه لهذه المصطلحات تارة يتخذ كلمة ذات مدلول لغوى معين للدلالة على حقيقة شرعية من حقائقه ، وتارة ثانية يشتق كلمة يستخدمها لأول مرة فى العربية للدلالة على إحدى حقائقه الشرعية .

ومن النوع الأول كلمة الإسلام ومشتقاتها فقد استخدمها القرآن بمعناها اللغوى وهو الانقياد والخضوع فى قوله عز شُأنه :

(وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له) أى اخضعوا وانقادوا ، ونقلها من هذا المعنى اللغوى هى ومشتقاتها للدلالة على الدين الحنيف بجميع تعاليمه إذ قال للرسول وأمته : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) وقال أيضا : (ومن يَبْتَغِ غير الإسلام دينا فلن يُقْبَل منه) : ومثل مصطلح الإسلام مصطلح الإيمان فى القرآن ، وهو - لغة - مشتق من الأمان ضد الخوف ، واصطلح به القرآن هو ومشتقاته على التصديق القلبى بوحدانية الله وبرسوله وشريعته كما فى قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله) . ومثل هذين المصطلحين القرآنيين مصطلح الكفر ومعناه اللغوى الستر والتغطية ، واصطلح به الذِّكْر الحكيم على عبادة غير الله هو ومشتقاته ، ومثل مصطلح الكفر مصطلح الشرك فى القرآن ، فمعناه اللغوى الاشتراك فى أى شىء ، واصطلح به القرآن على اتخاذ الكافر شريكا لله فى ربوبيته ، وبالمثل مشتقاته كما قال لقمان لابنه : (يا بُنَىَّ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) .

ومن المصطلحات التى طور القرآن معناها اللغوى إلى معان ودلالات جديدة مصطلحات الشريعة والعبادات من صلاة وصيام وزكاة وحج ومشتقاتها ، وأصل معنى الشريعة اللغوى مورد الماء الذى يستقى منه الناس ، واتخذها القرآن مصطلحا لما سنَّ من

أوامر الدين الحنيف ونواهيه كما فى قوله يخاطب رسوله (ثم جعلناك على شريعة من الأمر).

والصلاة فى اللغة معناها الدعاء ، وجعلها القرآن مصطلحا لعبادة معروفة ، ومثلها مصطلح الصيام ، وأصله فى اللغة الإمساك عن الشيء ، واصطلح به القرآن على الإمساك عن الطعام والشراب من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، وبالمثل مصطلح الزكاة أصلها اللغوى النماء والزيادة ، واصطلح بها القرآن على أداء المسلم جزءاً من ماله سنويا للفقراء والمساكين براً بهم ومعونة لهم ، وكذلك مصطلح الحج أصله اللغوى القصد ، وجعله القرآن مصطلحا لقصد البيت الحرام فى أشهر معلومات لأداء مناسك خاصة .

والمصطلحات السابقة داخلتها مصطلحات جديدة سجلها القرآن الكريم ، فسجل مع الصلاة الركوع والسجود ، والركوع لغةً الانحناء ، واصطلح به القرآن على انحناء بهيئة مخصوصة مع التسبيح ، والسجود لغة التذلل ، واصطلح به القرآن على وضع المصلى جبهته ويديه على الأرض بهيئة مخصوصة مع التسبيح . وسجل القرآن مع الزكاة مصطلح الصدقة واشتقها القرآن ـ فى رأيى ـ من الصداقة ، وكأنما أراد أنها تغرس المودة بين المسلمين بما تسخو به نفوسهم من أموالهم بإعطائها إخوانهم من الفقراء والمساكين . وسجل القرآن مع الحج المتعة بالعمرة قبل الحج فى

قوله : (فمن تمتع بالعمرة إلى الحج) والعمرة ـ لغة ـ من الاعتمار وهو الزيارة ، واصطلح بها القرآن على نسك به طواف بالكعبة وسعى وتسبيح ، وليس لها وقت معين فى السنة . والتمتع ـ لغة ـ الانتفاع ، واصطلح به القرآن على إحرام الحاج بالعمرة حتى إذا أداها يحلّ فيتمتع بما كان يتمتع به قبل العمرة إلى أن يحرم بالحج . وسجل القرآن من مناسك الحج السعى والطواف والإفاضة أوالنَّفْر من عرفات إلى المزدلفة .

وكل ما قدمت من مصطلحات قرآنية لها أصل لغوى ، وقد لا يكون للمصطلح القرآنى أصل فى اللغة ، بل وضعه القرآن ابتداء ، من ذلك كلمة النفاق ، وهو إضمار الكفر وإظهار الإسلام ، ولم يستعمل عرب الجاهلية هذه المادة لا فى الأفعال ولا فى الأسماء ، فلم تجر على ألسنتهم كلمات نافق ومنافق والمنافقين والمنافقات ممانقرؤه فى الذكر الحكيم مرارا ، غير أنه شاعت بينهم كلمة النافقاء وهى جحر لليربوع(حيوان على هيئة الفأر) كان يكتم فيه مخرجا له من غير بابه ، فإذا هوجم من الباب فر منه ، وكأنما وضع القرآن الكريم من اسم هذا الجحر ـ لأول مرة ـ كلمة النفاق ، إذ المنافق بإعلان الإسلام يدخل فيه من باب ويخرج منه بكتمانه الكفر من باب آخر . ومثل مصطلح منافق مصطلح الفسق والفاسق المتكرر فى الذكر الحكيم بمعنى عصيان الله ، إذ قال ابن الأعرابى ـ

وهو حجة فى اللغةورواية الشعر القديم إنه " لم تسمع كلمة فاسق فى كلام أهل الجاهلية ولافى شعرهم " . وذكر بعض اللغويين أنه سمع قولهم : " فسقت الثمرة من قشرها إذا خرجت منه " غير أن العلاقة بعيدة بين هذا المعنى اللغوى - إن صح - وبين المعنى القرآنى وهو معصية الله وارتكاب معاصيه ، مما يؤذن بصحة رأى ابن الأعرابى وأن كلمة فسق القرآنية ومشتقاتها وضعها القرآن الكريم ابتداء، كما وضع كلمة النفاق ومشتقاتها فى الأسماء والأفعال .

وبجانب القرآن الربانى ولغته وتشريعاته السنّة النبوية وما أدته فى الدين الحنيف من أحكام وقد أعطى الله رسوله سلطانا أن يبين للناس ما غمض من تشريعاته القرآنية بقوله جل شأنه : (وأنزلنا إليك الذِّكْرَ لتبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم) فكان يبين للمسلمين ما أجمله القرآن من أحكام الله التشريعية ، فالصلاة مثلا ذكرت مجملة ، والسنة النبوية بينت كيفيتها وأوقاتها وما يتقدمها من الوضوء وكيفيته . وبالمثل ذكرت الزكاة فى القرآن مجملة ، وبينت السنة النبوية مقادير الزكاة الواجبة على المسلم سنويا فى الأموال قلة وكثرة . وأضافت السنة النبوية إلى التشريعات القرآنية تشريعات كثيرة فى العبادات . والمعاملات والخصومات بين الناس والقضاء بينهم . وأمر الله المسلمين أن

يمتثلوا لأحكام الرسول وتشريعاته قائلا : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخِيَرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلَّ ضلالا مبينا) .

وتشريعات الرسول ـ بذلك ـ جزء لا يتجزأ من شريعة القرآن، ونرى الله ـ عز شأنه في سورة التوبة ـ بعد أن يحض المسلمين على النفير مع الرسول لجهاد أعداء الإسلام يحضهم على النفير إليه ليتعلموا على يديه أحكام الدين الحنيف ويفقهوا عنه أوامر الشريعة ونواهيها ويعلِّموها لقبائلهم وأقوامهم ، يقول جل ثناؤه : (وما كان المؤمنون لِيَنْفِروا كافة فلولا نفَر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) . وهو استنفار إلهى لتعلم شريعة الإسلام ونشرها فى الأمة وقيام حركة علمية لها أستاذها الرسول فقيه الأمة الأكبر وتلاميذها صحابته ، ولا ريب فى أن الرسول أضاف إلى مصطلحات الشريعة فى القرآن مصطلحات أخرى كثيرة تحملها تشريعاته وسنته النبوية . وإذا كانت تشريعات القرآن الكريم تحملها بضع مئات من الآيات فإن تشريعات السنة تحملها آلاف من الأحاديث النبوية الكثيرة التى احتفظت بها كتب الصحاح الستة فضلا عن كتبها الأخرى الكثيرة .

وتتسع الشريعة الإسلامية فى القرآن والسنة فلا تقف عند العبادات ، بل تشمل جميع جوانب الحياة للمسلم واضعة له القوانين والقواعد فى نظام الأسرة والزواج والمحرمات فيه من القريبات والطلاق وعدة الزوجة المطلقة والنفقة فيها ونفقة المرضع، وفرائض الميراث وأنصبة الوارثين والوارثات ، والتجارة والبيع والشراء والدين وما ينبغى له من التوثق المالى والإشهاد وما يتصل به من الرهن والائتمان وتحريم الربا بجميع صوره ومصارف الزكاة والصدقة وتحريم الخمر والميسر وأحكام السرقة والقتل والزنا وما يتصل بذلك من الحدود أى العقوبات المقدرة فى الشريعة وأحكام الحرب والجهاد وما يتصل بذلك من المعاهدات وحقوق المحاربين سوًى مبادىء فى الحكم وقيامه على الشورى والعدل ، وسوًى مبادىء وخصال خلقية رفيعة فى السلوك إزاء الأفراد والجماعة . والشريعة الإسلامية ـ بذلك ـ لم تكن نظاما دينيا فحسب ، بل كانت أيضا نظاما اجتماعيا حضاريا ، مما أتاح للعربية تطورا كبيرا لا بما أدته من مصطلحات التشريع التى ذكرت جانبا منها ، بل أيضا بما أحدث القرآن والسنة النبوية فى ألفاظها وأوانيها اللغوية من اتساع فى طاقاتها لأداء معانى الشريعة الدينية والاجتماعية والاقتصادية .

وعلى هذا النحو أصبحت المدينة - فى عصر الرسول - دار تعليم كبرى لأوامر الشريعة ونواهيها ، وكان الرسول يبعث ببعض صحابته معلمين إلى مدن الجزيرة العربية وقبائلها يعلمون المسلمين الجدد شريعة دينهم فى العبادات والمعاملات . وينتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى وينشأ سريعا عصر الفتوح من أواسط آسيا شرقا إلى المحيط الأطلنطى غربا ، وكان كل بلد يفتح فى هذا العالم الشاسع يُبنى فيه مسجد ، ويتجرد فيه بعض الفاتحين لدعوة أهل البلاد المفتوحة للدخول فى الإسلام وتعليمهم شريعة دينهم ، وانبثقت - بذلك - فى العالم الإسلامى حركة تعليمية واسعة لتعلم علوم الشريعة من الفقة والتفسير والحديث ووافقت ذلك حاجة شديدة لدى الشعوب المستعربة لتعليم العربية حتى تتمثلها من جهة ، وحتى تنطق نطقا سليما نصوص القرآن الكريم فى أداء شعائرها وفروضها الدينية من جهة ثانية ، وهيأت طواعية اللغة لأداء علوم الشريعة طواعيتها لأداء العلوم اللغوية .

(٢)

وفى القرآن الكريم إشارات مختلفة متكررة إلى العلوم الطبيعية ومسائلها كإنزال الماء من السحاب وإحياء الأرض بعد موتها وما نشر الله فيها من الأنعام وكل دابة وشق الأرض وإنباته فيها الزروع من كل صنف وجَعْلِه من الماء كل شىء حى ، وبالمثل فى

القرآن إشارات متكررة إلى العلوم الفلكية والرياضية وبعض مسائلها مثل السماء ذات البروج الاثنى عشر والقمر ومنازله ويجعلها الفلكيون ثمانية وعشرين منزلا ، وفى سورة يونس : (هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدَّره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب) أى لكى يحسب الناس بحركات الشمس والقمر المنتظمة أوقات الليل والنهار والشهور والفصول والأعوام ، وفى القرآن أيضا إشارات مختلفة إلى علم الطب ، وعُقدت فى القاهرة مؤتمرات لبيان ما فيه من علم الطب ، وبخاصة آية سورة (المؤمنون) المعجزة الطبية الربانية ، التى تصور الأطوار السبعة للجنين حتى يتخلق كائنا حيا .

وكان المسلمون قد فتحوا إيران والعراق والشام ومصر وكانت تنتشر فيها جميعا ثقافة هيلينية تمتزج فيها ثقافة اليونان وعلومهم وفلسفتهم بثقافة الفرس وعلوم الهند الفلكية والرياضية ، وكان القرآن قد ملأ قلوب المسلمين شغفا بالعلم فى مختلف صوره بمثل الآية :(قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وآية سورة الإسراء : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) فأقبلوا على أهل هذه البيئات يحاولون التعرف على ما لديهم من العلوم وكانت بها مدارس فى الإسكندرية بمصر وقنسرين بالشام والرُّها وحرَّان

بالعراق وجُنْدَيْسابور بإيران ، فأخذوا يتصلون بعلمائها جميعا ، وظل هذا الاتصال فترة شفويا ، ثم يتحول فى النصف الثانى من القرن الأول الهجرى إلى تعلم بالقلم عن طريق بعض المعلمين وبعض الكتب ، وليس بين أيدينا أخبار كثيرة إلا ما يروى عن خالد بن يزيد بن معاوية من أنه شُغف بعلم الصنعة أى الكيمياء وأنه أخذه عن راهب رومى يسمى ماريا نوس ، وأن أصطفن القديم شرح له بعض كتبها بالعربية ، وبأخرة من القرن الأول الهجرى ترجم أهرن إلى العربية كتابا فى الطب عن السريانية . وتنشط الترجمة عن الثقافات الأجنبية منذ مطالع القرن الثانى الهجرى ، فيترجم سالم صاحب ديوان الرسائل فى عهد هشام بن عبد الملك بعض رسائل أرسطو عن اليونانية ويترجم تلميذه عبد الحميد الكاتب رسائل سياسية عن الفرس وينشط ابن المقفع فى الترجمة عن الفارسية فيترجم كتابا دينيا عن مزدك وكتابا عن سِيَر ملوك الفرس وكتابا عن أنظمة الدولة الساسانية وكتابا فى سيرة ملك الفرس كسرى أنوشروان ومما ترجمه عن الفارسية المقولات لأرسطو وقصص كليلة ودمنة الهندية الأصل ، وله بجانب ذلك كتب نقل فيها كثيرا من آداب الفرس . ومن يرجع إلى ما بقى من ترجماته مثل كليلة ودمنة والأدب الكبير يرى بوضوح مرونة العربية فى أداء التراث الفارسى الذى نقله إلى العربية وهى مرونة لا ترجع إلى مهارته

الأدبية وحدها ، إنما ترجع إلى ما أحدثه القرآن والسنة النبوية فى العربية من المرونة لحمل الأفكار الأدبية والعلمية .

وعنيت الدولة العباسية بالترجمة فى عصور المنصور والرشيد والمأمون ، ووفد على المنصور عالم هندى يسمى منكه كان يتقن علم الفلك وقال للمنصور إن معه كتابا فى هذا العلم المعروف عندهم باسم السند هند فأمر المنصور بترجمته ، وأشرف على الترجمة محمد بن إبراهيم الفزارى ، وصنع منها كتابا سماه المنجمون باسم السند هند ، وكلّف المنصور أبا يحيى البطريق بترجمة أجزاء من كتب أبقراط وجالينوس فى الطب . وتولى الخلافة الرشيد بعد المنصور فأنشأ داراً كبيرة للقيام على الكتب المتصلةبعلوم الأوائل من طب وغير طب ، وسماها خزانة الحكمة ، وأقام عليها سلما المشهور ، وجعل فيها إدارة للترجمة أسندها إلى يوحنا بن ما سويه ومما ترجم حينئذ كتاب بطليموس الإسكندرى فى الجغرافيا والفلك . وخلفه المأمون فسمى الخزانة بيت الحكمة ، وجعل عليها سلما ثم سهل بن هرون ، وأسند إدارة الترجمة فيها إلى حنين بن إسحاق ، وكان يترجم عن اليونانية ، واختار لها طائفة من علماء الفلك والرياضيات من بينهم الخوارزمى محمد بن موسى واضع علم الجبر . ولبعض من سميتهم تصانيف وترجمات اتخذوا فيها مبدأ التعريب لبعض أسماء العلوم وأسماء العقاقير

والأمراض وبعض أسماء النباتات والأزهار ولم يجدوا حرجا فى أن تلحق معرباتهم بأبنية كلام العرب وأوزانه أو لا تلحق ، وأيَّدهم سيبويه فى ذلك كما أيدهم ابن برى اللغوى المصرى ذاهبا إلى أنه ينبغى أن لا تغير حركات الألفاظ الأعجمية المعربة ، وبالمثل أيدهم ابن سيده اللغوى الأندلسى صاحب معجم المخصص .

ولم يخرج المترجمون من السريان وغير السريان فى هذا الدور من استيعاب العلوم الأجنبية المسماة علوم الأوائل عن مقومات العربية وخصائصها إذ وجدوها - بفضل القرآن الكريم والسنة النبوية - لغة مذللة لحمل العلوم المختلفة من كيمياء وطب وغيرهما من العلوم بنفسأوضاعها ودقائقها التركيبية الموروثة ، وبذلك ظل كيانها قائما حيا فى الترجمات بمشخصاته وصوره التركيبية .

ولا نصل إلى عصر المأمون حتى يكاد ينتهى هذا الدور دور استيعاب علوم الأوائل وتشكلها فى العربية ، وتلاه - وربما تغلغل فى بعض جوانب بالقرن الثانى الهجرى - دور المشاركة العلمية والفلسفية ، فيظهر جابر بن حيان برسائله الكيميائية المشهورة التى أنشأ بها علم الكيمياء العربى ، ويؤسس محمد بن موسى الخوارزمى علوم الرياضيات ويضع فيها لأول مرة علما يسميه علم

الجبر ، ويظل له هذا الاسم عند علماء الرياضيات الغربيين إلى اليوم ويفتتح الكندى سلسلة فلاسفة العرب العظام ، ويشتهر الفرغانى بكتابه أصول الفلك ، كما يشتهر سابور بن سهل بكتاب له فى الصيدلة كان يقع فى اثنين وعشرين بابا ، وظل عليه الاعتماد من القرن الثالث الهجرى إلى القرن السادس .

ونهضت العلوم الطبية ، وكانت البيمارستانات كليات للطب وتعليمه فى مشارق العالم العربى ومغاربه ، وأكتفى بذكر طبيب من أطباء بيمارستانات بغداد هو الرازى بن زكريا المتوفى سنة ٣٢٠ للهجرة ، الذى ترجمت كتب كثيرة له إلى اللاتينية وظل فى الغرب حجة الطب غير مدافع حتى نهاية القرن السابع عشر ، ونُشر فى باريس سنة ١٩٣٣ فهرس كتبه الذى ذكره البيرونى ومنه تبين أنه خلَّف فى الطب ٥٦ كتابا وفى الطبيعيات ٣٣وفى الرياضيات وأعظم كتبه الطبية كتاب الحاوى وهو دائره معارف طبية ، وله كتاب فى الطب الروحانى نشرته جامعة القاهرة . وهذا طبيب عربى واحد له هذا الإنتاج العلمى الضخم ، وكان يقابله فى الأندلس الزهراوى وله موسوعة طبية كبيرة فى ثلاثين مجلدا بعنوان : (كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف) ، وكانت ثلاثة أقسام : قسما فى الطب العام والأمراض ، وقسما فى الصيدلة ، وقسما فى الجراحة . وترجمت منه أجزاء كثيرة إلى اللاتينية

وخاصة قسمى الجراحة والصيدلة ، وظل يدرس فى الجامعات الأوربية من القرنالثانى عشر إلى القرن السابع عشر وخاصه قسم الجراحة ، وظل الجراحون الأوربيون يعدون الزهراوى أستاذهم فى الجراحة سواء فى جراحة العظام أو فى جراحة الحصاء فى المثانة والشق عنها وتفتيتها وعمليات الفتق والدوالى وأمراض النساء والعيون وطب الأسنان وزرعها ، ويتوالى فى هذا القسم تصوير آلات الجراحة . وهو بذلك كله يعد أبا للجراحة العالمية . ومن أطباء مصر المشهورين عالميا ابن النفيسرئيس أطباء مارستان السلطان قلاوون المكتشف لأول مرة الدورة الدموية الثانية أو الصغرى وله فى الطب كتاب الشامل وهو موسوعة طبية كبيرة ، وترجمت منه أجزاء إلى اللاتينية ، ويقول الدوميليى فى كتابه (العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى) أن وصْف سرفيتو للدورة الدموية الصغرى فى القرن السادس عشر للميلاد مطابق كلمة كلمة لوصفها عند ابن النفيس .

وتنشط علوم الطبيعة نشاطا عظيما ، ومن كبار علمائها ابن الهيثم البصرى الذى نزل القاهرة واتخذها مسكنا له ومقاما لأكثر من ثلاثين عاما وبها ألَّف كتابه المناظير فى العدسات وانعكاسات الضوء ، ويذكر الدوميليى أنه ترجم ترجمات لاتينية كثيرة ، وأن بعضه ترجم إلى اللغات الأوربية الدارجة ، ويذكر من تأثروا به

مبكرا من علماء الغرب أمثال بيكون ووايتلو . وتنشط بالمثل علوم الرياضيات والفلك ويذكر الدوميلى كثرة من أعلامهم الذين ترجمت أعمالهم إلى اللاتينية ، ويذكر من بينهم البطروجى الأندلسى ، وله كتاب فى علم الفلك ويقول ألدوميلى أنه قوَّض فيه نظرية بطليموس الإسكندرى عن الكواكب السيارة ، وقد وضع نظريته عنها قائلا إنها تتحرك فى مدارات اهليليجية أو بيضاوية حول الشمس ، وترجم هذا الكتاب إلى اللاتينية ميشيل سكوت الإنجليزى ويقول ألدوميلى إنه أدخل نظريات هذا الكتاب إلى العالم الغربى سنة ١٢١٧ للميلاد وترجم إلى اللاتينية ترجمات أخرى ، ولا ريب فى أن كبلر الألمانى المتوفى سنة ١٦٣٠ للميلاد عرف تلك النظرية الفلكية للبطروجى وصاغ منها نظريته الفلكية التى عُدَّ بها أبا لعلم الفلك الحديث ، وهو ليس أباه الشرعى فأبوه الشرعى الحقيقى هو البطروجى الأندلسى العربى .

وازدهر علم الصيدلة عند العرب ومن أهم أعلامه ابن البيطار الأندلسى وقد تجوَّل فى بلدان المغرب والشام وآسيا الصغرى وبلدان الروم واليونان ونزل القاهرة واستقر بها وجعله السلطان الكامل الأيوبى رئيسا على العشَّابين بمصر وظل يرأسهم فى عهده وعهد ابنه السلطان الصالح نجم الدين أيوب إلى أن لبى نداء ربه ، وله فى الصيدلة كتابان : كتاب المغنى فى الأدوية ، وهو فى

الأعشاب من حيث العلاج بها والتداوى ، وكتاب الجامع لمفردات الأغذية والأدوية المطبوع بمطبعة بولاق فى أربعة مجلدات وبه من مصطلحات الأدوية أكثر من ٢٣٣٠ مادة ، جمع فيه ما ذكره اليونان وصيادلة العرب قبله عن الأدوية ، وزاد فيه ثلاثمائة دواء لم يذكرها صيدلى قبله ، وترجم هذا الكتاب ـ كما يقول الدوميلى إلى الفرنسية والألمانية فى القرن الماضى .

ونما عند الأسلاف علم الزراعة وغراسة الأشجار ويسمونه علم الفلاحة ، ومن أهم المؤلفات فيه كتاب الفلاحة لابن حجاج الإشبيلى وقد نشره مجمع اللغة العربيه الأردنى ، وهو يتسع بالحديث عن الزراعة والغراسة لمختلف النباتات والأشجار والبقول والفواكه والثمار وخاصة الزيتون مع بيان معالجه الآفات الزراعية .

وتزدهر مباحث الفلسفة اليونانية على أيدى العرب ويُنْشِئون لأنفسهم فلسفة إسلامية متميزة ينميها فلاسفة مسلمون أفذاذ منذ الكندى معاصر المأمون ، ولا يلبث أن يتلوه الفارابى الذى تعمق فى مؤلفاته الفلسفة اليونانية وروحانية الإسلام ، وعلى يديه تشكلت الفلسفة الإسلامية فى صورتها المبكرة ، واشتهر له كتابه فى إحصاء العلوم وتصنيفها الذى ترجم إلى اللاتينية ، وكتابه : آراء أهل المدينة الفاضلة فى تنظيم دولة مثالية ، وبحق سماه المسلمون المعلم الثانى . ويخلفه ابن سينا أكبر فلاسفة الإسلام

الملقب بالشيخ الرئيس ، وعنده تمتزج الفلسفة اليونانية بالحكمة المشرقية والروح الإسلامية ، وتعد مصنفاته ورسائله بالمئات ، وفى مقدمتها كتابه " الشفاء " وهو دائرة فلسفية كبرى فى الإلهيات وعلوم الطبيعة والرياضيات ، وترجم إلى اللاتينية منه أجزاء كثيرة وانتفع به علماء الغرب كما انتفعوا بترجمات لأعمال له متعددة وخاصة بكتابه القانون فى الطب ، وكان عماد الغربيين فى الدراسات الطبية بجامعاتهم حتى القرن السابع عشر ، وكان قد ترجم إلى اللاتينية ويقال إنه طبع بها ست عشرة مرة فى القرن الخامس عشر الميلادى وعشرين مرة فى القرن السادس عشر . ويقابل ابن سينا فى أقصى الغرب ابن رشد الأندلسى ، وله فى الطب كتاب الكليات المترجم إلى اللاتينية ، ووضع شروحا مطولة ومتوسطة ، وموجزة لكثير من مؤلفات أرسطو ترجمت أجزاء منها إلى اللاتينية ، وله تهافت التهافت يرد فيه على كتاب الغزالى تهافت الفلاسفة مدافعا بحرارة عن الفلسفة ، واشتهر بكتاباته فى التوفيق بين الشريعة الإسلامية والفلسفة اليونانية ، وترجم الأوربيون كثيرا من أعماله ورسائله إلى اللاتينية ، وظلت تدرس قرونا متصلة فى جامعات إسبانيا وفرنسا وإيطاليا ، ويقول الغربيون إنه كان لفلسفته أثر بعيد فى قيام حركة التحرير والإصلاح الدينى فى النهضة الأوربية وإن تأثير تفكيره الحر فى الفكر الأوربى كان حاسما .

وبأمثال من ذكرت من هؤلاء الفلاسفة والعلماء العباقرة ظلت العربية تقود العالم علميا وحضاريا ستة قرون أو تزيد ، وتنبه الأوربيون لما تحمل من كنوز علمية وفلسفية وفكرية ضخمة ، فتعلمها كثيرون منهم وتتلمذوا على علمائها فى قرطبة وأكبوا على كنوزها يترجمونها ، ويقول ألدوميلى إنه ترجمت كل كتب العلماء العرب العظام - على وجه التقريب - إلى اللاتينية بين القرنين الحادى عشر والثانى عشر للميلاد ، وقد استوعبوها وتمثلوها وأسسوا عليها نهضتهم العلمية الحديثة .

- ٣ -

وبينما أخذت أوربا تثب بالعلوم وثبات سريعة متوالية أخذ يصيب الحياة العلمية والفلسفية العربية - لظروف مختلفة - ركود أقعدها عن النشاط بل أخمدها إخمادا خمسة قرون متعاقبة أو تزيد إلى أن نزلت الحملة الفرنسية مصر فى آخر القرن الثامن عشر وعرف المصريون منها أن وراء حياتهم العلمية المتخلفة حياة علمية متقدمة تقدما كبيرا فى الغرب فطمحوا لمعرفتها وتولى مصر بعد تلك الحملة محمد على ، وأخذ ينشىء المدارس العليا من حربية وطبية وكيميائية وهندسية وزراعية وعين لها معلمين أوربيين ، وشعر سريعا بحاجة تلك المدارس إلى جيل يحسن تدريس العلوم فيها وترجمتها إلى العربية فأخذ يعنى بإرسال بعوث كبرى إلى الغرب ، وأخذوا يعودون إلى مصر فى

الثلاثينيات من القرن الماضى ، فنهضوا بتدريس العلوم الغربية فى المدارس السالفة وترجمة المؤلفات المهمة فيها إلى العربية ، وتولى مدرسة الألسن رفاعة الطهطاوى ، وأنشأ بها قلما للترجمة ، ويقول الدكتور جمال الدين الشيال فى كتابه : تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على إنه تخرج فى الأربعينيات من القرن الماضى بتلك المدرسة سبعين مترجما ، وينقل عن محمد قدرى باشا أحد خريجيها أن مجموع ما ترجمه خريجوها ـ ما طبع منه وما لم يطبع ـ نحو ألفى كتاب ، وكان يقود مترجمى هذه المدرسة رفاعة الطهطاوى حامل لواء النهضة العلمية فى القرن الماضى ، وترجم تلاميذه بإشرافه الكود الفرنسى فى القانون وكثيرا من الكتب الجغرافية والتاريخية والهندسية والرياضية والجيولوجية والفلكية والطبية والفلسفية ، وكان رفاعة يلحق بالكتب التى يترجمها جدولا بالألفاظ الفرنسية الاصطلاحية الموجودة فيها ، وأخذ تلاميذه فى مدرسة الألسن بهذه الطريقة فظهرت معظم الكتب التى ترجموها وفى آخرها ملاحق مرتبة ترتيبا هجائيا لشرح ما فيها من الأعلام والألفاظ الفرنسية الاصطلاحية . وكانت ترجمات أساتذة المدارس العليا الذين أتموا دراستهم فى الغرب وعينوا بها لا تقل عما ترجمه خريجو مدرسة الألسن كثرة وأهمية ، وأكتفى بذكر علمين وأعمالهما ليتضح أن علماء مصر فى هذه الدورة من حياة العربية العلمية لم يكتفوا

بالترجمة للكتب العلمية الغربية المهمة ، بل أضافوا إليها مؤلفات لا تقل عنها أهمية وأولهما أحمد حسن الرشيدى عضو البعثة الكبيرة الأولى لمحمد على وأحد أعلام مدرسة الطب المصرية ، ومن ترجماته الدراسة الأولية فى الجغرافية الطبيعية ، ورسالة فى تطعيم الجدرى ، وضياء النيِّرين فى مداواة العينين ، وطالع السعادة والإقبال فى علم الولادة وأمراض النساء والأطفال فى جزأين ، ومن مؤلفاته بهجة الرؤساء فى أمراض النساء ، ونزهة الإقبال فى مداواة الأطفال ، والروضة البهية فى مداواة الأمراض الجلدية ، ونخبة الأمائل فى تشوهات المفاصل ، وعمدة المحتاج لعلمى الأدوية والعلاج وهو موسوعة فى أربعة مجلدات كبيرة . والعلم الثانى أحمد ندا أستاذ التاريخ الطبيعى ، ومن ترجماته حسن البراعة فى فن الزراعة ، والحجج البيِّنات فى علم الحيوانات، ونخبة الأذكياء فى علم الكيمياء ، والأزهار البديعة فى علم الطبيعة، ومن مؤلفاته الآيات البينات فى علم النباتات ، وحسن الصناعة فى فن الزراعة والأقوال المرضية فى علم الطبقات الأرضية .

ولم يفد هؤلاء العلماء المصريون الأفذاذ فى ترجمتهم وتعريبهم للعلوم الغربية من قابلية العربية الكبرى بفضل القرآن والسنة النبوية لحمل العلوم كما رأينا فى عصرها العلمى العالمى

فحسب ، بل أفادوا أيضا من مصطلحات وألفاظ تراثها العلمى الضخم ، وكان يعاونهم فى تعريبهم وترجماتهم ومؤلفاتهم للعلوم الغربية علماء أزهريون لغويون ينقحون أعمالهم ويضعون تحت أيديهم ما يلائم مصطلحات العلوم الغربية من مصطلحات التراث العلمى العربى كما حدث فى أول معجم طبى نهض به أعلام كلية الطب إذ ترجموا وعرّبوا معجما طبيا فرنسيا باسم الشذور الذهبية فى المصطلحات الطبية ، وجع على ما فى كتاب القانون لابن سينا وتذكرة داود وغيرهما من أسماء الأمراض والعقاقير والتعريف بها وتم العمل فيه لأوائل الأربعينيات من القرن الماضى. وبالمثل كانت تبذل الجهود فى ترجمة وتعريب العلوم الغربية، بحيث أصبحت للعربية لغة علمية حديثة تحمل العلوم الغربية بقوة، ويتدارس بها الأساتذة والطلاب تلك العلوم فى المدارس العليا المصرية منذ النصف الأول من القرن الماضى .

وسرعان ما أخذت هذه اللغة تنتشر فى شقيقات مصر العربية بحيث نرى المبعوثين الأمريكيين حين ينشئون ببيروت سنة ١٨٦٦ مدرسة الكلية الأمريكية التى تحولت - فيما بعد - إلى الجامعة الأمريكية يجعلون التدريس فيها بالعربية سنوات طويلة اقتداء بالتدريس فى المدارس العليا المصرية ، وبهايترجمون، ويؤلفون فى العلم، وترجموا وألفوا كتبا متعددة وبالمثل درست

بالعربية كلية الطب اليسوعية التى أنشئت ببيروت سنة ١٨٨٣ وبها ترجمت وألفت كتب فى فروع الطب المختلفة . وظل تعليم العلوم الغربية فى القاهرة بهذه العربية الحديثة طوال سبعين عاما، ولم يلبث الإنجليز ـ بعد احتلالهم لمصر بخمسة عشر عاما ـ بخبثهم ومكرهم ـ أن وقفوا هذه النهضة العلمية بإحلال لغتهم الإنجليزية محل لغتنا العربية فى التعليم العالى وصنعت فرنسا فى الشمال الإفريقى ما صنعه الإنجليز بالتعليم العالى فى مصر ، وأصبحت الفرنسية والإنجليزية اللغتين العلميتين للشباب العربى.

وأخذ أعلام من علمائنا يتصدون منذ العشر الأولى من القرن الحاضر لمكر إنجلترا وفرنسا وما عملتا له من عزل العربية عن العلوم الغربية محاولين أن يقطعوا عليها الطريق بوضع معاجم تحمل مصطلحات هذه العلوم لتيسير نقلها إلى العربية ، وكان من السابقين إلى ذلك فى مصر الدكتور محمد شرف ، فإنه تجرد سنوات طويلة لوضع أول معجم ضخم فى الاصطلاحات المستعملة لدى الغربيين فى الطب والتشريح وعلم وظائف الأعضاء والجراحة والولادة وأمراض النساء والأطفال والأعصاب والجلد والطب الشرعى وأمراض العيون والصيدلة والكيمياء ، واشتمل هذا المعجم على أكثر من ٤٠ ألف مصطلح علمى ومع كل مصطلح مقابله

الأجنبى وتكثر فيه الشروح والتعاريف بالعربية ، ولا تزال له مكانته العلمية مع مرور أكثر من سبعين عاما على نشره سنة ١٩٢٦ وأخذ الفريق أمين المعلوف البيروتى منذ سنة ١٩٠٨ يضع معجما فى الحيوان نشره سنة ١٩٣٢ وفيه وضع مع المصطلح العربى مقابله الإنجليزى والفرنسى واللاتينى . وفى سنة ١٩٤٣ نشر الأمير مصطفى الشهابى معجما فى الألفاظ الزراعية ، وفيه ذكر المصطلح العربى ومقابله الفرنسى وبه تسعة آلاف مصطلح ، ويقول إنه قضى فى إعداده أربعين عاما . ووضع فيليب حتّى معجما طبيا جيدا .

وانضمت فى بلداننا العربية إلى هذه الجهود الفردية فى القرن الحاضر جهود جماعية عن طريق المجامع اللغوية التى تأسست فى سوريا ثم فى مصر فالعراق فالأردن فالسودان للحفاظ على العربية ووفائها بحاجات العلوم والفنون . وعنى مجمع القاهرة منذ اجتماعه الأول سنة ١٩٣٤ بتأليف لجان لوضع المصطلحات العلمية والفنية والألفاظ الحضارية المقابلة جميعا لمثيلتها الغربية، وأكبت اللجان حتى الآن على هذه المهمة ونشر المجمع من مصطلحاتها ثمانية معاجم علمية خالصة ، ووراءها معاجم فى طريقها إلى الظهور .

وأنشىء فى الرباط مكتب لتنسيق تعريب العلوم تابع ، لمنظمة الجامعة العربية ، وله جهد خصب فى تعريب آلاف

المصطلحات العلمية . ونشر اتحاد أطباء العرب معجما طبيا بثلاث لغات : الإنكليزية والعربية والفرنسية طبع مرارا بإشراف الدكتور النابغة الفذ محمد هيثم الخياط ، وهو مكب الآن على إعداد طبعة جديدة لهذا المعجم تبلغ أضعاف الطبعة السابقة .

وواضح من كل ما ذكرت أن العربية ذات تاريخ عريق رسخ لها فيه لغة علم طوال أربعة عشر قرنا وقد أتاحت فى القرن التاسع عشر لأطباء مصر وعلمائها نهضة علمية رائعة إلى أن وقف الإنجليز - كما أسلفت - بكيدهم لمصر والعرب هذه النهضة فى آخر القرن الماضى . ومنذ أوائل القرن الحاضر يصمم العرب على استعادة هذه النهضة ، ويضع الأفراد والمجامع اللغوية والهيئات المعاجم العلمية ليستعين بها علماء الأمة بالكليات العلمية العربية. فى تعريب العلوم الغربية . وسبقت إلى ذلك جامعة دمشق فى سوريا الشقيقة منذ أوائل العشرينيات فى هذا القرن ، وبالمثل كليات الزراعة فى الجامعات المصرية منذ إنشائها ، وأخذت كليات العلوم أخيرا تُعَرِّب العلوم فى بعض سنواتها ، وإن الأمة لتناشد أبناءها من أساتذة الكليات العلمية طبا وغير طب أن يخلصوها من هوان التبعية العلمية للغرب كما تخلصت - بجهودها العنيفة - من هوان التبعية السياسية واستردت لنفسها الاستقلال والكرامة والحرية .

عالمية الإسلام

يتردد فى القرآن الكريم أن كل رسول من رسل الله أرسل إلى قومه وحدهم ما عدا محمدا - صلى الله عليه وسلم - فنوح أرسل إلى قومه يدعوهم لعبادة الله ، ومثله إبراهيم ولوط ، وأرسل هود إلى عاد وصالح إلى ثمود وشعيب إلى أهل مدين وعيسى إلى بنى إسرائيل أما محمد صلى الله عليه وسلم فأرسل إلى جميع الناس ، يقول الله فى سورة الأعراف مخاطباً رسوله : (قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا) فمحمد مرسل إلى جميع الناس عربا وغير عرب . ويقول الله فى سورة يوسف وص والتكوير فى وصف القرآن : (إن هو إلا ذكر للعالمين) وفى سورة القلم : (وما هو إلا ذكر للعالمين) والعالمين جمع عالم بفتح اللام أى أن القرآن ذكر للعالم كله بأجناسه ، وجمع للدلالة على الاستغراق فهو موجه للعالم جميعه . ويقول الله لرسوله في سورة الأنبياء : (وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين) إذ أرسله إلى البشر جميعا بدينه القويم الذى يسعد الناس فى الدنيا والآخرة . ويقول الله فى سورة سبأ : (وما أرسلناك إلا كافّةً للناس بشيرا ونذيرا) فالله لم يرسل محمدا لقريش والعرب خاصة ، بل أرسله للناس كافة فى مشارق الأرض

ومغاربها ليبلغهم رسالته ، مبشرا من آمن به ، فوحَّد الله واعتنق شريعته الإسلامية وما بها من أوامر ونواهٍ بأن الله سيدخله جنته وينعم فيها نعيما أبديا ، وينذر من أشرك بالله وعبد آلهة متعددة ورفض رسالته وشريعته بأن مصيره إلى عذاب النار الأليم فى الآخرة . ويكرر الرسول فى أحاديثه أنه مرسل - كما يقول الله - إلى الناس جميعا ، فعن ابن عباس أنه قال : بعثت إلى الناس كافة: الأحمر والأسود ، والعرب تسمى الأبيض أحمر أى إنه بعث إلى البشر جميعا ، وفى حديث ثان عن جابر بن عبد الله قوله : كان النبى يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة .

وهذه العالمية فى الدين الإسلامى والأمر الإلهى بتوجيهه إلى جميع الناس جعلت الله يفرض معها على الرسول والمسلمين أن يتعايشوا فى ديارهم مع جميع مَنْ بها من أصحاب الديانات والملل إلهيةً وغير الهية تعايشا قويما ، وقد وضع فى القرآن الكريم قانونا عاما التزم به الرسولُ والمسلمون فى جميع عصورهم ، وهو : (لا إكراه فى الدين) وبذلك كان الإسلام يكفل فى دياره لجميع الناس على اختلاف مللهم الحرية الدينية فلا يُجْبر أحد على اعتناق الإسلام مكرها قهرا ، بل يُتْرك الناس وما اختاروا لأنفسهم من الدين ، ولذلك يقول الله لرسوله فى سورة يونس منكرا عليه شدة حرصه على إيمان المشركين من أهل مكة بالإسلام : (ولو شاء ربك لآمن مَنْ

فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تُكْره الناس حتى يكونوا مؤمنين) بدينك إنه ينبغى أن تترك للمشركين من قريش حريتهم الدينية فإن شاءوا تبعوك وإلا فدعهم . والتزم الرسول ذلك فكان لا يكره – ولا يقبل أن يكره أحدُ صحابته – شخصا على الدخول فى الإسلام . وفى تفسير ابن كثير أن مسلما من الأنصار كان له ابنان نصرانيان فقال للرسول صلى الله عليه وسلم : ألا أستكرههما على الإسلام فإنهما قد أبيا إلا النصرانية ، فأنزل الله فيه آية (لا إكراه فى الدين) .

وكان المسلمون فى الأندلس طوال العصور الماضية لا يقبلون من أحد اعتناق الاسلام إلا بوثيقة يعلن فيها إمام قاض وشهود بأنه اختار الإسلام بكامل حريته . وفى تفسير ابن كثير عن ابن عباس أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يأمر أن لا يُتَصدَّق الا على أهل الإسلام فأنزل الله قوله لرسوله : (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله) والله يقول لرسوله : إنك لست مكلفا بهداية المشركين ، ودع المسلمين يتصدقون على فقرائهم كما يتصدقون على فقراء المسلمين ، والصدقة إنما هى لابتغاء وجه الله لا لمراعاة حال مسلم ومشرك . وبالمثل يأمر الله المسلمين أن يعفوا عن أذى المشركين فى سورة الجاثية قائلا : (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام

الله) ولا يسألونه فضله . والله يريد بهذه الآية والآية السابقة لها أن يكون بين المسلمين والمشركين صفاء حتى مع إيذائهم لهم . ويمتدح الله كرماء المسلمين أهل البر في سورة الإنسان قائلا : (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا) فهم يطعمون الطعام على حبه أى مؤثرين به المحتاجين من المساكين واليتامى والأسرى، وكان الأسرى حينئذ من المشركين . وروى ابن كثير عن ابن عباس أن أسرى معركة بدر من المشركين كانوا سبعين رجلا وأمر الرسول أصحابه أن يكرموهم فكانوا يقدِّمونهم على أنفسهم حين يحضر الغداء . وهذه الحرية الدينية وما رافقها من طلب المعاملة الكريمة للمشركين فضلا عن أهل الكتاب تدل – بحق – على عالمية الإسلام إذ فرض على المسلمين أن يتعايشوا مع المشركين في محيط أمتهم قائلا : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) وحتى المقاتلون منهم حين يأسرهم المسلمون يطلب الله إلى المسلمين أن يطعموهم ويكرموهم . وقد كفل المسلمون – في كل ديارهم – لجميع أصحاب الملل دون أى استثناء المحافظة على معابدهم وأموالهم وأن يؤدّوا شعائرهم بحرية تامة. وكانوا – منذ جيلهم الأول في عصر الخلفاء الراشدين – يتعايشون في ديارهم هذا التعايش الجماعي مع أصحاب الكتب السماوية ومع الصابئة عبدة الكواكب في شمالي العراق ومع المجوس عبدة النار في إيران

مؤمنين بأن تلك مشيئة الله فى خلقه للأفراد والشعوب أن تختلف فيهم النزعات وتختلف الأهواء وتختلف الديانات والملل ، كما قال تعالى لرسوله فى سورة هود : (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين) أى أمة تدين دينا واحدا ، وهو ما لم يجعله الله للناس ، إذ جعلهم مختلفين ملة وعقيدة ودينا وسيظلون مختلفين ، لذلك ينبغى أن يرتضى المسلمون - فى ديارهم - كل من يخالفهم فى دينهم من أصحاب الملل إلهيةً وغير إلهية ، أما الجزية التى فرضت على المشركين وأهل الكتاب فى الأقطار الإسلامية بالعصور الماضية فلم تكن ضريبة دينية ، إنما كانت ضريبة دفاع لانهم لا يشتركون فى الجيش الإسلامى ولا فى الحرب ، ولذلك كانت لا تؤخذ إلا ممن يصلح لحمل السلاح، فلا تؤخذ من الصبى ولا من الشيخ ولا من المرأة ولا من راهب ورجل دين ، وكانت زهيدة فكانت غالبا لا تتجاوز دينارا واحدا فى العام.

وبهذه الصورة العالمية للإسلام كان المسلمون يعيشون فى ديارهم من إيران شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا متعاونين مع كل من عاش معهم من أصحاب الملل والنحل . وفى هذا المناخ الإسلامى الحضارى كان يجتمع ذوو النحل المختلفة بمجالس علماء علم الكلام المسلمين ويتحاورون فى نحلهم وعقائدهم ويتناظرون بحرية تامة، من ذلك مجلس بالبصرة - والحياة الإسلامية فى الأوج السياسى -

يقول فيه صاحب النجوم الزاهرة فى الجزء الثانى ص٢٩ : كان يجتمع فيه عشرة لا يعرف مثلهم :الخليل بن أحمد صاحب علم العروض سنى والسيد الحميرى الشاعر شيعى رافضى ، وصالح بن عبد القدوس ثنوى (يؤمن بإلهين على دين مانى الإيرانى) وسفيان بن مجاشع صُفْرى (من الخوارج) وبشار بن برد الشاعر خليع ماجن ، وحماد عجرد زنديق، وابن رأس الجالوت الشاعر يهودى ، وابن نظير النصرانى متكلم ، وعمرو بن أخت الموبذ مجوسى ، وابن سنان الحرّانى الشاعر صابئى . وهو مجلس كان لا يمكن أن يحدث مثله فى أى أمة لولا أن القرآن ألزم المسلمين بالتعايش فى ديارهم مع كل أصحاب الملل والنحل ، وأنه لما خلق البشر جعلهم بطبيعة تقضى باختلافهم فيما يعتقدون وينتحلون ، فعاملوا أصحاب النحل والملل معاملة حسنى ، وفتحوا لهم مجالسهم على هذا النحو يتحاورون معا فى المعتقدات والآراء محاورات حرة . وظل ذلك طويلا فى مجالس علماء الكلام بالعصر العباسى ، ففقيه محدِّث أندلسى يسمى أحمد بن محمد بن سعدى نزل بغداد فى الرُّبْع الأخير من القرن الرابع الهجرى ، وعاد منها إلى القيروان ، فسأله فقيهها ابن أبى زيد المتوفى سنة ٣٨٦ للهجرة : هل حضرت مجالس أهل الكلام ؟ فقال : حضرت مجلسين وأول مجلس حضرته جمع الفرق كلها : المسلمين من أهل السنة والبدعة والكفار من المجوس والدهرية والزنادقة واليهود والنصارى وسائر أجناس

الكفر ، ولكل فرقة رئيس يتكلم على مذهبه ويجادل عنه . وإذا جاء رئيس من أى فرقةٍ كانت قامت الجماعة إليه قياما على أقدامهم حتى يجلس فيجلسوا بجلوسه ، فإذا غَصَّ (ازدحم) المجلس بأهله تناظروا بالحجج العقلية . وقيل لى : ثَمَّ مجلس آخر للكلام ، فذهبت إليه ، فوجدتهم مثل سيرة أصحابهم السالفين .

وهذا الخبر مثل سابقه يصور كيف أن الإسلام منذ ظهوره فسح المجالات في دياره للتعدد فى الأقوام والديانات والعقائد والآراء والأفكار ، فهذه مجالس المتكلمين - منذ احتدمت فى العصر العباسى - تضم بجانب علماء الكلام المسلمين متكلمين من الفرق كلها : من أهل السنة والبدعة المسلمين ومن المجوس والمانوية والدهرية والزنادقة والصابئة ومن اليهود والنصارى . وكل ذلك بفضل عالمية الإسلام التى وسعت كل الملل والنحل إلهيةً وغير إلهية، حتى المجوس والصابئة والزنادقة والدهرية الذين لا يؤمنون بالآخرة .

ومن عالمية الإسلام أن جعل العقل حكما فى كل ما يتصل به وخاصة فى الإيمان بالله ووحدانيته ، فالمسلم لا يكون مؤمنا كاملا إلا إذا عقل دينه واقتنع به عن بيِّنة ، والقرآن هو الكتاب السماوى الوحيد الذى يضع البينة أمام عقل الإنسان ليؤمن بأن له إلهًا

واحداً ، ويكررها عشرات المرات - إن لم تكن مئات - وهى خَلْقه للآيات الكونية ، فإن من ينظر فيها ويتأمل يَهْدِيه تأمله إلى أن لها خالقا صنعها ودبَّر نظامها ، يقول جل شأنه : (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) . والله يدعو الناس فى الآية إلى أن يتأملوا فى خلق السموات التى تبدو كقبة زرقاء فوقنا وما يسبح فيها من كواكب ونجوم ، ويتأملوا فى خلق الأرض وما فيها من بحار وجبال وأنهار وزروع مختلفات ، ويتأملوا فى اختلاف الليل والنهار ظلمة وضياء وطولا وقصرا ، ويتأملوا فى الفلك التى تجرى فى البحار بما ينفع الناس من ركوبها والتنقل بها وحمل تجاراتهم ، ويتأملوا فيما أنزل الله من السماء أى السحاب من مطر ، فأحيا به الأرض بعد موتها بأنواع النباتات والأشجار والزروع والبقول والثمار والرياحين ونشر فيها أنواع الحيوانات أليفة ووحشية ودبَّر رزقها وعرَّفها مأواها ، وتأملوا تصريف مهاب الرياح شرقا وغربا وشمالا وجنوبا والسحاب المذلل لحمل الأمطار المنقاد من جهة إلى جهة ليسقط مطره عليها ، فتحيى ويعودَ إليها الحسن والبهاء ، إن فى ذلك كله لآيات تشهد بأن للكون خالقا جعل فيه هذا النظام البديع المحكم . ويذكر الله فى سورة يس

قسمته اليوم للإنسان بين نهار خلقه مضيئا كى يعمل فيه لمعاشه ، وليل خلقَه مظلماً كى يستجمَّ فيه للراحة والنوم ، وبذلك جعل الله النهار معاشا والليل سكنا ، ولوكانت الدنيا نهارا خالصا لكلَّت قوى الإنسان ، ولوكانت ليلا صرفا لبطلت حركته . ويقول الله : (والشمس تجرى لمستقر لها) أى حتى مكان غروبها اليومى ، ويشير الله بجريها إلى ما يترتب عليه من فصول السنة وأنها تجرى بنظام كونى محكم ، ويقول إن القمر يجرى مثل الشمس فى منازل وصور حتى يصبح كعُرْجُون النخل القديم ومجتمع شماريخه باصفراره وتقوسه. وهاتان المسيرتان للشمس والقمر مقدرتان بنظام دقيق (لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر) فلكل منهما مداره (ولا الليل سابق النهار) فلكل منهما وقته المحدد المعلوم . وتلك آيتان كونيتان عظيمتان . وهما تدلان بوضوح على عظمة خالقهما وتدبيره الدقيق لهما، وإن مداومه التفكير فيهما وفى آيات الله الكونية الأخرى فى القرآن ليملأ قلب الإنسان إيمانا بالله وعرفانا بألوهيته ووحدانيته ، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : لا عبادة كالتفكير فى الكون وما فيه من عجائب الخلق.

ويَنْعَى الله على الكفار إشراكهم فى عبادته آلهةً لهم وأنهم لم يفيدوا أى فائدة من العقل الذى أهداه إليهم فى معرفته والإيمان بألوهيته ، يقول : (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون

بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) والله - جل شأنه - يقول إن المشركين الكفار عطّلوا قلوبهم أى عقولهم عن النظر فى ملكوته وآياته الكونية والتأمل فيها ، فلم تعد تفقه أو تدرك شيئا ، وعطلوا أعينهم فلم تعد تنظر فى الكون شيئا يهديها إلى الحق ، وعطلوا آذانهم فلم تعد تنتفع بما تسمع من القرآن وما فيه من الهدى إلى عبادة الله ، ويقول الله إنهم مثل الأنعام من الإبل والبقر والغنم فلا عقل لهم ولا إدراك ولا بصيرة (بل هم أضلّ) من الأنعام ، إذ لا يؤدِّى بها ضلالها أن تسقط فى مهاوى الضلال ، لما ألهمها الله من معرفة مضارِّها ومنافعها ، أما المشركون فإنهم حجبوا عقولهم عن التأمل السديد فى الكون تأملا يهديهم إلى معرفة الله وعبادتهم له وحده ، وإنهم لغافلون عن سعادتهم فى الدنيا والآخرة . وإذا تركنا هذه المحاكمة الكونية إلى العقل ونظرنا فى المحاور العقلية العامة للدعوة الإسلامية فى القرآن الكريم وجدناها - كما لاحظ ابن رشد - تعود إلى ثلاثة محاور ، هى البرهان العقلى والعظة والجدال السديد . ومن أمثلة البرهان العقلى فى القرآن الكريم استدلال الله على انتفاء الشركاء له فى الألوهية بقوله : (وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) . والله يقول محتجا على من يدعون أنَّ معه آلهة أخرى إن ذلك يقتضى أن يستقل كل إله بطائفة من المخلوقات ويصبح كل إله عاجزا عن

السيطرة على مخلوقات غيره ، مما يثبت العجز على ربُوبيَّته، وهو محال فى حقيقة الألوهية . ودليل ثان أنه لو كان فى الوجود آلهة أخرى ولكلٍّ إلهٍ مخلوقاته لاصطدمت قدرته وإرادته بقدرة الآلهة الأخرى وإرادتها ، وتحاربوا - كما يتحارب الملوك فى الأرض - ابتغاء علو السلطان . والدليلان يؤديان إلى انتفاء شريك لله أو شركاء ، لأن الشريك - ومثله الشركاء - لن يكون بيده ولا بأيديهم ملكوت كل شئ فى العالم ، وهو تصور غير صحيح ، لأنه لا يمكن أن يحدث ، إنما هو إله واحد متصرف فى الكون ، تعالى وتنزه عن أى إشراك له فى ملكوته . ومن أمثلة العظة فى القرآن ما ذكرناه من عرض الله آياته الكونية على الناس لتتأمل عقولهم فيها وتنفذ إلى الإيمان به ووحدانيته ، ومثل ذلك قَصَص الرسل وأقوامهم فى القرآن الكريم ، فقد أكثر القرآن من تكرارها وتردادها ليتعظ الناس فلا يكذِّبوا الرسول بما جاءهم به من الهدى الذى يكفل لهم السعادة فى الدنيا والآخرة حتى لا يصيبهم ما أصاب المكذبين للرسل مثل ما أصاب قوم نوح من الطوفان وقوم هود من الريح العاصفة العاتية فدمرتهم وقوم صالح وما نزل بهم من صيحة وبيلة أتت عليهم إلى غير ذلك من قصص أقوام الرسل الذين كذبوهم فنزل بهم عقاب أليم فى الدنيا وينتظرهم عقاب أشد إيلاما فى الآخرة ، وهو قصص يراد به العظة والعبرة . ومن أمثلة الجدل السَّديد أنه لما نزلت آية سورة الأنبياء الموجَّهة إلى أهل مكة : (إنكم

وما تعبدون من دون الله حصبُ جهنم) أى حطبها يوم القيامة ووقودها . لقى ابن الزبعرى الشاعرُ الرسولَ صلى الله عليه وسلم فقال له : ألست تقول : (إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم) فقال الرسول : بلى ، فقال : أكل ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبدوهم لقد خُصِمْتُ ورب الكعبة (أى غلبت) ألست تزعم أن الملائكة عباد مكرمون وهم يعبدون فى خزاعة وهذه النصارى يعبدون المسيح وهذه اليهود يعبدون عزيرا نبيهم ، فهل عزير والمسيح والملائكة سيكونون حصبا لجهنم . ولم يغضب الرسول حين سمع هذا الجدل بل قال له فى سماحة : اقرأ ما بعده : (إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون) . ومن تمام العقلانية فى الإسلام نهى الله والرسول عن السحر والتعلق به وبكل من يزعم أنه يؤثر فى النـّاس خاصة الكهان والعرافين والمنجمين ، فكل ذلك باطل وقبض الريح ويشدد الرسول فى النهى عنه ، وبالمثل كان ينهى عن الخرافة وكل ما يتصل بها وعن كل شعوذة ويعدُّ ذلك كله خروجا على الإسلام وتعاليمه .

ومن عالمية الإسلام دعوته القوية إلى العلم والتعلم حتى ليصبح ذلك شعارا له منذ فجره الأول وطوال عصوره ، فقد أشاد الله بالقلم والعلم والتعليم فى أول آيات نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم حثا لأمته على تحصيل العلم . وأقسم الله فى أول

سورة (ن) بقوله : (والقلم وما يسطرون) إرهاصا بأن الأمة الإسلامية ستكون أمة علم وفكر وكتابة . ويأمر الرسول والمسلمين فى سورة (طه) بأن يضرعوا إليه داعين أن يزيدهم علما ومعرفة . ويعلى الله فى القرآن دائما من العلم والعلماء إعلاء عظيما ، وقد جعله ميزة كبرى لآدم أبى البشر إذ قال للملائكة فى أوائل سورة البقرة : (إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) وعجزوا فقال : (يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم) أمرهم بالسجود له تعظيما لعلمه . والله – بذلك – جعل منزلة علم آدم بالأسماء فوق منزلة تسبيح الملائكة بحمده وتقديسه مما يرفع مكانة العلم إلى أعلى مرتبة . ويكثر الرسول صلى الله عليه وسلم من دعوة المسلمين إلى العلم والتعلم ، وكان يقول إن الخروج فى طلب العلم مثل الخروج للجهاد الحْربِىّ فى سبيل الله ، وعلى ضوء سجود الملائكة لآدم كان يقول الرسول :" فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى الصحابة" ، وهو بذلك يجعل منزلة العالم فوق منزلة العابد لربه وأشار الله فى القرآن إشارات مختلفة إلى العلوم الطبيعية والفلكية كما فى الآيات الكونية التى خاطب بها عقل الإنسان لتهديه إلى الإيمان به . وبالمثل فى القرآن إشارات إلى

العلوم الرياضية والطبية كما فى آية سورة المؤمنون وما بها من أطوار خلق الجنين حتى يتخلق كائنا حيا . وبهذه الروح العلمية التى بثها القرآن والحديث فى نفوس العرب أقبلوا بعد الفتوح الإسلامية على ما لدى الأمم الأجنبية من معارف تتغذى بها عقولهم ، ونقل لهم عشرات من المترجمين - تموج بهم صفحات كتاب الفهرست لابن النديم - أهم ما فى الثقافات الهندية والفارسية واليونانية من علوم ، ونُقلت إليهم الفلسفة اليونانية . وانصهرت كل هذه الثقافات فى الفكر العربى ، وسرعان ما أخذ يظهر فى كل علم عالم عالمى مثل جابر بن حيان الكيميائى والخوارزمى الرياضى والطبيب الرازى . وامتزجت الفلسفة بروحانية الإسلام ، وافتتح الكندى معاصر المأمون سلسلة فلاسفتها الإسلاميين العظام . وظلت الحضارت العربية وما تحمل من الفكر والعلم والفلسفة تقود العالم وحدها طوال ستة قرون من القرن الثامن الميلادى حتى الرابع عشر، وأكب الغرب على نقل علوم العرب وفلسفتهم فى الأندلس وصقلية منذ القرن الحادى عشر الميلادى واستحالت منارات له إلى حضارته الغربية الحديثة ، وإنما استطردت هذا الاستطراد لأبيِّن مدى الطاقة التى بثها القرآن فى نفوس العرب بجعله علم آدم فوق تسبيح الملائكة لله ، وبَثَّها الحديث أيضا فى نفوسهم بجعله العلم أفضل من العبادة ، وإن الرسول ليقول : "فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب" . وبذلك ظل

الإسلام دافعا لحركتنا العلمية والحضارية ومعانقا لها حتى بلغت الأوج معه فى العالمية .

ومن عجب أن يقرأ بعض المثقفين عندنا ما حدث فى الغرب بالقرنين السادس عشر والسابع عشر للميلاد من تنازع عنيف بين السلطتين الدينية والزمنية أو بعبارة أخرى بين الكنيسة والدولة، وأيضا وقوف الكنيسة أحيانا ضد العلم والعلماء ، فنقلوا ذلك إلينا وحاولوا أن يطبقوه خطأ بين الإسلام والدولة ، وبين الإسلام والعلم وهم فى التطبيقين مخطئون خطأ كبيرا ، أما الخطأ الأول فلأن الإسلام ليس فيه كنيسة على نحو ما هو معروف فى المسيحية .

وأما الخطأ الثانى الذى يذهب أصحابه إلى أن الدين يعارض العلم كما صنعت الكنيسة المسيحية أحيانا فإن ذلك لم يحدث يوما بين الإسلام والعلم بل لقد دعا الإسلام - كما رأينا - المسلمين دعوة كبرى إلى التزود بالعلم زادا يهيئهم للنبوغ فيه ، وقد هيأهم - فعلا فى العصور الماضية - لإحداث نهضة علمية عالمية ، ودفعنا فى نفس عصرنا الحديث إلى إحداث نهضة علمية مماثلة منذ عصر محمد على إلى عصر عباس نقلنا فيها العلوم الغربية إلى العربية ، واستحالت العربية لغة علمية تستوعب جميع العلوم الغربية فى القرن الماضى إلى أن وقف الإنجليز هذه النهضة العلمية المباركة ،

إذ جعلوا تعليم العلوم فى المدارس العليا بلغتهم الإنجليزية ، وهى تنحسر الآن عن بعض العلوم فى الجامعات وعن السنتين الأولى والثانية فى الكليات العلمية والمأمول أن تنحسر نهائيا عن سنواتها جميعا وتنحسر معها تبعيتنا العلمية للغرب وتسترد العربية سيادتها اللغوية فى ديارها كاملة .

ومن عالمية الإسلام نظامه الاقتصادى القائم على فرض زكاة الأموال على الأغنياء وما يتبعها من الصدقة ، فقد جعلها فريضة سنوية ، وقرنها فى كثير من آيات القرآن إلى الصلاة إذ جعلها عبادة له مثلها بل إنه ليقرنها أحيانا إلى الإيمان به تعظيما لها ، ويقول إنه يضاعف الجزاء عليها إلى سبعين ضعفا بل إلى سبعمائة كحبَّة بُذرت فى أرض خصبة، ونالها غيث فأنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة . ويَرْفُق الله بآخذى الزكاة والصدقة ويلطف بهم أعظم لطف ورفق إذ يطلب إلى صاحب الصدقة والزكاة أن لا يمس شعور آخذهما بأ ى إيذاء من قريب أو من بعيد ، وأن لا يتبع صدقته وزكاته بأى منٍّ على الفقير والمسكين كأن يتطاول عليهما بأنه يطعمهما أو لولاه لجاعا أو أنه ينبغى عليهما شكره ونحو ذلك من ضروب المنِّ المؤذية للشعور ، ويقول الله : (قول معروف) أى كلمة طيبة (خير من صدقة يتبعها أذى) يلوثها أو يسممها ، وكأن هذا الإيذاء للصدقة موجه إلى صاحبها فيقول : (والله غنى) عن

هذه الصدقة (حليم) أى أنه لا يعاقب عليها فى الدنيا إنما يعاقب عليها فى الآخرة . ويستحب الله إخفاء الصدقة على الفقير حفظا وصيانة لماء وجهه ، ومحافظة على شعوره ، حتى لا يعلم بها أحد مهما كان قريبا أو غير قريب ، وكان يقال خير المتصدقين مَنْ لا تعلم شماله ما أنفقت - وتصدَّقت به - يمينه .

وعلى هذا النحو فرض الإسلام على المسلم أن يقدم من ماله سنويا فرضا مكتوبا عليه للفقراء وللصالح العام ، وبذلك أصبح للفقير حق معلوم فى مال الغنى سوى ما يؤديه من الصدقة راضيا ، مما يجعل أفراد الأمة تترابط ترابطا اقتصاديا ، ويسود بينهم تعاطف ومودة ، إذ يَبَرُّ الأغنياء الفقراء بِرا متصلا تدفعهم إليه عقيدتهم الروحية التى نزل بها الإسلام ، وهو بِرٌّ موجه لرضا الله عن صاحبه ، مما يجعله عبادة وزلفى اليه أملا فى أن يجزى صاحبه عليه الجزاء الأوفى .

ومن عالمية الإسلام دعوته بقوة إلى المساواة بين أفراد النوع الإنسانى ، فهم جميعا أبناء أب واحد هو آدم ، ويقول الله إنه خلقهم شعوبا وقبائل ليتعارفوا لا ليتفاخروا ولا ليتعاركوا ، بل ليعبدوا الله حق عبادته . ويعلن الرسول لأمته أنه لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر أى أبيض على أسود ولا

لأسود على أبيض إلا بالتقوى . وهى صورة ضخمة من عالمية الإسلام إذ ألغى العنصرية نهائيا وفوارق الجنس واللون ، وجعل المساواة بين أفراد البشر قانونا خالدا ، فالجميع متساوون سواء أكانوا عربا أم غير عرب ، وسواء أكانوا سودا أم غير سود ، وسواء أكانوا بيضا أم غير بيض .

وبقى مقومان من مقومات عالمية الإسلام لا يتسع الوقت لبسط الحديث فيهما ، وهما العدل الذى لا تصلح حياة الأمم بدونه والسلام ، والله - جل شأنه - يكرر فى القرآن الكريم أنه خلق الكون بقوانين عدل تام دون تفريط أو افراط ، ويأمر المسلمين أن يتخذوه قانونا عاما فى كل ما يأتون من القول والفعل فى حياتهم وفى جميع علاقاتهم وفى القضاء والحكم . ويقول الرسول ان من يلتزمون العدل سيكونون يوم القيامة على منابر من نور . ونهى الله ورسوله عن الظلم بكل صورة وتوعدا الظالم بعقاب أليم فى الآخرة .

ودعا الله ورسوله دعوة كبرى إلى السلام وأن يعم فى الأرض وجعلاه التحية اليومية للمسلم اذ يبادر من يلقاه من إخوانه المسلمين وغيرهم بقوله السلام عليكم ، وهى تحية تحمل فى أطوائها الأمان والمودة . والإسلام بذلك يدعو - منذ أربعة عشر قرنا - إلى أن يسود السلام فى العالم ، وقد جعله الله اسما من اسمائه الحسنى ، وسمى الجنة دار السلام تحبيبا للمسلمين فيه وحثا عليه

طه حسين المَجمعى

أبدأ كلمتي بتحية أستاذي طه حسين وذكراه العطرة تحية ملؤها الحب والإكبار والإجلال عرفانا بفضله على وعلى أجيال كثيرة لا تكاد تحصى من قبلي ومن بعدي . والحديث عن أستاذي طه حسين وتأثيره العميق في حياتنا الأدبية والفكرية والاجتماعية يتسع إلى ما لا نهاية ، وخاصة أنه ـ غير منازع ـ حامل لواء نهضتنا الأدبية في القرن العشرين منذ عين ـ بعد عودته من البعثة في أكتوبر سنة ١٩١٩ ـ أستاذا للتاريخ القديم اليوناني والروماني في الجامعة المصرية القديمة إذ حاول سريعا تعريف المصريين والعرب بجوانب من فكر اليونان القدماء وشعرهم التمثيلي يريد أن نعتمد في نهضتنا الأدبية المأمولة على الأصول اليونانية التي اعتمد عليها الغرب في تكوين نهضته الأدبية الحديثة . ويصدر حزب الأحرار الدستوريين صحيفة السياسة ، ويرتضى ـ بجانب عمله الجامعى ـ أن يصبح محررها الأدبي فى سنة ١٩٢٢ وينشر فيها كل يوم أحد قصة تمثيلية ملخصه من الأدب الفرنسي حتى يفقه الشباب المصري والعربي المسرح الغربي الحديث فقها حسنا ، واختار طائفة كبيرة من القصص التمثلية

الفرنسية ونشرها سنة ١٩٢٤ وترجم طائفة من تمثيليات سوفوكليس باسم " من الأدب التمثيلي اليوناني " ، كما ترجم مسرحية أندروماك لراسين وزاديج لفولتير . وبذلك قاد حركة ترجمة واسعة لبعض قصص وتمثليات الآداب الغربية . ونشر كتاب قادة الفكر مصورا فيه مراحل التطور الفكري والثقافي بالغرب ، وظل – من حين إلى حين – يعرض على قرائه ألوانا من القصص والمسرحيات الفرنسية ، وترجم أوديب لأندريه جيد . وبكل ذلك عمل طه حسين على إحداث نهضة أدبية كبرى في مصر والبلدان العربية وزوّد نهضتنا الأدبية بطائفة من أدبه القصصي الرائع كما في الأيام والصيف وأحلام شهر زاد وشجرة البؤس ودعاء الكروان.

ويفتتح أستاذي طه حسين عصرا جديدا بأكمله في الدراسات الأدبية بكتابه : " ذكرى أبي العلاء الذى نال به درجة الدكتوداه من الجامعة المصرية القديمة سنة ١٩١٤ ولما أظهر فيه من براعة علمية أرسلته جامعته في بعثة إلى فرنسا وظفر بدرجة الدكتوراه سريعا وعاد إلى جامعته فعينته أستاذا للتاريخ القديم كما مر بنا ، ولما أصبح المحرر الأدبي لصحيفة السياسة نشر بها كل يوم أربعاء بحثا في الشعراء العباسين الماجنين . وتحولت جامعته القديمة الأهلية إلى جامعة حكومية سنة ١٩٢٤ وعين فيها بكلية الآداب أستاذا الأدب اللغة العربية ، وبدأ محاضراته فيها لطلابه بدراسة الشعر الجاهلى،

ونشر سنة ١٩٢٦ كتابا فيه باسم " في الشعر الجاهلي " انتهى فيه إلى نظريته في أن الانتحال يعم في هذا الشعر مطبقا عليه منهج ديكارت الذي يدعو إلى الشك في كل شيء حتي نصل إلى اليقين ، وظن بعض الكتاب أن ببعض عبارات في الكتاب خروجا على الدين الحنيف ، وثارت ضده عاصفة من الغضب ، وتدخلت الحكومة ، وحققت معه النيابة وبرأته ، ومّرت العاصفة بسلام ، وأعاد طبع الكتاب في السنة التالية باسم في الأدب الجاهلي ، وذكر فيه مناهج الغربيين الفرنسيين في دراسة تاريخ الأدب بالقرن الماضي ، المنهج التأثيري الذي يفسح لمؤرخ الأدب فى تذوقه لمواطن الجمال في فى الأدبي الذي يدرسه وبيان تأثيراته في نفسه وانطباعاته في وجدانه ، ولا بأس من الاستعانة ببعض المناهج العلمية . وأصبح عميدا لكلية الآداب سنة ١٩٣٠ وفتح أبواب الكلية للفتيات المصريات ودعا إلى تعميم ذلك في جميع الكليات ، وهي مأثرة عظيمة في تاريخ الجامعة والمرأة المصرية . وآثر الاستقالة من عمادة كلية الآداب سنة ١٩٣١ احتجاجا على عدوان وزير المعارف حينئذ على استقلال الجامعة وتضامن معه في استقالته مدير الجامعة لطفي السيد ، وعاد إلى الجامعة سنة ١٩٣٤ . ومنذ سنة ١٩٣٣ يمتع طه حسين قراءه بدراساته الأدبية إذ تتوالى فيها كتبه عن حافظ وشوقي وعن بعض شعراء الجاهلية وقصائدهم الفريدة وعن نشأة النثر العربي وأعلامه وأعلام الشعراء العباسيين في

القرن الثالث الهجري وينشر دراسته البديعة عن المتنبي وحياته وشعره كما ينشر كتابيه : " مع أبي العلاء في سجنه " و " صوت أبي العلاء " ، وينشر في الجزء الثالث من كتابه حديث الأربعاء دراسات عن دواوين على محمود طه وابراهيم ناجى وفوزي المعلوف ومحمود أبى الوفاء وإيليا أبي ماضى - وبذلك شملت دراساته الأدبية جوانب كثيرة في تاريخ الأدب العربى وشعرائه وكتابه من العصر الجاهلى إلي العصر الحديث . وبفضله لم تعد دراسة الأدب العربي في هذا القرن العشرين مجدبة ولا عقيمة ، بل أصبحت علمية خصبة قيمة تستضيء بدراساته ودراسات تلاميذه .

وما ذكرته عن فتح طه حسين لعصر جديد في الدراسات الأدبية وحمله للواء النهضة الأدبية في القرن الحاضر إنما هو كلمة موجزة شديدة الايجاز عن مكانته الرفيعة في حياتنا الأدبية ، أما مكانته في المجمع ونشاطه فيه فقد دخله عضوا عاملا سنة ١٩٤٠ فى كوكبة من قادة الفكر والأدب والرأى هم : لطفى السيد وعبد العزيز فهمى والشيخان مصطفى المراغى ومصطفى عبد الرازق ومحمد حسين هيكل وعلى ابراهيم وأحمد أمين وعباس محمود العقاد وعبد القادر حمزة . وعلى أيديهم استقرت للمجمع أوضاعه وتقاليده ، وأصبح هيئة مستقلة فى الشئون الادارية والمالية ، ولرئيسه سلطة الوزير . وكان من حظ المجمع حينئذ أن عهد إلي طه حسين بوضع

لائحته ، فوضعها مبرزا شخصية المجمع واستقلاله مالياً وإدارياً .

وعمل مع رئيس المجمع لطفى السيد على التشكيل الدقيق للجان المجمع المتخصصة والاستعانة فيها بخبراء من أساتذة الجامعة النابهين ، وأسهم مساهمة فعالة فى كثير من اللجان . نذكر منها لجنة المعجم الكبير ، وكان مشرفا عليها ، ورأى أن تنحّى عن المعجم فكرة أن يكون معجماً تاريخيّاً لكلمات العربية كما أراد الأستاذ المستشرق فيبشر ، لأن ذلك يتطلب استقصاء النصوص الشعرية في دواوين الشعر العربي من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث ، وبالمثل يتطلب استقصاء النصوص النثرية في مختلف الكتب والآثار الأدبية على مر العصور .ولا تستطيع النهوض بذلك عصبة ضخمة من العلماء والباحثين ، ولذلك رأى أن تأخذ لجنة هذا المعجم الكبير بفكرة أن اللغة العربية قديمة وحديثة معا ، وكلماتها تخفق بالحياة من جيل إلى جيل ومن عصر إلي عصر حتى اليوم . وظل طه حسين سنوات متعاقبة يشرف على إعداد لجنة المعجم لمواده متأنيا ما وسعه التأنى إلي أن استطاع فى سنة ١٩٥٦ أن يخرج منه نموذجا فى ٤٢٨ صفحة من القطع الكبيريستغرق من المواد اللغوية فى باب الهمزة حتى كلمة أخى وألحقت به ثلاثة فهارس : فهرس للشعراء وفهرس للقوافى وفهرس للشطور ، ولم يقف به عند عصر الاستشهاد ، الذى يجعله اللغويون حتى القرن الثانى الهجرى ، بل أضاف إلي هذا القرن القرون التالية إلى اليوم ، حتى

لا تصبح العربية مثل اللغات القديمة التى ماتت بينما العربية لغة حية " خالدة عاشت " دائماً مع العرب ووسعت علومهم وفلسفتهم وحضارتهم قديما وحديثا حتى اليوم . وعدّ طه حسين هذا النموذج الذى نشره للمعجم الكبير تجربة ، ودعا المتخصصين من عرب ومستشرقين إلى قراءته وتسجيل ملاحظاتهم عليه أثناء القراءة وإرسالها إليه حتى يصلح من منهجه فى المعجم ما يحتاج إلي إصلاح وتغيير ما يحتاج إلى تغيير . وجاءته بعض ملاحظات .

وقد استقر منهج هذا المعجم الكبير بفضل واضعه الاول ومؤسسه طه حسين ، ومن قوله فى مقدمة نموذجه : " أقدم المجمع فى هذا المعجم على عمل خطير لم يقدم عليه أحد من قبله ، فلم يقف باللغة عند العصر الذى وقف بها عنده القدماء من أواسط القرن الثانى للهجرة ولم يهمل حساب هذه القرون التى مضت منذ ذلك العصر وحساب الأجيال الكثيرة التى تكلمت اللغة العربية وكتبتها أثناء هذه القرون الطوال .

ولو قد فعل المجمع ما فعل القدماء من اللغويين لقضى على اللغة بأنها قد ماتت منذ ذلك العصر .. وهذا شىء يأباه المجمع كل الإباء . فلا يتحرج الذين يعملون فى هذا المعجم الجديد من الاستشهاد بالشعر والنثر مهما يكن العصر الذى أنشىء فيه ، ولا

يتحرجون من إثبات ألفاظ طارئه دعت اليها ضرورات التطور وفرضها تقدم الحضارة ..... ومع ذلك فلا ينبغى أن تنتظر أن تجد فى هذا المعجم كل ما تحتاج إلي فهمه من الألفاظ فليس هو معجما علميا ، ولن يأخذ من مصطلحات العلوم على اختلافها إلا بما يشيع بين المثقفين ويصبح جزءا من اللغة العامة : لغة الكتابة والكلام ، وليس هو معجما للتاريخ ولا للجغرافيا وانما يسجل من الأعلام والأحداث وأسماء الأماكن ما ليس من تسجيله بد لفهم النصوص الأدبية والتاريخية .

والدكتور طه حسين - بذلك - تنبه إلي أن المعاجم العربية لا تعدو فى استشهادها الشعرى القرن الثانى الهجرى وأنها لا تشتمل على شواهد من اثنى عشر قرنا للأجيال التى عاشت فيها . ويرى أن يتلافى المعجم الكبير هذا النقص ، وكان ينبغى أن تكلف طائفة كبيرة من الشباب بقراءة طائفة من دواوين كبار الشعراء وأعمال كبار الكتاب فى القرون المذكورة واستخراج ما يصلح منها للاستشهاد بها فى المعجم ، وذكر أنه سيشمل بعض المصطلحات العلمية واشترط فيما يجلب منها إليه أن تكون مما يشيع بين المثقفين وفى اللغة العامة اذ ليس معجما علميا ، ولذلك ينبغى الحذر والاحتياط إزاء ما يوضع فيه من المصطلحات العلمية ، فلا

يوضع فيه منها إلا ما يشيع في اللغة العامة والكتابة الأدبية وبالمثل لا يتوسع فى الأعلام التاريخية والجغرافيه . وكل ذلك ينبغى أن يلاحظ بدقة في مواد المعجم . بالمنهج الذي رسمه له ، وأوجز أهم بنوده .

أولا : يبدأ في كل مادة بأصلها أو أصولها في اللغات السامية إن كانت تمت إليها بصلة .

ثانيا : يتدرج من المدلولات المادية إلي المدلولات المعنوية .

ثالثا : يستشهد على ألفاظ المعجم بنصوص من الشعر والنثر على اختلاف العصور .

رابعا : ترد الكلمات المأخوذة من لغات أجنبية قديمة أو حديثة إلي أصولها الأجنبية .

خامسا : يذكر ما لا بد من ذكره من الأعلام مع الإيجاز .

سادسا : تذكر أسماء الأماكن والبلاد في شيء من الاقتصاد ، بحيث لايصبح المعجم جغرافيا .

سابعا : يشكل ما ليس من شكله بد لأوساط المثقفين .

ثامنا : يذكر من المجاز ما شاع في الشعر والنثر .

تاسعا: لا يذكر من الحديث إلا ما ورد في أصل صحيح ، ويذكر الحديث كله إلا أن اشتد طوله ، فيقتصر منه على ما يجزىء ويغني.

وبجانب لجنة المعجم الكبير أسهم طه حسين في الأدب إسهاما خصبا فشارك في وضع لائحته وفى دراسة الوسائل الفعالة لتشجيع الشباب على إتقان إنتاجهم الأدبي والتفوق فيه ، وتفرعت من اللجنة العامة ثلاث لجان فرعية : لجنة للشعر ، ولجنة للقصة والرواية ولجنة للمقالات والبحوث الأدبية . وكلفت كل لجنة فرعية بتقديم تقرير سنوى بملاحظاتها على مسيرة الحركة الأدبية في مصر والعالم العربي في الفرع الأدبي الخاص بها مع بيان الممتاز فيه مما يقتضى تشجيعا ماديا أو معنويا . وتدرس اللجنة العامة تقارير اللجان الفرعية وتعرض قرارها أو قراراتها على المجمع ويعقد لذلك جلسة علنية يعلن فيها جوائزه . وبشرت اللجنة في كل عام منذ سنة ١٩٤٣ بقصاص وشاعر وباحث من طراز فريد ، وحققت الأيام نبوءاتها ، فطارت شهرة كثيرين ممن نالوا جوائزها ، ونالوا حظا غير قليل من المجد الأدبي . ولجان مختلفة شارك فيها طه حسين مثل لجنة الأصول التي تدرس أقيسه اللغة ومواضعاتها

دراسة عميقة تنفذ منها إلي إثراء اللغة بأقيسه جديدة تنميها وتطوعها لمطالب الحضارة والعلوم الحديثة .

وشارك طه حسين في لجنة الألفاظ والأساليب التي تدرس الكلمات والتعبيرات العصرية المستحدثة في كتابات بعض المعاصرين والتي يظن أنها عامية وتبين ما يستساغ مها لغويا وأنها تجرى على قواعد العربية .

وكان في المجمع من يعارضون فكرة تعريب المصطلحات الأجنبية خشية أن تستعجم لغة العلوم ، وتناقش المجمعيون في ذلك طويلا ، فدافع عن حاجة العلميين إلي التعريب لكثرة المصطلحات العلمية الغربية التي يعزُّان يوجد لها مقابل في العربية ، وأوجب ذلك خاصة في المصطلحات العلمية الغربية التي ترجع إلي أصل لاتيني أو يوناني مما احتفظت به اللغات العالمية الكبرى ، وكان ممن حملوا المجمع على أنه يرتضى التعريب ما دعت إليه ضرورة ، وهو ما أخذ به المجمع حتى اليوم في مصطلحات النبات والحيوان والجيولوجيا والطب والمركبات الكيميائية ومصطلحات الهندسة والفيزيقا والرياضة .

وكان قد درس النحو في الأزهر واطلع على أمهاته المطولة وما فيها من تعقيدات شديدة لمسائله ، حتى ليتحول كثير منها إلي شباك معقدة ملتوية شديدة الالتواء ، وكلما تخلص الطالب من شبكة وما فيها من عسر وقع في شبكة ثانية إلي ما لا يحصى من شباك شديدة التعقيد ، وأتيح له أن يدرس الفرنسية ، وسافر ـ كما مر بنا ـ إلي فرنسا ودرس هناك اللاتينية واليونانية ، ودرس نحو كل هذه اللغات ولم يجد فيها صعوبات النحو العربي التى يتعثر فيها الطلاب وخاصة الناشئة من تلامذة المدارس المصرية ، فاستقرَّ في نفسه أن من الواجب أن يبسط النحو العربي وخاصة للناشئة . وتولى وزارة المعارف سنة ١٩٣٠ بهي الدين بركات وكان يرى تيسير النحو فألف له لجنة من طه حسين ومن بعض أساتذة الجامعة وأساتذة كلية دار العلوم وكبار مفتشي اللغة العربية بالمدارس الحكومية لتيسير النحو للناشئة وتخليصه مما فيه من عقد وصعاب عسيرة ، وظلت اللجنة تجتمع سنوات في بطء وانتهت إلي قرارات أعلنتها سنة ١٩٣٨ من شأنها أن تخلِّص النحو من شباكه وعقده الكثيرة وتقلل من مصطلحاته وأبوابه وتهتم بتكوين الجملة وأجزائها مع الاستغناء عن الإعراب التقديري والمحلى والاكتفاء بألقاب البناء عن ألقاب الإعراب واختصار أبواب النحو فى ثلاثة أبواب هي أبواب الإسناد والإضافة والتكملة . وأهملت هذه القرارات والاقتراحات في تبسيط النحو للناشئة

وتيسيره إلى أن أحيلت إلى مجمع اللغة العربية وخصص لها مؤتمره في سنة ١٩٤٥ وناقشها في ثمان جلسات ، ودافع عنها طه حسين بحجج وبراهين قوية ، وأقرها المجمع مع تعديلات قليلة ، غير أن وزارة المعارف لم تسارع إلى وضع كتب في تطبيقها على ما يتعلمه الناشئة من النحو . وحدث أن نشرتُ في سنة ١٩٤٧ كتاب الرد على النحاة لابن مضاء القرطبي وفيه يدعو إلى إلغاء نظرية العامل في النحو وما جرته فيه من كثرة التقدير والعوامل المحذوفة فى العبارات ، وألغى معها ما يذكره النحاة من علل كثيرة كعلة رفع المضارع وإعرابه دون شقيقيه الماضى والأمر . وقال : إن إعراب المضارع وما يماثله ظواهر لغوية لا تحتاج إلى تعليل . ودعا إلى إلغاء بابى الاشتغال والتنازع مثبتا أن أمثلتهما من صنع النحاة وأنها تخالف شواهد العربية إلى غير ذلك من أبواب مماثلة. وقرأ طه حسين الكتاب وأعجب به ، وألقى عنه محاضرة فى المجمع قال فيها إن ابن مضاء يؤيد المجمع فيما ذهب إليه من تصور لتبسيط النحو كما قال إنه ربما تأثر فى ذلك بما عرف من نحو اللغة اللاتينية فى موطنه بإسبانيا إذ لم يجد فيه نظرية العامل ولا علل النحاة وتقديراتهم الكثيرة . وفى جلسة علنية من جلسات المجمع سنة ١٩٥٥ ألقى محاضرة بدار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والإحصاء والتشريع جعل موضوعها مشكلة الإعراب وفيها دعا بقوة إلى تيسير النحو وتبسيطه قائلا : إن علم النحو

من أحب العلوم العربية إلى نفسي لأني أجد لذة في قراءة الكتب النحوية المعقدة ـ على ما فيها من فلسفة وتعقيد ـ مثلما أجد عند قراءتي لشعر رائع لجرير او لبشار . ولكن إذا كان هذا النحو مستحبا إلى الإخصائيين وإلى الذين يفرغون لمثل هذه الدراسات فمن الحمق كل الحمق أن يفرض على الشباب في القرن العشرين . وذكر أن المشروع الذي أقره مجمع اللغة العربية لا يزال نائما في وزارة التربية والتعليم ينتظر من يوقظه . وقد عنيت الوزارة بتطبيقه في سنتي ١٩٦١و١٩٦٢ ولم يكتب له النجاح . وما يزال المجمع ـ عند ظن طه حسين ـ يحاول تخليص النحو للناشئين من تعقيداته وصعوباته التي ترهقهم إرهاقا شديدا فقد قدمتُ إليه مذكرة مطولة بوجوه تيسيره للناشئة ، فدرستْها لجنة الأصول وقدمتها إلى مؤتمر المجمع سنة ١٩٧٩ وأقرها وقدمت قراراته إلي وزارة التربية والتعليم لتطبيقها في تعليم النحو للناشئة ، ولم تطبقها حتى الآن مع أنها تحذف مِن نحو الناشئة أربعة عشر بابا فرعية رُدَّت إلى أبوابها الأساسية ومعها تيسيرات أخرى كثيرة .

وسنَّ طه حسين في المجمع سنة استقبال أعضائه ووداعهم بحيث تعقد في استقبالهم جلسة علنية ينهض بالحديث فيها اثنان: عضو قديم يستقبل باسم المجمع زميله الجديد منوها بأعماله العلمية التي تدل ـ في وضوع ـ على أن المجمع أحسن اختياره له ،

ثم يتحدث الزميل الجديد شاكرا للمجمع انتخابه فيه ، ومثنيا على العضو الذى حلّ فى المجمع مكانه . ومن روائع طه حسين فى استقباله بعض أعضاء المجمع كلماته فى استقبال عبد الحميد بدوى ومحمود تيمور وتوفيق الحكيم .

وكما استنّ طه حسين استقبال المجمعيين الجدد استن وداع الراحلين من المجمع عن الدار الفانية إلى الديار الباقية ، وله فى وداع عبد العزيز فهمى ومحمد حسين هيكل وعبد الوهاب عزام ولطفى السيد مراث مؤثرة ، وهى جديرة بان يطبعها المجمع وينشرها مع كلماته فى الاستقبال ذكرى طيبة لأعضاء أفذاذ كبار .

وكان طه حسين قد أصبح نائبا لرئيس المجمع سنة ١٩٦٠ وهو أول من شغل هذا المنصب وتوفى رئيس المجمع لطفى السيد سنة ١٩٦٣ فانتخب بالإجماع رئيسا له ، ونزل به شلل جزئى أقعده فى منزله سنوات متعاقبة ، ومع ذلك كان يزور المجمع من حين إلي حين متحملا فى ذلك مشقة شديدة ليجتمع بزملائه فيه ويتبادل معهم الآراء فى شئونه ، وظل يصرِّف أموره على خير وجه ممكن . ودعا فى منزله رئيسى مجمعى دمشق وبغداد وبعض أعضاء مجمعيهما ومجمع القاهرة وعرض عليهم قيام اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية فأيدوه واختاروه رئيسا له فوضع نظامه ولائحته

وفيهما نصٌ على أن ينشأ للمجامع اللغوية العلمية العربية اتحاد له شخصية معنوية مستقلة ومقرُّه مدينة القاهرة ويتألف من مجامع دمشق وبغداد والقاهرة وكل مجمع لغوى تنشئه دولة عربية مستقلة ، وله هدفان : هما تنسيق الجهود بين المجامع فى كل ما يتصل باللغة العربية ، والعمل على توحيد المصطلحات العلمية والفنية والحضارية العربية ونشرها . وللاتحاد مجلس يسمى مجلس اتحاد المجامع اللغوية العلمية العربية .

ويتألف الاتحاد من عضوين عن كل مجمع لغوى يختارهما المجمع العضو لمدة أربع سنوات ، وينتخبون من بينهم رئيسا وأمينا عاما وأمينين مساعدين . واختصاصاته النظر فى الأعمال المطروحة على المكتب وميزانيته السنوية وتنظيم جهود المجامع وتوحيد المصطلحات العلمية والفنية والحضارية وعقد مؤتمرات وندوات لتحقيق أهدافه والنظر فى الاقتراحات المتصلة بأهدافه التى تقدمها الهيئات اللغوية والعلمية والمشتغلين باللغة فى العالم العربى .

نضر الله وجه طه حسين فى آخرته وجزاه عن أمته العربية ومجمعها اللغوى وما بذل لهما من جهد عظيم جزاء العاملين المخلصين .

على الجارم
وبحوثه فى المجمع

إنه ليشرفنى أن أتحدث عن علم شامخ من أعلام الأمة العربية فى عصره ، كان مرموق المكانة ـ ولا يزال ـ بين شعراء عصره المبدعين الذين تخلب أشعارهم الألباب ، وكان معلما لناشئة الأمة وأبنائها العربية والبلاغة أجيالا بعد أجيال ، وكان كاتبا قصصيا طالما ظفر فى قصصه بالإعجاب ، وكان إماما لغويا لا يباري ولا يجارى ، ولذلك حين عجمت الأمة أعلامها ورجالاتها ليؤسسوا مجمع اللغة العربية تأسيسا قويما اختارته مع تسعة من المصريين فى العصبة الأولى التى عهدت إليها بإقامة هذا الصرح المجمعى اللغوي .

وبمجرد أن اجتمع الأستاذ الكبير علي الجارم مع زملائه من أعضاء المجمع بعد افتتاحه وضعوا لائحة المجمع وأصدروا قرارات بلجانه العلمية الأولى وأعضائها ، وأصبح الأستاذ الجارم عضوا فى لجنة العلوم الطبيعية والكيميائية . ووضعت فى هذه الدورة الأولى للمجمع أربعة وسبعون مصطلحا علميا مع مقابلاتها الغربية فى

المغناطيسية والكهرباء . وأصبح الجارم أيضا عضوا فى لجنة العلوم الاجتماعية والفلسفية ومضت تعنى بالبحث فى علوم الاجتماع : الحقوق والاقتصاد والسياسة والإدارة ووصف الشعوب ، والبحث أيضا فى العلوم الفلسفية : علوم النفس والمنطق والأخلاق والتصوف والإلهيات :

وللأستاذ الجليل الجارم فى مجلة المجمع للدورة الأولى بحث مفصل عن الترادف أمتد إلى ثلاثين صفحة من القطع الكبير ، ونقرأ فى مفتتحه ، أن علماء اللغة اهتموا به وألفوا فيه وأن للفيروز ابادى كتابا بعنوان الروض المسلوف فيما له اسمان إلى ألوف "، ويقول الأستاذ الجارم إن علماء الأصول اهتموا بالترادف للدقة فى استخلاص الأحكام الفقهية من النصوص ، وبالمثل أصحاب المنطق لتحديد معانى الألفاظ وسلامتها من الزلل . ويذكر تعريفات لبعض منكريه ومثبتيه ، ويذكر من منكريه ابن الأعرابى وثعلباً وأحمد بن فارس وأبا على الفارسى كانوا يقولون إن الشيء قد يسمى بأسماء مختلفة مثل السيف والصارم والمهند والحسام ، ونرى أن له اسما واحدا هو السيف ، وما سواه مما يسمى أسماء له إنما هو صفات ، وفى كل صفة معنى غير معنى الأخرى . ويخالفهم المثبتون للترادف فيقولون لمنكريه إن ما تسمونه صفات ليست

فى حقيقتها صفات إنما هى أسماء . وذهب المنكرون له فى الأسماء إلى إنكاره فى الأفعال ، فقالوا فى مثل قعد وجلس إن قعد فيها معنى ليس فى جلس . واحتج القائلون بإثباته أنه لو كان فى كل لفظة مرادفة معنى غير معنى الأخرى لكان قولنا : " لا ريب فيه) أى لا شك فيه خطأ ، وواضح أن معناهما واحد . وينقل عن كتاب يسمى دراسة الكلمات لباحث إنجليزى اسمه ترنش Trench رأياله فى المترادفات يلتقى مع رأى أئمة اللغة المنكرين له إذ يقول " إنه مع شدة تشابه معانى المترادفات تتضمن فروقا صغيرة جزئية إما مع أصل الوضع ، وإما طارئة عليها بالاستعمال ، وإما جاءت إليها من تصرف البلغاء وأساطين البيان " .

ويقول الأستاذ الجارم : يؤخذ من كلام ترنش ندرة المترادفات. ويقول إنه قد يحدث من التقاء لغتين . ويعود الأستاذ الجارم إلى ذكر مثبتى الترادف ويورد بعض أدلتهم وأنهم ذكروا من فوائده إتاحة السعة فى الكلام للأدباء وتسديد القوافى للشعراء والتفنن اللفظى فى مجانسة الكلام وتجنب الثقل فى إعادة الألفاظ .

ويقول الأستاذ الجارم إن المثبتين للترادف من اللغويين والمنكرين تجاوزوا الحد ، وركبوا متن الشطط . ويذكر عن

السيوطى فى كتابه المزهر أن للعسل سبعة وثمانين اسما تمثل منها بنحو سبعين اسما ، ودرسها دراسة مستفيضة ، ويقول إن طائفة منها مطلقة وطائفة مقيدة بوصف نسبة أو هى مجاز أو كناية . وينقل عن ابن جنى أن الترادف قد يكون من اختلاط القبائل بعضها ببعض ، ويقول إنه قد يكون بسبب الإبدال مثل الأيم والأين للحيّة أو بسبب القلب مثل صاعقة وصاقعة أو بسبب كلمة أجنبية دخلت العربية مثل المرآة والسجنجل ، وقد يكون باستخدام المجاز مع الحقيقة مثل العسل والسلافة أو بسبب الكناية ، كالكناية عن لغة العرب ببنت عدنان .

وخلاصة هذا البحث اللغوى الدقيق عند الأستاذ الجارم أن لا نتطرف فى إنكار الترادف ، كما لا نتطرف فى دعوا بحيث نثبته بين كل لفظين أو ألفاظ تقاربت فيها المعانى .

وفى الدورة الثانية للمجمع شرح الأستاذ الجارم مائة وثمانين لفظا لغويا فى المنازل وكل ما يتصل بها وفى المائدة وفى المكتب والسكك الحديدية ومع كل لفظة يذكر الأصل اللغوى فى دلالتها عارضا لها على المعاجم . وكاد لا يترك معجما لغويا إلا رجع إليه ، ودائما يذكر ـ بذكائه المتوقد ـ المسوغات للدلالة المجمعية

الجديدة . وأضاف الأستاذ الجارم إلى هذه الألفاظ فى الدورة المجمعية الثالثة عشرين لفظة جديدة من المصطلحات المجمعية فى الشئون العامة شرحها واستوفى شواهدها اللغوية مثل سابقتها مع بيان إساغة المجمع لها جميعا إساغة دقيقة . وكل هذه الألفاظ فى العددين الثانى والثالث من مجلة المجمع .

وكان المجمع قد قرر فى دورته الثانية تكملة المادة اللغوية التى ذكرت فى المعجمات بعض الفاظها كالمصدر أو الفعل أو أحد المشتقات ، ووضع للتكملة قواعد حين تكون المادة غير ثلاثية الحروف، وحين تكون ثلاثية : فعلا متعديا أو لازما ، وحين تكون مصدرا أو من مشتقاته . ورأى الأستاذ الجارم أن يرجع الى المعاجم ويختار منها مواد ناقصة ، ويطيل فيها البحث الدقيق والنظر العميق ويكمل عن دراسة لغوية متأنية متصلة نواقصها التى لم تسجلها المعاجم .

وحرىٌ بنا أن نستخدمها ونضيفها إليها ما دعت الى ذلك ضرورة علمية أو حاجة بيانية . واختار بعد دراسة طويلة للمعاجم ثمانيا وخمسين مادة ناقصة فى كل المعجمات وأكملها ـ بمهارته اللغوية ـ ويقول فى تقديمه لها : " لما كان العمل بقرار المجمع تكميل المواد

اللغوية يتطلب دقة فى النظر وذوقا حساسا فى العربية وإلماما وبصرا بعلم الصرف ، وحيطة وأناة فى العمل أردت أن أعرض أمثلة ، تبين طريق العمل بهذا القرار ، راجيا أن يكون بها ما ينير السبيل " . وكل مادة يعرضها الأستاذ الجارم فى بحث لغوى مستفيض بأسلوبه المتسق البديع ، مع استكمال نواقصها اللغوية ببصيرته النافذه .

وينشر الأستاذ الجارم فى الجزء الرابع من مجلة المجمع بحثا لغويا فريدا بعنوان المصادر التى لا أفعال لها يذكر فى فواتحه أنه: " لما كان يشترط فى تكميل المادة اللغوية أن لا ينص علماء اللغة أو يشيروا إلى أن المادة لم يسمع لها فعل أو أن فعلها أميت وجب على الباحثين أن يلموا بنصوص اللغويين فى هذا الصدد حتى لا يصاغ فعل لم يجيزوا صوغه بالإجماع يقول : " وقد اعتاد بعض العلماء أن يعقبوا على بعض الأسماء أو المصادر بأنها لا فعل لها ، ولكن الباحث إذا واصل البحث واستقصى كثيرا من المراجع وجد من اللغويين من يذكر لها أفعالا " . ويستعرض كتاب المخصص وهو معجم ضخم للمعانى لابن سيده كبير علماء العرب بالاندلس ويجده فى المجلد الرابع عشر قد أفرد بابا فيه لأسماء المصادر التى لا تشتق منها أفعال ، وأورد من هذه المصادر تسعة وخمسين مصدرا،

نقل منها ثلاثة وأربعين عن أبى عبيد، وأربعة عن ابن السكيت وثلاثة عن سيبويه ، وثمانية عن ابن دريد، وواحداً عن ثعلب ، ورد ابن سيده على أبى عبيد خمسة منها فأثبت لها أفعالا ، وبقى أربعة وخمسون مصدرا لا تزال ـ فيما نقله ـ لا يصح أن يشتق منها أفعال . يقول الأستاذ الجارم : قد تناولت هذا البحث ، بإضافة واستيعاب وتنقيب فى المعجمات ، فظهر أن لجمعيها أفعالا ما عدا سبْعة منها ، وعادة يذكر فيما أكمله منها نص صاحب المخصص أوّلا، ثم يتلوه ينص ينقضه من المعاجم ، ويورد فى النصوص أفكارا له وتعليقات لغوية دقيقة .

وهو عمل لغوى مجمعى رائع فقد نقض الأستاذ الكبير على الجارم لاكلمة ولا كلمات من كتاب المخصص ، بل نقض بابا برمته لابن سيده الذى كانوا يقرنونه فى علمه باللغة بأبى العلاء المعرى ويقولون : كان بالمشرق لغوى وبالمغرب لغوى فى عصر واحد لم يكن لهما ثالث وهما أبو العلاء وابن سيده " .

وقد نقض الأستاذ الجارم أقوال من نقل عنهم ابن سيده من أئمة العربية الذين نفوا عن بعض المصادر أن لها أفعالا من أمثال سيبويه وأبى عبيد وابن السكيت وابن دريد . والبحث مفخرة للأستاذ الجارم .

وفى السنة السابعة للمجمع ضُمَّ إليه عشرة أعضاء منهم ثلاثة أجلاء من أساتذتى : مصطفى عبد الرازق وطه حسين وأحمد أمين . وأعيد تشكيل اللجان ، وتعددت عضوية الأستاذ على الجارم فيها ، فكان عضوا فى لجنة المعجم ولجنة اللهجات ونشر النصوص القديمة ولجنة الأصول ولجنة الأدب ولجنة المصطلحات الطبية ولجنة معجم ألفاظ القرآن الكريم . وكان فى كل هذه اللجان عضوا نشطا واسع العلم فى حل المشكلات والمعضلات سريع الخاطر حاضر البديهة قوى الحجة والبرهان ، مع التؤدة فى الكلم وحسن الجدال والنقاش . وكان دعامة فذه للجنة الأصول يمدُّها بعتاد لغوى محكم فيما تضعه من قواعد للاشتقاق والقياس والتعريب والنحت .

ومن بحوثه المجمعية القيمة بحثه الذى ألقاه فى مؤتمر المجمع قبيل رحيله ، وعنوانه " الجملة الفعلية أساس التعبير فى اللغة العربية " وقد ذهب فيه إلى أن العقلية العربية تقتضى أن تكون الجملة الفعلية الأصل والغالب الكثير فى التعبير وكان العربى يهتم بالحدث إذ يريد تنبيه السامع لكلامه إليه ، ولذلك كان الأساس عنده فى الإخبار أن يبدأ الجملة بالفعل ، فيقول مثلا : عدا الفرس ، ورعت الإبل ، وعاد المسافر . وفى رأيه أن السبب فى ميل العرب إلى البدء فى عباراتهم بالفعل أنهم كانوا يعيشون عيشة

بداوة تحيط بها المخاوف وتكثر فيها المفاجآت فكانوا يعنون بذكر الحدث قبل عنايتهم بمن وقع منه الحدث مما جعلهم يكثرون من ذكر الفعل فى بدء تعبيراتهم .

وللأستاذ الكبير على الجارم - بجانب ما قدمت - سنن سنَّها فى المجمع وظلت من بعده إلى اليوم ، من ذلك أنه استن للشعراء من أعضاء المجمع فى افتتاح مؤتمراته أن يحيوا الفصحى لغة القرآن الكريم ، ويشيدوا بما أودعها القرآن من حلى قديسة معجزة وما أودعها الرسول فى بلاغته النبوية الباهرة ، ويعرضوا تاريخها المجيد على مر العصور إلى أن نهضت بها مصر ومجمعها اللغوى ، كما فى قصيدتيه الفريدتين اللتين أنشدهما فى افتتاح دورتى المجمع الثانية والثالثة . وسنة ثانية استنها للشعراء من أعضاء المجمع أن يؤبنوا زملاءهم الراحلين معزين المجمع فيمن يفقدهم من أعضائه ، وممن أنشد فيهم مراثيه البارعة الأساتذة : أحمد الإسكندري ونالينو وأنطون الجميل وأبو الفتح الفقى .

هذه لمحات موجزة عن العَلَم الفذ عضو مجمع اللغة العربية الأستاذ الكبير على الجارم الذى نحتفل اليوم بتكريم ذكراه العطرة لما أدى للمجمع فى تأسيسه من جهود لغوية خصبة ولما سن فيه من سنن شعرية قويمة باقية ، نضَّر الله وجهه فى آخرته وأنزله فى جناته منازل العلماء الأخيار الأبرار المخلصين .

ازدهار الفصحى
في القرن العشرين

الفصحى لغة عريقة تتعمق فى التاريخ إذ نشأت منذ نحو ثمانية عشرقرنا ، وهى- بذلك -أقدم اللغات الحية زمنا و أطولها حياة، تولدت من لهجة قريش وارتفعت إلى منزلة لغة أدبية لعرب الجزيرة العربية فى الجاهلية، وإنما اختارت قبائل الجزيرة لهجة مكة القرشية لتكون لغة أدبية عامةً لها لأن مكة كانت مهوى أفئدتهم بسبب مركزها الدينى الروحى والاقتصادى المادى فكانت حارسة الكعبة بيت عبادتهم، وكانت قوافلها التجارية تجوب الجزيرة العربية شمالاً وجنوباً وشرقاً، وكان العرب يجتمعون بها فى أعيادهم الدينية و فى الأسواق المحيطة بمكة، وبخاصة فى عُكاظ ينشدون فيها أشعارهم ، و يحتكمون إلى النقاد لإعلان أسماء المتفوقين فيهم.وكانت القبائل العربية ترى الحبشة تسيطر على اليمن ثم الفرس، ويسيطر الروم على القبائل فى الشمال الغربى للجزيرة، والفرس على القبائل فى الحيرة والشمال الشرقى، فتجمعت قلوبهم حول مكة التى لم تدِن يوما لسلطان أجنبى فكانت

رمز استقلالهم وعاصمة ديانتهم الوثنية ، وكان طبيعيا أن يشعروا بسمو لهجتها ، وأن يتخذوها لغتهم الأدبية التى يصوغون فيها أدعيتهم الدينية وأشعارهم .ونوَّه أسلافنا بجمال اللهجة القرشية الفصحى وتفوقها على اللهجات العربية من مثل قول أحمد بن فارس : " إن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة " ويقول أبو نصر الفارابى : " كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عما فى النفس" .

وحظيت هذه الفصحى القرشية بنزول القرآن الكريم فيها وما صبّ بها من إشعاعات بلاغية ربانية بحيث لم يتح لأمة من الأمم كتاب يماثله فى روعة البيان ، وظن الأسلاف أن هذه الروعة مدار إعجاز القرآن وحدها ووقفوا عندها يصورونها فى مباحث قيمة . وفاتهم من وجوه إعجازه أنه ينقل من يتلوه ومن يسمعه إلى حضور ربانى يملك عليه لبه وقلبه ، ويستولى على كيانه ، فيستسلم للرسول ويعلن إليه إسلامه على نحو ما كان يحدث للمسلمين القرشيين الأولين وما حدث لعمربن الخطاب ، فقد كان كافراً وملأه خاله أبو جهل أكبر أعداء الرسول حَنَقا عليه وغضبا لتفريقه الجماعة فى مكة ، وأقسم لخاله ليقتلنه وتقلد سيفه ، وسار فى شوارع مكة وفيها عَلِم أن أخته فاطمة

وزوجها سعيد بن زيد أسلما ولم يكن يعلم ، وسمعهما يتلوان القرآن قبل دخوله البيت فدخل غاضبا فى عنف ، وضرب أخته فقالت له : قد أسلمنا فاصنع ما بدا لك . يقول عمر – كما فى عيون الأثر – فرأيت كتابا فى ناحية من البيت ، فقلت لأختى أعطنيه ، ولم أزل بها حتى أعطته لى ، فإذا فيه سورة الحديد ، وقرأت فى أولها (بسم اللّه الرحمن الرحيم) فذعرت ورميت الصحيفة من يدى ثم رجعتْ إلىَّ نفسى فتناولتها فإذا فيها : (سبَّح للّه ما فى السموات و الأرض و هو العزيز الحكيم) وكلما مررت باسم من أسماء اللّه ذُعرت ثم ترجع إلىَّ نفسى حتى بلغت الآية : (آمنوا باللّه ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) وبلغتُ إلى قوله : (إن كنتم مؤمنين) فقلت أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول اللّه . ووضع عمر سيفه فى غِمده و ذهب مهرولا إلى رسول اللّه وأعلن إليه إسلامه .وفى هذا الخبر ما يصور بدقة ما أقوله من أن القرآن الكريم يمسك بزمام تاليه و سامعه ، بحيث يستسلم للّه ورسوله ، وهو إعجاز .عبر عنه عمر بقوله إنه كان يذعر كلما تلا اسما من أسماء اللّه .

وسمع الوليد بن المغيرة الرسولَ وهو يتلو بعض آيات من القرآن وكان من ألد أعدائه ،فتوجَّة إلى نفر من قريش قائلا : "واللّه لقد سمعت من محمد كلاما ، ما هو من كلام الإنس ولا من

الجنّ وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة " .وقد شعر بوضوح أن آيات القرآن تباين كلام الإنس من شعرائهم الفصحاء كما تُباين كلام الجن الذى كان يزعم كُهانهم أنهم ينطقونهم به ، فهو ليس شعراً موزوناً مما كان ينطق به شعراؤهم ، ولا سجعا مقفًى مما كان ينطق به كهانهم . إنه نمط جديد باهر يؤثر فى النفوس والقلوب . وقد عملتْ هذه الفصحى القرآنية على تقريب ما بينها و بين اللهجات القبلية إذ كان العرب يتلونه آناء الليل وأطراف النهار .وتغلغلت هذه الفصحى باليَمَن فى الأنحاء الداخلية التى كانت لا تزال تتكلم اللغة الحميرية . ولما فُتِحت البلاد الإسلامية أخذت هذه الفصحى تسود شرقا وغربا إذ كانت تلاوة القرآن فرضاً مكتوباً على كل مسلم ، ويقول الله تعالى : (ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشةً ضَنْكا ونحشرهُ يومَ القيامة أعمى قال ربِّ لِمَ حشرتنى أعمى وقد كنتُ بصيرا قال كذلك أتتك آياتُنا فنسيتَها وكذلك اليوم تُنْسَىْ) وبذلك تحول المسلمون فى جميع أقطار البلاد الإسلامية إلى حفظَة للقرآن يتلوه كبيرهم و صغيرهم ، حتى من سكنوا منهم فى رءوس الجبال وفى الصحارى النائية مما جعل المسلمين فى كل بقاع الأرض ينطبعون بطوابع الفصحى القرآنية.

وتتميز فصحى القرآن بأسلوبها الرصين مع الجزالة والعذوبة وقربها من الأفهام حتى تلمس شغاف القلوب . أسلوب

واضح يلذ الآذان حين تستمع إليه والأفواه حين تنطق به ، والأفئدةَ حين تصغى له ، وقد استطاع أن يفتح قلوب الشعوب حين فتح العرب الأمصار من أواسط آسيا إلى المحيط الأطلنطى فإذا جميعها تهْجُر لغاتِها وتزايل ألسنتَها ، وتحل فيها جميعا لغته الصافية الشفافة بألفاظها الناصعة المستحسنة فى الآذان وعلى الأفواه .

وهذا الأسلوب الرائع للقرآن هو الذى أقام عمود العربية وحافظ على مقوماتها وأوضاعها فى العالم العربى الكبير إلى اليوم، وكان المظنون حين حملت العربية فى العصر العباسى علوم الأوائل السابقين لها جميعا والفلسفة اليونانية أن تحدث تغيُّزاتٌ وانحرافات فى أوضاع العربية ، ولم تحدث ، إذ وسعتها العربية باشتقاقاتها وصيغها الكثيرة و تمثّلت كل ما نقل إليها من الحضارات السابقة : الهندية والفارسية واليونانية من علم وفكر وفلسفة ، وأضافت فى جميع المجالات الفلسفية والعلمية إضافات باهرةً جعلتها تنفرد بقيادة العالم علميا وفلسفيا وحضاريا وأخذت تذيع علومها وفلسفتها فى أوربا وأقطار العالم لمدة ستة قرون من القرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى إلى القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى ملأت فيها الأرض علما وأدبا وفلسفة

وحدثت خطوب و أحداث كثيرة ماتت فيها لغات كانت ناطقة ومنتشرة مثل اللغتين اليونانية العتيقة و اللاتينية ، وأبلت منها فصحى العربية بلاء كثيرا جعل حضارة الأمة العربية وما يُطْوَى فيها من العلوم والفلسفة تكاد تتوقف ويصيبها عُطلٌ شديد ، غيرَ أنها لم تمت و ظل لواؤها مرفوعا طوال عدة قرون خمدت فيها وركدت إلى أن وصلت إلى القرن التاسع عشر الميلادى بعد كل ما أصابها من الكوارث والخطوب سليمةً دون أن يعتريَها شئ من الفساد أو الاختلال . وكانت مصر قد بدأت نهضة علمية ، فضمّتها إلى صدرها وأخذت تنقل إليها العلوم الحديثة للغرب ، وأدتها أداء دقيقا ، وسرعان ما كوَّنت مصر منها لغة علمية فى القرن الماضى انتفعت بها جاراتها العربية ، وعرَّبت - مع العلوم الغَرْبيَّة -القانون الفرنسى و علم الاقتصاد و يسميه العرب عِلْمَ المعاش . ولم تلبث مصر فى العقود الأخيرة من القرن الماضى أن بدأت ترجمة الآداب الأوربية وما يطوى فيها من الأعمال القصصية والمسرحية. وكانت فصحى الشعر فى هذه العقود قد تخلَّصت - على يد البارودى - من أغلال البديع الثقيلة و من أساليبه الركيكة الغثة وأصبح الشعر يصور حياة الشاعر ومشاعره و حياة أمته مع استعارته من أسلافه إطارهم الشعرى ، غير أنه يملؤه بروحه وبشخصيته وبأمته وأحداثها السياسية وما اختلف عليه من أيام نعيم وأيام بؤس ونفى فى سرنديب.

ونمضى إلى القرن العشرين فيخلف حافظ و شوقى البارودى، أما حافظ فشدَّ إلى قيثارة الفصحى وترا وطنيا ثائرا ملأ به قلوبَ الشعب المصرى حماسة وصلابة لمنازلة الإنجليزالمحتلين لدياره ، وهو فيه يعد سابقا لشعراء مصر والبلاد العربية ، وشدَّ مع هذا الوتر وترا للعروبة والإسلام وكان أول ما وقَّع فيه من نغم نداء قويا للمصريين والعرب لإغاثة الفصحى ضد أعدائها المستعمرين إذ هاجمها قاض إنجليزى بمحكمة الاستئناف الأهلية يسمى ويلمور ألَّف كتابا عن لغة أهل القاهرة سنة ١٩٠٢ دعا فيه لاتخاذ العامية لغةً للأدب والعلم فى مصر ، وأحدث الكتاب هِزَّةً حادَّة فى مصر والبلاد العربية . وردَّ عليه ردا عنيفا حماة الفصحى و فى مقدمتهم حافظ إبراهيم إذ نشر ضد دعوته قصيدته :"اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها "مصوبًا أبياتها - كالسهام إلى دعوته فقضت عليها قضاء مبرما و فيها يقول على لسان الفصحى :

وسعتُ كتاب اللّه لفظا و غايةً وما ضقت عن آى بِه و عظاتِ

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق أسماء لمخترعات

أنا البحر فى أحشائه الدرُّ كامن فهل سألوا الغوَّاص عن صَدفاتى

وحافظ يرد فى هذه الأبيات على ما كان يردده أعداء الفصحى من أنها لا تحمل مصطلحات العلوم الغربية و مخترعات الغرب . ويقول إن هذا ليس من قصور ذاتى فيها إنما هو قصور فى أهلها ، ويقول حافظ إنه يكفيها فخرا أنها و سعت كتاب اللّه وآياته المحكمة

مشيرا بذلك إلى أن دعوة و يلمور باستخدام العامية تحمل فى طياتها دعوة إلى القطيعة بيننا و بين القرآن الذى يضمه المصريون إلى صدورهم و قلوبهم وهدمت القصيدة دعوة و يلمور من أساسها ، و اضطر إلى مغادرة مصر فى غير رجعة .

ويقف حافظ مع سوريا ولبنان ضد الاستعمار ، مسلطا عليه نارا حامية من أشعاره ويستشعر بقوة ما بين مصر والبلاد العربية الشقيقة من أخوة ، و ينتصر دائما للشيخ محمد عبده فيما كان يأخذ به نفسه من الإصلاح الدينى ، و يشدُّ إلى قيثارة الفصحى و ترا جديدا سبق به معاصريه من شعراء العربية غير منازع ، وأقصد وتر الشعر الاجتماعى الذى يصور فيه عِلَلنا الاجتماعية والأخلاقية ، مع الدعوة إلى البر بالفقراء والبؤساء ، وحثٍّ الأثرياء على بذل أموالهم للملاجئ والجمعيات الخيرية. وشدَّ شوقى إلى قيثارة الفصحى و تراً اجتماعيا بديعا كما شدَّ إليها وترا وطنيا رائعا اشترك فيهما مع حافظ ، وله فيهما أبيات نادرة مثل قوله :

وطنى لو شغِلْتُ بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

فحتى لو كان ينعم فى أعطاف الخلد وجنبات الجنان لن ينساه ولن يغرب عن خياله ، فمصر معبودته بتراثها العبق . وشد

فى قيثارة الفصحى وترا عربيا فى غاية الروعة ، و قصائده فى دمشق قلما تجد دمشقيا لا يحفظها ولا يتغنى بأبياتها ، من ذلك قصيدته القافية التى نظمها حين صوَّب الفرنسيون عليها مدافعهم، وفيها يدعو السوريين إلى استمرار الثورة على الفرنسيين وبذل دمائهم و أرواحهم فى سبيل ما يريدون من الحرية و الاستقلال ، يقول :

وللحرية الحمراء بابٌ بكل يدٍ مضرَّجةٍ يُدَقُّ

وشدإلى قيثارة الفصحى وترا تاريخيا تغنى فيه بتاريخ مصر وأمجادها الفرعونية غناء حارا ، وله فى هذا التاريخ قصائد فريدة مثل قصيدته فى أبى الهول و قصيدته فى اكتشاف قبر توت عنخ آمون وقصيدته : النيل ، وفيها صور تاريخ الفراعنة وأمجادهم الحضارية العريقة ، و ذكر تابوت موسى وقصة يوسف وإخوته ومريم وعيسى ونزول الإسلام فى مصر واستضاءتها بأنواره مجسِّما فى ذلك كله شخصيةالنيل المعنوية بجانب شخصيته الحسية . وشدَّ إلى قيثارة الفصحى وتراً دينيا بمدائحَ للرسول صلى الله عليه وسلم ، يتفوق فيها على جميع معاصريه. ومن أروعها يتيمته الفريدة التى سمَّاها البردة والتى نظمها على غرار مِدْحَة نبوية للبوصيرى تحدث فيها عن سيرة الرسول وشمائله العطرة ، وردَّ فيها على أعداء الإسلام الذين يزعمون أنه إنما انتشر بالسيف وسفك الدماء قائلا :

قالوا غزوتَ ورُسْلُ اللّه ما بُعِثُوا لقتل نَفْس و لا جاءوا لسفك دَمِ
جَهْلٌ و تضليل أحلامٍ و سَفْسَطَةٌ فَتَحْتَ بالسَّيْفِ بَعْدَ الفَتْحِ بالقَلَمِ

ولو أن هؤلاء الأعداء قرءوا القرآن وما فيه من قوله تعالى : (وقاتلوا فى سبيل اللّه الذين يقاتلونكم و لا تعتدوا إن اللّه لا يحب المعتدين) لعرفوا أن حروب الرسول صلى اللّه عليه وسلم لم تكن عدوانية إنما كانت دفاعية . ولشوقى أبيات كثيرة نادرة فى مديح الرسول صلى اللّه عليه وسلم كقوله فى افتتاح قصيدة فى ذكرى المولد النبوى:

ولُد الهدى فالكائنات ضياءُ وفَمُ الزّمانِ تبسُّمٌ و ثناءُ

ويتحدث فى فواتحها عن مولده و ما حدث فيه من خوارق متعددة. وشوقى عبقرى الشعر العربى الحديث ، وقد احتذى الشعراء فى مصر والبلدان العربية نماذجه و نماذج حافظ فى الشعر الوطنى والاجتماعى ، وبذلك أظلت مدرستهما : مدرسة الإحياء فى العالم العربى من الخليج إلى المحيط.

ونشأ جيل جديد يمثله عبد الرحمن شكرى و إبراهيم المازنى وعباس العقاد اتجه بفصحى الشعر وِجهةً لم تُعْرَف لها قديما إذ جعلوا قصائدها تعبر عن معانٍ إنسانية عامة وعن الطبيعة والكون وعن النفس و دخائلها ومطامحها وآلامها و أحلامها ، واستغرق هذا الجيل منزعُ الرومانسية فى الغرب ، ولكل منهم دواوين متعددة . وخلفت هذا الجيل مدرسة أبولو ، ويتألق فيها إبراهيم ناجى وعلى

محمود طه أما إبراهيم ناجي فيغرق في المنزع الرومانسي الأوربي إلى أذنيه ، فجعل شعره ذاتيا وجدانيا يتغنى فيه بحب شقي عاثر غناء كله ألم وشجن وقلق ممض ، وكأنه يتجزع الحياة من كوب ماء مرير ، وكان علي محمود طه مثل ناجي يتأثر بالمنزع الرومانسي الوجداني ، وعني في شعره برصف الألفاظ الخلابة التي تؤثر في قارئه برنينها وألحانها المتلاحقة . وله ولصاحبه – مثل شعراء المدرستين السابقتين – تجديدات في الأوزان والقوافي.

ويشيع – منذ أواسط القرن العشرين- نمط جديد من الشعر يتخفف من أثقال العروض ، فيلغي القافية المطردة إلغاء تاما ، ويلغي معها فكرة الشطر والبيت ، فالقصيدة من هذا النمط الجديد لا تتكون من أبيات بل تتكون من سطور متلاحقة ، ولا تستبقي من العروض الموروث للشعر العربي سوى التفعيلة إذ يعتمد عليها في سطوره ، ولذلك سموا هذا النمط شعر التفعيلة ، ومن شعرائه الممتازين نازك الملائكة بالعراق وصلاح عبد الصبور بمصر ، ومنذ ظهر يكثر شعراؤه كثرة مفرطة في العالم العربي.

ومما يذكر لشوقي أنه أدخل في فصحى الشعر العربي فنا شعريا جديدا هو فن الشعر التمثيلي الغربي ، وقد أراد به أن

يقاوم تيار اللغة العامية الذى طغى على المسرح المصرى ، ونجح فى ذلك نجاحا منقطع النظير ، وفُتن الشباب بأعماله التمثيلية لإرضاء عواطفهم الوطنية والعربية ، ولتمصيره هذا الفن الأوربى إذ جعله فنا مصريا عربيا لأول مرة فى تاريخنا الحديث ، وقد ألف فيه ثلاث مسرحيات ترضى العواطف الوطنية ، وهى مصرع كليوباترا وقمبيز وعلى بك الكبير ، ومسرحيتين ترضيان العواطف العربية الإسلامية ، وهما مجنون ليلى وعنترة ، وألحق بهما مسرحية نثرية هى أميرة الأندلس. و خلفه عزيز أباظة واتخذ منه إماما يتبع خطاه ، فينظم على قيثارة الفصحى مسرحية و طنية هى شجرة الدر ومسرحيات عربية. هى قيس ولبنى والعباسة والناصر وغروب الأندلس سوى مسرحياته : شهريار وقافلة النور وأوراق الخريف .

وعلى هذا النحو ازدهر الشعر العربى فى القرن العشرين وازدهرت معه فصحاه إذ وقَّع الشعراء على قيثارتها مالا يكاد يحصى من الدواوين ذات الاتجاهات الجديدة لا فى مصر و حدها بل فى جميع أقطار العالم العربى ، سوى ما صاغ لها شوقى و عزيز أباظة من الشعرالتمثيلى المسرحى.

وإذا انتقلنا من فصحى الشعر إلى فصحى النثر فى القرن العشرين لاحظنا -منذ فواتحه -أن الكتّاب تخلصوا من أسلوب السجع وما كان يثقله من أغلال البديع ، وتحولوا إلى أسلوب مرسل خال من العوائق ، وأخذوا يُمَرِّنونه فى موضوعات سياسية واجتماعية وفى أداء ما يترجمونه من الموضوعات والمعانى الغربية، وظهر حينئذ خطباءُ وكتابٌ كبارٌ مثل مصطفى كامل ومصطفى لطفى المنفلوطى وأحمد لطفى السيد، أما مصطفى كامل فكان خطيب الأمة السياسى ، الذى ينازل الاحتلال الإنجليزى منازلة حادة ، ويعد مؤسس الخطابة السياسية فى مصر والبلاد العربية ، ونمّاها بعده سعد زغلول وخطباء الأحزاب السياسية ، واقترنت بها الخطابة القضائية ، إذ نقلنا نظام القضاء الغربى وما يتصل به من المحامين المدافعين عن المُدَّعِين والمتهمين ، ونبغت فى الخطابة القضائية طائفة كبيرة من المحامين .

ونهضت مصر بهذين اللونين من الخطابة فى الأدب العربى الحديث، فهى التى أتيح لها من بين البلاد العربية أن تنشط فيهما،إذ كانت الحريات مكبوتة فى تلك البلاد بسبب خضوعها للترك أو لفرنسا،ولم ينقل إليها مبكرا النظام القضائى الغربى كما نقل إلى مصر.

وأما مصطفى لطفى المنفلوطى فكان محررا فى صحيفة المؤيد ،ولم يكن يكتب فى السياسة إنما كان يكتب فى بعض جوانب حياتنا الاجتماعية مقالات نشرها فى تلك الصحيفة بعنوان "نظرات" تحول فيها إلى ما يشبه مصلحا اجتماعيا ، إذ يتحدث فيها عن عيوب المجتمع وما يتصل بها من مساوئ الأخلاق ، ويدعو إلى البر بالفقراء مصورا حياتهم وما فيها من هوان ، كما يدعو إلى التمسك بالفضائل . وهو يعنى - فى نظراته- بفصحى سلسة عذبة يتيح لها جَرْسا حسن الوقع فى النفوس ، وظل الشباب فى عصره وبعد عصره يعجبون به إعجابا شديدا.

وكان أحمد لطفى السيد محرر صحيفة الجريدة ، وكان فى مقالاته بها يعنى بتلقين الشعب المصرى حقوقه وواجباته السياسية وما ينبغى أن يسود فيه من مبادئ الحرية : حرية الفرد و حرية الأمة وكان لا يزال يحاول تربية الشعب و تعريفه بما ينبغى له من النظم السياسية والاجتماعية السديدة ومن الاستقلال الذى ينزل من الأمة منزلة الخبز والماء. وكل ذلك يؤدّى بفصحى جزلة رصينة.

ونمضى بعد الحرب العالمية الأولى فى هذا القرن فتنشأ عندنا الأحزاب ويؤسس كل حزب لنفسه صحيفة ينشر فيها آراءه فى

السياسة والحكم. وأخذت صحف الأحزاب وما عاصرها من مجلات أدبية كالهلال والمقتطف تعرض على القراء بحوثا فى الأدب والفكر الغربيين. وألحقت بصحف الأحزاب مجلات أدبية مثل السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعى، ونشطت الكتابات الأدبية، ويحمل لواءها العقاد والمازنى فى الكتابات النقدية وطه حسين ومحمد حسين هيكل فى المثل العليا فى الأدب و نقده. ولعباس العقاد وطه حسين حوار واسع فى منزعهما للتجديد مع مصطفى صادق الرافعى الذى كان يحمل راية القديم و يدافع عنه دفاعا حارا، وكان سلامة موسى ثائرا على القديم ثورة عنيفة ويدعو بقوة إلى نبذ كل ما يتصل به من علم وأدب ونظم سياسية، ولا بأس عنده أن نجعل لغتنا أقرب إلى العامية.

وكان سلامة موسى يقف وحده، فإن أدباء مصر المجددين من أمثال طه حسين و هيكل و عباس العقاد و المازنى كانوا يجمعون على أن يظلوا – ويظل معهم الكتاب فى مصر و غير مصر – مع الفصحى الرصينة الناصعة البديعة، فهم يحرصون على الإعراب وعلى ألفاظ الفصحى السائغة التى تقررها المعاجم، وهم فى هذا الإطار يجددون تجديدا لا يخرجون به عن أصول الفصحى، وإنما يُثْريها و ينميها بفكر جديد.

ومما لاريب فيه أن هؤلاء المجددين العظام من أدبائنا أحدثوا فى الفصحي العربية مرونة واسعة وقد أخذت جماعتهم تتكاثر وتتسع لعناصر من الشباب الذين حذقوا اللغات الأجنبية و فقهوا بدقة الآداب الغربية مثل توفيق الحكيم الروائى ومحمود تيمور القصصى بحيث أصبحنا بين الحربين العالميتين الأولى والثانية فى هذا القرن نملك أدبا مصريا عربيا جديدا نبَتَ فى وطن مصرى على أيدى طائفة من المصريين

وتتطور حياة المصريين العلمية و الأدبية بعد الحرب العالمية الثانية تطورا واسعا لسبب مهم ، و هو أن الجامعات المصرية أنشأت أجيالا متخصصة فى كل فرع من فروع العلم و الأدب الغربيين ، و نتج عن ذلك أن أصبحت الفصحى لسانا لكثير من ألوان الأدب والعلم ، ونشأت بيننا طبقة من العلماء تحسن التعبير العلمى والأدبى .واتسعت ترجمة الفكر الغربى ، وحقا كان قد سبق إلى ذلك كبار الأدباء السابقين من مثل المازنى وطه حسين و محمد حسين هيكل ، وقد تلاهم الشباب الذين تخرجوا فى الجامعات ، وأقبلوا على ترجمة الفكر من جميع اللغات الأوربية التى ثقفوها كما أقبلوا على بسط المذاهب الأدبية الغربية من كلاسيكية ورومانسية وواقعية ورمزية وسريالية ، واشترك معهم فى هذه الجهود الخصبة أدباء البلاد العربية من الشباب و غير الشباب .

ونشأ عن ذلك أن أخذت حياة الأدب العربى المعاصر تتصل بحياة الآداب الغربية ، إذ أخذ الشباب فى مصر و غير مصر يحاول إحداث نماذج من المسرحيات والقصص تطابق نماذج الغربيين فى هذين الفنين على نحو ماهو معروف عن توفيق الحكيم و محمود تيمور ويحيى حقى ونجيب محفوظ و غيرهم كثيرون ممن يجيدون الفنَّ المسرحى و الفنَّ القصصى .وأخذتْ مسرحيات توفيق الحكيم تترجم إلى اللغات الأجنبية، وتُمَثَّل على بعض مسارح الغرب فى فرنسا والنمسا وإيطاليا . وترجمت إلى اللغات الأجنبية قصص كثيرة لمحمود تيمور ويحيى حقى ونجيب محفوظ ولقصاصين آخرين فى مصر والبلاد العربية ، وظفرت بعض قصص نجيب محفوظ بجائزة نوبل العالمية ، وهو اعتراف بأن أدبه عالمى إنسانى وأن أدبنا العربى يرقى إلى مرتبة الآداب العالمية الحية الكبرى.

وحتى الآن لم أتكلم عن الصحافة وتأثيرها الكبير فى الفصحى وقد نشأت عندنا الصحافة فى الثلث الأخير من القرن الماضى ، وأخذت تعنى بالشعب و تصوير ميوله وأهوائه السياسية ، وكان ذلك تحولا كبيرا بالفصحى ، إذ كان طال بها العهد فى مخاطبة الحكام والأمراء والطبقة المثقفة فى الأمة ، وكانت تخاطبهم بلغة مسجوعة تراكمت عليها أعشاب البديع ، وهى الآن تخاطب الشعب،

فكان طبيعيا أن تنفى السجع وأعشاب البديع عن لغتها وتخاطبه بلغة سهلة واضحة يستطيع أن يفهمها توا .

وتصادف أن المطبعة أظهرت محررى الصحف على أعمال أدبية للأسلاف من أمثال ابن المقفع كتبت بأسلوب مرسل ليس فيه سجع ولا بديع ، فتحولوا إلى الكتابة بهذا الأسلوب ، حتى يفهم الشعب ما يريدون أن يقولوه ، وحتى لا يجد مشقة فى هذا الفهم.

ويتولى الصحافة والصحف فى القرن العشرين محررون نابهون كثيرون أخذوا يُبسِّطون أساليبهم الصحفية تبسيطا لا ينزل بها إلى مستوى العامية والابتذال ، وفى نفس الوقت لا تعلو عليهم ولا ترتفع بحيث يشعرون بشئ من العسر فى قراءتها وفهمها : أساليب سهلة وواضحة حتى لايعزفهما على الطبقات الدنيا فى الشعب ، إذ تريد الصحف أن تذيع وتنتشر فى جماهيره. ومن أجل ذلك يحتاج الصحفى دائما إلى التبسيط فى تفكيره وأسلوبه . وإذا كانت الفكرة التى يريد أن يبلغها إلى الجماهير الشعبية مرتفعة فى نفسها حاول بكل ما يستطيع أن يبسطها إلى أقصى حد ، حتى تكون واضحة للجماهير ، وحتى لا تجد أى مشقة فى فهمها ، ولا بد أن يختار لها فصحى سهلة مبسطة

غاية التبسيط .ومع تعاقب العقود فى القرن الحاضر بلغت الصحافة المصرية من تبسيط الفصحى أقصى حد ممكن . والصحافة - بذلك - أنشأت لنا فصحى جديدة بين العربية الموروثة والعامية التى نتداولها فى حياتنا اليومية ، ففيها فصاحة الأولى ، وفيها سهولة الثانية و قربها من الأفهام . وأتاحت الصحافة المصرية لهذه الفصحى الجديدة أن تنتشر لا فى مصر وحدها بل أيضا فى العالم العربى جميعه ، إذ تقبل عليها الجماهير القارئة فى البلاد العربية : فى لبنان وسوريا والأردن و العراق والحجاز والسودان وبلدان المغرب . وأصبحت الفصحى الصحفية المصرية هى الفصحى الشائعة فى البلاد العربية .وتكثر الصحف فى مصر والعالم العربى منذ منتصف القرن الحاضر ، حتى ليصدر منها يوميا مئات و تكثر معها المجلات الأدبية ويبلغ قراء بعض الصحف فى مصر مليونا وأكثر ، وأعجب أن يقول بعض الكتاب إننا فى حاجة إلى لغة وسطى بين اللغة الموروثة والعامية ، والصحافة قد أوجدت له هذه اللغة وهو والجماهير يحملونها ويقرءونها صباح مساء ، ولو جمعت فى أى بلد عربى لتكونت منها تلال .

ولم تتفرع من الفصحى فى القرن العشرين فصحى الصحافة وحدها ، فقد تفرّعت منها فصحى أدبية متنوعة تنوعا واسعا

بتنوع الفنون التى استحدثتها مصر فى القرن الحاضر ، وفى مقدمتها فن المقالة و قد أفردت لها مجلات أسبوعية مثل السياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعى والرسالة والثقافة ومجلات شهرية مثل الهلال وكانت تعنى المقتطف الشهرية بعرض الحركة العلمية عند الغربيين وتصوير نظرياتها المختلفة بخلاف المجلات التى سبقتها فقد عنيت بالأدب ومباحث الغربيين العميقة فى الفكر والأخلاق والفلسفة والاجتماع والاقتصاد . ومنذ أواسط القرن تتكاثر المقالات فى الصحف وتتكاثر المجلات ، ويصبح لكل كلية جامعية علمية مجلة .

ولم يكن للفصحى فى الماضى قصص سوى المقامات التى تصور مغامرات أديب متسول يخلب سامعيه ببلاغة عباراته ، وكنا قد أخذنا نتأثر بالأدب الغربى ولم يلبث هيكل فى العقد الثانى من القرن الحاضر أن كتب قصة اجتماعية طويلة مستضيئا فيها بالقصص الغربى وتقاليده .ويكثُربعد الحرب الأولى فى هذا القرن الشباب الذين يكتبون الأقصوصة كتابة فنية. ويكثر محمود تيمور من الأقاصيص و القصص الاجتماعية الطويلة ، ويبلغ الذروة فى فن القصة ، ويشاركه فى القصة الطويلة طه حسين واصفا الحياة المصرية والمازنى متجها فى قصصه إلى التحليل النفسى ، ويتكاثر معهم القصاص من الشباب . ونمضى بعد ثورتنا

المصرية فيحدث انفجار فى كتابة القصة عندنا سواء من حيث كثرة القصاص أو من حيث كثرة ما ينتجون من القصص بالفصحى ، مما يُصَوِّرُ نشاطا هائلا بفن القصة فى القرن العشرين، ونال الأستاذ نجيب محفوظ فى هذا الفن - كما أسلفنا - جائزة نوبل الأدبية.

ولم تعرف الفصحى النثرية فن المسرحية قبل القرن العشرين، وما إن تتقدم إلى العَقدْ الثانى من هذا القرن حتى يلمع اسم كاتبيْن مسرحيين هما أنطون فرح وإبراهيم رمزى دَرَسَا أصول هذا الفن الغربى وألَّفا فيه مسرحيات تاريخية و اجتماعية ، وتضع الحرب العالمية الأولى فى القرن أوزارها ، وينشط التمثيل المسرحى و تؤلَّف له مسرحيات اجتماعية مختلفة ، وتنشئ الدولة فى سنة ١٩٣٤ الفرقة القومية كما تنشئ المعهد العالى للتمثيل ، ويظهر توفيق الحكيم ، ويثب بالتأليف المسرحى وثبة كبرى ، ويُرْسِى قواعده فى النثر كما أرساها شوقى فى الشعر ، ويتابع نشر مسرحياته البديعة . وكما حدث بعد الثورة انفجار فى فن القصة وتكاثر مؤلفوها فى مصر وغير مصر حدث انفجار مقابل فى فن المسرحية وتكاثر مؤلفوها وتكاثرت المسرحيات.

وواضح من كل ما أسلفت أن الفصحى ازدهرت فى القرن العشرين آزدهاراً عظيماً ، فقد تفرع منها فصحى صحفية مبسطة يحملها الملايين من الجماهير المصرية و العربية يوميا ، وبثَّ فى فصحى النثر كبار الأدباء نَضْرةً ورونقا رائعين . وليس ذلك ما حققته فحسب. فإنها أدت أداء بديعا ما استحدثناه من فنون المقالة والقصة والمسرحية وبذلك عاشت الفصحى - طوال القرن العشرين - فى النثر و الشعر جميعا حياة مزدهرة أعظم ما يكون الازدهار وأروعه .

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ٩٧٣٣ س ١٩٩٨ - ١٠١٠

رقم الايداع : ٩٩/٢٨٩٤ 977-5037-34-4